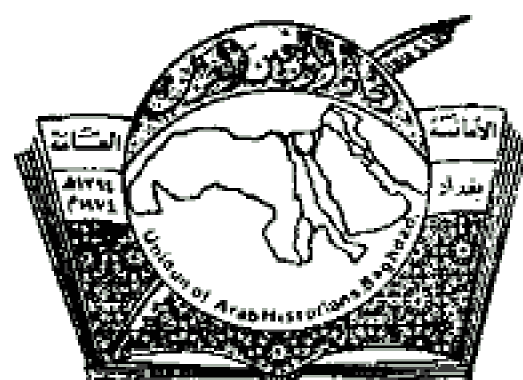


المؤرخ العربي



مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع على نفقة وزارة الثقافة والفنون
في الجمهورية العراقية

العدد العاشر

مجلة

المؤرخ العربي

رئيس التحرير
الدكتور حسين أمين
الأمين العام
لاتحاد المؤرخين العرب

مجلة تصدرها
الأمانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب
بغداد - العراق

طبع على نفقة وزارة الثقافة والفنون
في الجمهورية العراقية

كلمة العدد

يسر الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب أن تقدم للباحث والمؤرخ العربي العدد الجديد من مجلته العلمية في مفتتح السنة الجديدة / ١٩٧٩، وهي اذ تهدي هذا المجهود الذي تعاون على اخراجه نخبة خيرة من الباحثين والعلماء من اقطار عربية واجنبية شتى ، لتعتز بالتكامل الواضح في تطور وازدهار هذه المجلة التي اخذت طريقها الى كل الجامعات والمؤسسات الثقافية في العالم .

ان الامانة العامة لاتحاد المؤرخين العرب لفخورة أيضا بالدعم الكبير من الحكومات العربية والمؤسسات العلمية والتي ما فتئت في تقديم كل عون معنوي ومادي من أجل اظهار هذه المجلة ببريقها العلمي وشموخها الثقافي وسماتها القومية النبيلة .

تحية الى كل المخلصين من ابناء العروبة الذين عملوا ويعملون على رفع مكانة التاريخ والحفاظ على تراث الامة الخالد .

الدكتور حسين أمين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب



أسرة التحرير



محتويات العدد العاشر لمجلة المؤرخ العربي


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی

الدعوة العباسية

الدكتور حسين امين
الامين العام لاتحاد المؤرخين العرب

الدعوة العباسية بحث طريف ، صفحة من صفحات التاريخ الاسلامي تظهر كيف أن أسرة ادعت أنها صاحبة الحق الشرعي وبثت الدعوة ونمت الفكرة بصورة سرية ونشرتها في الآفاق ، وجمعت الأنصار وصارت تتحين الفرص لاعلانها وأخذت الدعوة تقوى شيئا فشيئا وتنتشر بين البلدان والأقطار وانطوى المشرق تحت جناح العباسيين واستعمل شيء كبير من الدهاء ، واستغل بيت آخر لعله أحق من البيت الأول بالخلافة ، أما كيف بدأت الدعوة ؟

فقبل أن نجيب على هذا السؤال ، نسأل كيف تطلع العباسيون الى الخلافة ؟ وهذا موضوع مهم وغريب في الوقت نفسه وكلنا يعلم ان الخلافة في أول أمرها قامت على الشورى وقد انتخب أبو بكر وعمر وعثمان وعلي ، وكانت خلافتهم جميعا صحيحة وشرعية على ما أرى ، على الرغم من وقوع بعض الاختلافات في طريقة انتخاب كل منهم .

نلاحظ من سياق الحوادث التاريخية بعد وفاة الرسول محمد (ص) ان العباس بن عبد المطلب عم النبي كان موجودا ولم يفكر أحد في تقديمه الى الخلافة ولم يرشح هو نفسه لذلك المنصب . ثم جاء الأمويون واستحوذوا على الخلافة بالقوة

واستمروا في ذلك وكان هناك فريق من المسلمين يرى ان الأمر سار على غير نظام وان الحكام الامويين انحرفوا عن جادة الطريق الاسلامية ٠

وأول من وصلت الينا أخباره انه سعى في مناوأة الأمويين وطلب الحكم هو محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بن عبد المطلب الذي وجه الدعاة في الآفاق (١) ، وكان محمد هذا يسكن في « الحميمة » : قرية من القرى التي أبعد الأمويون اليها بعض مناوئيهم وهي تقع في الأردن ٠ وكان قد نزل الحميمة (أبو هاشم) بن محمد بن الحنفية عبد الله بن محمد بن علي ابن أبي طالب رئيس الشيعة الهاشمية ، ويقال ان أبا هاشم لما طعن في السن وأحس بدنو أجله أوصى لمحمد بن علي بن عبد الله ابن العباس بالامامة من بعده (٢) ، بعد أن علمه الأسماء والعلوم ودفع اليه كتبه وصرف اليه معظم مؤيديه وأعلمه بكل الخطط التي رسمها للثورة التي يستهدف تنفيذها ٠ ولا زال الغموض يكتنف هذه الرواية التي فيها من عوامل الضعف ما يحملنا على التحفظ وعدم الجزم بصحتها ٠

ولاحظ الدعاة وتفهموا ما عليه الناس من الحقد والتذمر من ثقل الضرائب الكثيرة وزيادتها عليهم في مناسبات عديدة كما أخذوا الجزية والخراج ممن كان قد أعفي كالفقراء والرهبان والعاجزين وابتدعوا ضرائب جديدة كالرسوم على الصناعات والحرف وضرائب على من يتزوج وأرجعوا ضرائب ساسانية قديمة مثل هدايا النوروز ، وكان ولاة الأمويين في الغالب قساة في جمع الضرائب وكان لسياستهم المبنية على العنف أثر كبير

---

(١) ابن الاثير / الكامل في التاريخ حـ ٤ ص ١٥٩ .

(٢) المسعودي / التنبيه والاشراف ص ٢٩٢ — ٢٩٣ .

في سكان الولايات • وقد استغل الدعاة الانقسام الذي وقع في صفوف العرب خاصة بين القيسيين واليمانيين ، وظهـور روح التعصب القبلي ، ومن الجدير بالذكر أنه قامت بين القبائـل العربية منازعات كثيرة في بلاد فارس • وكانت للثورات المتعددة والحروب الكثيرة التي خاضتها الدولة الأموية آثارها البعيدة في استنزاف موارد الدولة ومقتل الكثير مـن الجنـد العربـي وانتشار العرب وهجرتهم الى الغرب والشرق ، وهـذا بالطبع أضعف العنصر العربي وشتته في الأقطار البعيدة، كما أحس الدعاة بروح التذمر العامـة التي سادت نفـوس الشعوب المفتوحـة ومحاولتهم التخلص من الحكم الأموي •

ويبدو لنا ان شخصية محمد بن علي العباسي كانت قويـة ويمتاز بالذكاء وحسن التدبير •وفي سنة ١٠٠هـ أرسل رجلا الى الكوفة يدعى ميسرة (١) كما أرسل الى خراسان محمد بن خنيس وأبا عكرمة السراج (يدعى بأبي محمد الصادق) وحيان العطار وكل هؤلاء من أهل الكوفة وأمرهم بالدعوة له ولآل بيته ، وقد اختار أبو محمد الصادق اثني عشر نقيبا وسبعين داعية وكتب اليهم محمد بن علي كتابا يسترشدون به ويسيرون على نهجه ، وقد انضم الى الدعوة كثير من الرجال لعل من أشهرهم بكير بن ماهان وقد أصبح هذا من كبار الدعاة وحل محل ميسرة بعـد وفاته (٢) •

وعندما ظهر نشاط هؤلاء الدعاة أخذ الأمويون يراقبونهم ويتعقبون حركاتهم ، وفي سنة ١١٨هـ أرسل بكير بن ماهـان داعية يعرف عمار بن يزيد الى خراسان وقد غير هذا اسمه الى

---

(١) ابن الاثير / الكامل جـ٤ ص ١٥٩ •
(٢) الطبري / حـ٢ ص ١٤٦٧ •

(خداش) (١) ويبدو أن خداشا هذا كان على جانب كبير من النشاط والفعالية ولكنه انحرف عن الدعوة وصار يدعو الى ما دعت اليه الخرمية ونادى باشتراكية النساء وكانت عاقبته أن أمر الوالي بقتله ، وبعد خداش ترأس الدعوة في خراسان سليمان بن كثير الخزاعي (٢) وهذا عربي من قبيلة خزاعة المشهورة ، وتجدر الاشارة هنا ان بعض المؤرخين خاصة المستشرقين منهم غالوا في القول من أن أكثر الدعاة من الموالي أي غير العرب والحقيقة ان المتأمل في التاريخ ونصوصه يجد أن المؤرخين القدامى عند ذكرهم أهل خراسان مثلا لا يقصدون الأعاجم انما كان القصد منها في كثير من الأحايين يراد به القبائل العربية التي كانت تسكن هناك أي في خراسان وقد نسب الكثير من العرب الى المدن الفارسية فاذا ما ولد عربي في مدينة مثل كرمان أو أصفهان أو تبريز نسب الى تلك المدن ٠ ولا ننسى أن الفاتحين الذين فتحوا بلاد فارس كانوا من القبائل العربية ومعظمهم من سكان مدينتي البصرة والكوفة ، فلا عجب اذن أن يكون الكثير من الدعاة من العرب المتحمسين ضد الحكم الأموي ومن المؤيدين لآل علي وآل العباس ، ومن أشهر الدعاة العرب على أساس المثال لا الحصر قحطبة بن شبيب الطائي ، وسليمان ابن كثير الخزاعي وأبو نصر مالك بن الهيثم الخزاعي ، وخالد ابن ابراهيم الذهلي ، وأبو عمر بن حريز المزني والقاسم بن الجيوش وقياداتها كانت بأيد عربية معروفة ، والمهم هنا أننا الجيوش وقياداتها كانت بأيدي عربية معروفة ، والمهم هنا أننا يجب أن نفتش عن الحقيقة تلك التي تظهر الأثر العربي في

---

(١) المرجع السابق حـ٢ ص ١٥٨٨ ٠

(٢) **ولهاوزن** / الدولة العربية وسقوطها ص ٤٠٧ ترجمة الدكتور يوسف العشي ٠

الدعوة العباسية على عكس ما يتناقله المستشرقون ومقلدوهم ٠

لقد انتشر الدعاة في الأقطار خاصة خراسان ، والظاهر ان العباسيين ركزوا اهتمامهم في المشرق وقد لاقى الدعاة من الحكام الأمويين صنوف الاضطهاد والعذاب ، والذي يبدو أن هؤلاء الدعاة لم يبالوا بل مضوا في بث الدعوة بشكل مستميت ، والدعوة مثل رائع عن الصبر في سبيل المبدأ ، فقد صبر هؤلاء أكثر من ربع قرن واحتملوا الأذى من أجل الهدف ٠ وكان الداعية يتزيا بزي التجار المتنقلين أو يفتح دكانا في قرية أو متجرا في مدينة أو يشتغل خادما في بيت أو في محل تجاري ويتعلم أكثر من لغة أجنبية ويتعود بعادات أهل البلد وبتقاليدهم ويقوم بتنفيذ التعليمات بنظام ويقظة وحذر ، وكان المبدأ العام المرسوم للدعوة أنها ظاهريا للعلويين وباطنيا للعباسيين ٠ ومن حديث لمحمد بن علي العباسي الى دعاته أن يكتموا اسمه عن العامة في قوله : « فان سئلتم عن اسمي فقولوا نحن في تقية وقد أمرنا بكتمان اسم امامنا » ٠ فقد نجح العباسيون في كسب عناصر كثيرة كانت تعطف على العلويين وترى أنهم أصحاب حق مغتصب ، وحاول العباسيون نشر بعض الأفكار التي اتخذوها مثال ذلك أنهم صاروا يروجون أنهم ورثة علم الباطن الذي انتقل من الرسول (عليه الصلاة والسلام) ، وقد قلنا سابقا أن الدعوة انتظمت في خراسان وقد أنتخب اثنا عشر نقيبا وسبعون داعية وهذا الرقم الذي ذكرناه شبيه باختيار الرسول (ص) باثني عشر نقيبا وسبعين داعية من رجال يثرب بعد بيعة العقبة الثانية وان شعارهم الأسود الذي اتخذوه لم يكن الا احياء لراية الرسول (ص) ٠

وفي سنة ١٢٥هـ توفي محمد بن علي بن عبد الله العباسي

وتولى الامامة ولده ابراهيم (١) الذي أرسل بكير بن ماهان الى خراسان وزوده بالوصية ودخل مدينة مرو وجمع النقباء ومن بها من الدعاة فنعى كلهم الامام محمد بن علي ودعاهم الى ابراهيم وسلموا اليه ما جمعوه من المال باسم الامام • وفي سنة ١٢٦هـ توفي بكير بن ماهان وكان بكير قد أوصى أن يكون أبا سلمة الخلال رئيسا للدعوة ، ويعتبر أبو سلمة الخلال من الدعاة النشيطين وهو الذي أظهر الدعوة العباسية من طورها السري الى حالتها العلنية، ونلاحظ أن الكوفة كانت مركزا للامام وكانت أكثر التعليمات تصدر منها الى جميع الدعاة ، ومن الجدير بالذكر ان العرب شاركوا في هذه الدعوة بأعداد كبيرة وكان للفرس عدد لا يستهان به من الدعاة وأكثرهم من أصحاب المصالح من الباعة والتجار وأصحاب الحرف • وكانت الدعوة تسير ببطء • واعتقادنا في هذا ان الحذر والتحفظ والتأني هي العوامل التي جعلت الدعوة تنتشر بهذه الطريقة البطيئة • كما نلمس أن العباسيين رأوا أن تكون دعوتهم تتركز في أشد المناطق حقدا على الدولة الأموية ، لذا نجد أن مركز الدعوة كان في الكوفة الذي يعج بشيعة الامام علي وبالذين يعطفون على العلويين كما كان هذا المركز يزودهم بعناصر المعارضة الشديدة للامويين • كما اتخذت خراسان قاعدة كبيرة تنتشر منها الدعوة العباسية ، وهناك في خراسان تنفذ التعليمات التي تصدر عن المركز العام ــ الكوفة ــ بكل حرية لأن الادارة الأموية على ما يبدو في هذه المنطقة كانت ضعيفة والمعارضة كانت شديدة كما كان هناك جماعة من الرجال العرب والفرس يحقدون على الحكم الأموي ، كما أن اتخاذ الكوفة المركز الرئيسي للدعوة ومقام الامام يؤيد رأينا بقوة العنصر العربي وأهميته وفعاليته في

---

(١) ابن الاثير / حوادث ص ١٢٥ •

الدعوة العباسية ، ذلك أن الكوفة هي من أهم المراكز العربية في العصر الأموي وتعج بالقبائل العربية ·

في هذه الفترة يظهر أبو مسلم الخراساني وشخصية هـذا الرجل مثيرة وغامضة ولكنها لا تخلو من العبقرية والنشاط وهو يمثل الانسان العصامي الطموح الذي يشق طريق حياته بارادة قوية ، ولد كما تروي الروايات والأخبار التاريخية في مدينـة أصفهان من أب من الموالي اسمه (خوكان) وأم جارية فارسية ، كان أبوه في عسر من الحياة وضنك العيش دفعه الى بيع زوجته الحامل الى شخص اسمه عيسى بن معقل العجلي · وقد ولدت الأم طفلا سمي ابراهيم وكني بأبي مسلم ، ومرت به الأيام التي ساقته الى الانخراط في الدعوة العباسية فتوصل الى ابراهيم الامام ولما لاحظ هذا ذكاءه وفطنته مع جانب من الثقافة الفارسية والعربية وتقدير جيد في استغلال الظروف · فوضع الامـام شيوخ الدعوة في طاعته وأوصاه ألا يخالف الشيخ سليمان بن كثير الخزاعي وزوده بتعليماته · اذن من الثابت أن أبا مسلم لم يكن عبدا بل كان مولى وهذا ما اتفقت عليه الروايات ، ولو أن تلك الروايات اختلفت في مكان ولادته فابن الطقطقي (١) يذكر أنه ولد في أصفهان بينما يذكر الدينوري أنه ولد بالقرب من أصفهان ويذكر المسعودي أنه ولد في قرية قرب الكوفة · أما الطبري فيذكر أنه ولد بالقرب من خطرنية وهي قريبة من الكوفة ، وكانت هذه القرية مزدحمة بالفرس الذين كثيرا ما يثيرون المشاكل للامويين ، وقد يكون من الجائز أن يكون قد ولد فيها أو نشأ فيها · وهنا تعترضنا مشكلة ذات صلة بسياسة الامام تحتاج الى التفكير ، اذ يروي الطبري أن ابراهيم الامام

---

(١) ابن الطقطقي / الفخري في الاداب السلطانية ص ١٠٠ .

أوصى أبا مسلم الخراساني بوصية هذا نصها : « يا عبد الرحمن انك رجل من أهل البيت فاحتفظ بوصيتي ، وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمهم وأحل بين أظهرهم فان الله لا يتم أمره الا بهم ، وانظر هذا الحي من ربيعة فانهم معهم ، وانظر هذا الحي من مضر فانهم العدو والقريب الدار فاقتل من شككت في أمره منهم ، ومن كان في أمره شبهة ومن وقع من نفسه منه شيء • وان استطعت ألا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل ، فأيما غلام بلغ خمسة أشبار تتهمه فاقتله » • ان هذه الوصية كما أراها موضوعة لا أساس لها ذلك لأن تصرفات وسياسة أبي مسلم لم تعكس أي جانب من تلك الوصية بل كانت على العكس تصرفاته سياسة وسياسة تقريب الى كل عربي وغير عربي ، ان ابتداء الوصية : انك رجل منا أهل البيت ، فيها نظر فقد يكون الفرس قد دسوا هذه الوصية ليثبتوا أن أبا مسلم فيه قدسية وبركة وأنه من آل البيت وليحيطوه بهالة من التقديس والاحترام أو أن تكون هذه الوصية نشرها الأمويون ليؤلبوا العرب على العباسيين الذين كانوا قد أعلنوا دعوتهم • وأرجو أن تلاحظوا التناقض الموجود في الوصية • ففي أولها يوصي الامام بقوله : (وانظر هذا الحي من اليمن فأكرمه وحل بين أظهرهم فان الله لا يتم أمره الا بهم) • وفي نهاية الوصية شيء يناقض البداية في قوله (وان استطعت أن لا تدع بخراسان لسانا عربيا فافعل) (١) وهذا ان دل انما يدل على أن الموصي على جهل بالسياسة وانه في قلق وتناقض ولا أرجح أن الامام ابراهيم العباسي الذي يشرف على ادارة هذه الدعوة في أنحاء العالم الاسلامي والذي يريد تحطيم أقوى دولة في ذلك العهد انه يتصف بهذه الصفات أو يحمل تلك الأساليب التي تؤلب الناس

---

(١) الدينوري : الامامة والسياسة حـ٢ ص ١٢٤ .

عليه وعلى قضيته ، هذا بالاضافة الى أن العباسيين أو الدعوة بحد ذاتها كانت موجهة ضد الحكام الأمويين وليست ضد الشعب العربي ، ومن الجائز أن يتخذ الدعاة أو النقباء أو أي مسؤول عن الدعوة سياسة شديدة ضد المناوئين للدعوة والذين هم بذاتهم خطر على مصير الفكرة العباسية ، ومن الجدير بالذكر أن نعرف أن رئيس الدعاة في خراسان هو سليمان بن كثير الخزاعي ، وهو عربي من خزاعة التي كانت تمتلك القرى العديدة في واحة مرو • وكان سليمان بن كثير هذا قد اتخذ من قرية سقيدنج (١) مركزا للدعوة العباسية وظلت هذه القرية هكذا حتى اتخذ أبو مسلم قرية مخوان (٢) مركزا للدعوة العباسية ، وسبق أن ذكرنا أن ابراهيم اعتمد على أبي مسلم الخراساني وولاه أمر الدعوة بعد أن كبرت السن بسليمان بن كثير الخزاعي وذكرنا أن ابراهيم الامام أوصى أبا مسلم الخراساني بوجوب طاعة سليمان بن كثير وعدم مخالفته ،وهناك نصوص تاريخية صحيحة تظهر الأثر العربي ودوره الكبير في الدعوة العباسية • ويروي الطبري : ان عدد النقباء اثني عشر نقيبا ، ثمانية منهم من العرب فكيف اذن نستسيغ صحة هذه الوصية مع علمنا بوجود هذه الظروف وتوفر هذه الحالة • ونكرر أن هذه الوصية حسب اعتقادنا مدسوسة لغرض معين ولا أساس لها من الصحة •

كان أبو مسلم الخراساني نشيطا أظهر من الفعاليات ما جعل الناس يلتفون حوله ، والذي يبدو لنا ان الهيأة القيادية للدعوة العباسية كانت على شكل جماعة ، (وأعتقد) أن النقباء الاثني عشر هم الذين يكونون هذه الهيئة القيادية وأرجح أن من

---

(١) سقيدنج : من قرى مرو .
(٢) وتكتب ماخوان : قرية ابي مسلم الخراساني ومنها خرج بثورته .

واجباتها التخطيط العام للدعوة وتوجيه الدعاة ونشر التعاليم الخاصة بالدعوة بين الناس وطبيعيا ان الرأس لهؤلاء النقباء هو الامام محمد بن علي أو ابراهيم الامام أو أبو العباس ·

وقد تقرب أبو مسلم الخراساني الى طبقة العبيد وأخذ في استدراجهم وتقريبهم وضمهم الى الدعوة العباسية ولكي يدفعهم بحماس نحو تأييد الدعوة عين أحد الدعاة من أولئك العبيد ، وكانوا يمثلون أعداد كثيرة · ومن فعاليات أبي مسلم الخراساني أنه بعث بدعاته يجوبون الأقطار خاصة نواحي خراسان في زي التجار ·

وفي هذه الطريقة نجح أبو مسلم في كسب الكثير من الفلاحين والتجار والدهاقين ، هذا في خراسان ، أما في الكوفة فكان فيها داعية كبير هو أبو سلمة الخلال وقد قام بنشاط واضح في العراق وصار يشجع القبائل النازلة قرب الكوفة والبصرة على اثارة القلاقل ضد الحكم الأموي ، وفعلا قامت تلك القبائل باثارة تلك الاضطرابات في تلك المناطق بشكل أربك حكام الأمويين ، وقد قام الأحول الحمداني في منطقة حلوان بطرد العامل الأموي والدعوة الى آل الرسول ·

وفي سنة ١٢٩هـ أعلنت الثورة في خراسان وقد حاول الوالي الأموي نصر بن سيار تهدئة الأوضاع واخماد تلك الحركة التي ظهرت في ولايته فحاول أن يتقرب الى اليمانية ولكن آبا مسلم الذي عرف بالدهاء واستغلال الفرص تمكن من اقناع الكثير من القبائل العربية للانفضاض من حول نصر بن سيار وشعر الوالي الأموي نصر بالخطر المحدق بعد أن يئس من استجابة حكومة الشام لطلباته المتكررة في ارسال الامدادات والتمسك بالنصائح التي وجهها الى المسؤولين هناك فكتب أخيرا الى الخليفة

مروان الثاني آخر خلفاء بني أمية أبياتا من الشعر تكاد تكون خير ما يوضح تلك الأحوال :

أرى خلل الرماد وميض نار	ويوشك أن يكون لها ضرام
فان النار بالعودين تذكى	وان الحرب أولها الكلام
فان لم تطفؤها تجن حربا	مشمرة يشيب لها الغلام
فقلت من التعجب ليت شعري	أأيقاظ أمية أم نيام
فان يك قومنا أضحوا نياما	فقل : قوموا فقد حان القيام
ففري عن رحالك ثم قولي :	على الاسلام والعرب السلام(١)

ويبدو ان الخليفة الأموي طلب من يزيد بن هبيرة مساعدة الوالي نصر بن سيار ، ولكن هذا الوالي تلكأ في تقديم النجدات وتعلل بقلة ولاء العراقيين . وفي خراسان نجح أبو مسلم في أن يحمل الزعيم العربي علي بن جديع الكرماني زعيم القبائل اليمانية على مقاتلة الوالي الأموي نصر بن سيار ، فهجم زعيم اليمانية على مدينة مرو (مركز الوالي) ولكن أبا مسلم ظل بعيدا يترقب مصير المعركة . وهنا تذكر الروايات التاريخية بأن أبا مسلم الخراساني دخل مدينة مرو عاصمة خراسان وأخذ البيعة من الجند وهذا نصها : « أبايعكم على كتاب الله وسنة رسوله والطاعة المرضا من آل بيت رسول الله وعلى أن لا تسألوا رزقا ولا طمعا حتى يبدؤكم به ولاتكم وان كان عدو أحدهم

---

(١) المسعودي / مروج الذهب حـ٣ ص ١٧٠ .

تحت قدمه فلا تهيجوه الا بأمر ولاتكم » (١) ·

نلاحظ على النص السابق للبيعة التي أخذها أبو مسلم الخراساني من الجند في مدينة مرو ان العباسيين أو بمعنى أدق المسؤولين عن الدعوة العباسية لا يزالون في الأسلوب الذي ساروا عليه في بداية الدعوة من حيث كتمان اسم الامام الذي سيكون الخليفة الشرعي للعالم الاسلامي ، كما أنهم ما زالوا في تمويههم للرأي العام المناصر للحركة · ونجد ان أبا مسلم أخذ البيعة للشخص الذي توجب له الطاعة والرضا من آل بيت الرسول (عليه الصلاة والسلام) · وطبيعي ان المعنى القريب بمدلول هذه العبارة يوحي لمعظم الناس أن المقصود من بيت آل الرسول بيت الامام علي عليه السلام ، وكان هذا البيت له القدسية في قلوب المسلمين كما عرف عن رجاله بالصدق وحسن العبادة والنزاهة والاخلاص ، ونلاحظ أيضا على هذه البيعة أن المسؤولين يعدون الرأي العام المناصر بأنهم سينتهجون سياسة منبثقة من الكتاب الكريم والسنة النبوية الشريفة ، وأنهم في هذه البيعة يوجبون الناس جميعا بالطاعة المطلقة للامام الذي سيتولى أمر المسلمين ·

وأحرزت القوات العباسية الثائرة انتصارات رائعة وطاردت بقيادة أبي مسلم الخراساني جيوش الأمويين في ولاية خراسان فانهزم نصر بن سيار الى مدينة قومس ثم هرب الى مدينة ساوه حيث مات سنة ١٣١هـ (٢) ·

ومن أبرز القواد العرب الذين كانت لهم قيادة رئيسية قحطبة بن شبيب الطائي وولده الحسن وقد طارد هذا القائد

---

(١) الطبري / حـ٢ ص ١٩٨٧ ·
(٢) ابن الاثير / حـ٤ ص ٣١٧ ·

فلول الأمويين وسيطر على الري (مدينة طهران الحاليـة) وهمدان ثم توجه مع ولده الحسن فأخضع نهاوند (بالقرب من همدان وكرمنشاه) ودخل قحطبة وولده العراق (ويدخل عن طريق خانقين وحلوان وهو الممر التاريخي المعروف) . وحاول جيش أموي بقيادة ابن هبيرة أن يصد جيوش قحطبة ولكن قحطبة الطائي كان من المهارة والخبرة والذكاء ما مكنه من تحاشـي الاصطدام بذلك الجيش ، وبالرغم من محاولـة قحطبـة عدم التعرض لذلك الجيش (لأنه يريد أن يصل الى الكوفة وبعد ذلك يرجع لمقابلته) الا أنه اصطدم بذلك الجيش مضطـرا فدارت معركة شديدة انتصر فيها قحطبة الطائي على الجيش الأموي فانسحب ابن هبيرة الى مدينة واسط . ووصلت الجيوش العباسية الى مشارف الكوفة فمات فجأة قحطبة بن شبيب الطائي وكان كبيرا في السن فتولى قيادة الجيش ولده الحسن بن قحطبة فدخل هذا الجيش العباسي دخول المنتصر مدينـة الكوفـة في الحادي عشر من محرم سنة ١٣٢هـ / ٣٠ آب سنة ٧٥٠م (١) .

ولما انتشرت فلول الجيش في المدينة خرج أبو العباس الملقب بالسفاح (عبد الله بن محمد بن علي) مع كبير الدعاة أبي سلمة الخلال ونودي بأبي العباس خليفة للمسلمين وأخذ أهل الكوفة يبايعون الخليفة الأول للدولة الجديدة وبذلك قامت دولة بني العباس واتخذوا الكوفة أول عاصمة لهم وكان ابتداء دولتهم في ١٣ ربيع الأول سنة ١٣٢هـ (٢) .

---

(١) اليعقوبي / البلدان حـ ص ٨٤ .
(٢) المسعودي / مروج الذهب حـ٣ ص ١٨١ .

حركة الشيخ عز الدين القسام

دكتور فلاح خالد علي
مدرس التاريخ الحديث بجامعة بيروت

ولد الشيخ عز الدين عبد القادر القسام في بلدة جبله الواقعة في قضاء اللاذقية بسوريا سنة ١٨٨٢ ، وتعلم في الأزهر (١) ، وذكر أنه ممن درسوا على الامام محمد عبده (٢) • مارس مهنة التعليم والوعظ في بلده ، وشارك في مقاومة الاحتلال الفرنسي مع صالح العلي ، وعمر البيطار ، حتى اضطر الى ترك سوريا واللجوء الى فلسطين مع اثنين من رفاقه هما الشيخ محمد الحنفي والشيخ علي الحاج عبيد (٣) ، وعمل مدرسا في المدرسة الاسلامية في حيفا ، واماما في جامع الاستقلال •

من خلال نضاله ضد الاستعمار الفرنسي في سوريا ، أدرك الشيخ القسام أنه مهما اختلفت أشكال الاستعمار وأساليبه فهو وحدة لا تتجزأ ، ولكي يتحاشى الاخطاء التي وقعت فيها حركة النضال ضد الاستعمار الفرنسي ، رأى أنه لا بد من الاعداد النفسي للثورة ضد الاستعمار الانكليزي في فلسطين معتمدا

(١) خير الدين الزركلي : الاعلام القاهرة ـ ١٩٥٦ ، ج٧ صفحة ١٤٩
(٢) الشباب ، القاهرة ـ ١ ـ ١٧ فبراير ١٩٣٦ .
(٣) صبحي ياسين : الثورة العربية الكبرى (في فلسطين) ١٩٣٦ ـ ١٩٣٩ ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٢٠ .

النوعية وليس الكمية في اختيار رفاق النضال. يقول أبو ابراهيم الكبير (الشيخ خليل محمد عيسى) أحد رفاق الشيخ القسام :
« كان الشيخ القسام في حلقات تدريس المسائل الدينية يركز على ضرورة الجهاد ضد الاستعمار البريطاني والصهيونية والتصدي لفكرة اقامة وطن قومي يهودي على أرض فلسطين . ولقد استجوبته السلطات البريطانية عدة مرات ، لكن بسبب منزلته الكبيرة بين جميع فئات الشعب لم تتجرأ على اعتقاله . وبسبب وطنية الشيخ القسام وصدق دعوته للجهاد التف حوله جماعة من الرجال بدافع الوطنية والايمان » (١) .

استمرت مرحلة الاعداد النفسي للثورة حوالي ست سنوات ، ثم انتسب الى جمعية الشبان المسلمين في حيفا ، وحصل في الانتخابات التي جرت في الرابع عشر من تموز (يوليو) سنة ١٩٢٨ على غالبية الأصوات ، فعين رئيسا لها (٢) . ويبدو أن حادث البراق الذي وقع في شهر أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٢٨ دفعه ورفاقه أن ينتقل من مرحلة الدعوة الى مرحلة العمل . يقول أبو ابراهيم الكبير : « كان اليهود يبنون بناياتهم على شكل عسكري وكثيرا ما حدثت صدامات بين العرب واليهود . وفيما كان اليهود حاقدين ومحتاطين لأنفسهم ، كان العرب غير محتاطين . ولقد استغل اليهود هذه الميزات كلها ، وكثيرا ما كنا نرى العرب يسقطون قتلى وجرحى . وازاء ذلك طلبنا من الشيخ أن ينتقل من الكلام الى العمل ، وطلبنا أن نتسلح ونتدرب، وان ذلك تم سنة ١٩٢٨ » . ثم يضيف « اشترينا بندقية، وأحضرنا مدربا كان اسمه محمد أبو العيون . وكانت تبدأ

---

(١) من حديث لابي ابراهيم الكبير : الثورة الفلسطينية ، ع ١٩ ، ١٩٦٩/٩/١٥ ، ص ٢٤٠ .
(٢) صبحي ياسين : المصدر السابق ، ص ٢٠ .

الجلسة بأن يلقي الشيخ دروسه ، ثم تحولت دروس الشيخ من دروس دينية الى تحريض على الجهاد · وكان المدرب يقوم في آخر الجلسة بتدريب الموجودين على البندقية واحدا واحدا (١) » ·

تشكلت القيادة الأولى للحركة عام ١٩٢٨ من خمسة أشخاص هم : الشيخ عز الدين القسام ، العبد قاسم ، محمود زعروره ، محمد صالح ، أبو ابراهيم الكبير ، وكان جميع هؤلاء فيما عدا الشيخ عز الدين القسام ، فلاحين أو عمال (٢) · وفي عام ١٩٢٩ بذل الشيخ القسام قصارى جهده كي يعين مأذونا شرعيا في قضاء حيفا كي تتاح له الفرصة للتجول بين الفلاحين والاتصال بهم لانتقاء العناصر الوطنية للحركة متخذا وظيفة المأذون ستارا لعمله · كما رفض الحاج أمين الحسيني أكثر من مرة تعيينه واعظا عاما حتى تتاح له حرية الحركة والانتقال ، مبررا رفضه بأنه يعمل من أجل القضية سياسيا (٣) ·

واستمر الشيخ في جهاده السري ، يختار العناصر النشطة والفعالة القادرة على العمل · ويروى أنه « عندما كان يخطب في جامع الاستقلال في حيفا ، كان يراقب جموع المصلين ويدعو من يتوسم الخير فيه لزيارته في منزله ، وتتكرر الزيارات حتى يقنعه بالعمل من أجل انقاذ فلسطين مما يهددها من مخاطر (٤) » · وبعد قبول الشخص مبدأ العمل كان يضمه الى حلقة سرية لا تزيد على خمسة أشخاص ، لم يلبث ان ارتفع عدد أعضاء

(١) الثورة الفلسطينية ، ع ١٩ ، ١٩٦٩/٩/١٥ ، ص ٢٤ — ٢٥ .
(٢) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ، ١٩٦٩/٩/١٥ ، ص ٢٥ — ٢٦ .
(٣) صبحي ياسين : المصدر السابق ، ص ٢١ .
(٤) نفس المصدر : ص ٢١ .

الحلقة الى حوالي تسعة أشخاص في أوائل الثلاثينات (١) • ولم ينتقل الشيخ من منزله في الحي القديم في حيفا ، ليكون الى جانب الفلاحين الذين نزحوا من قراهم واضطروا الى العيش في ذلك المستوى المنخفض من الحياة بسبب الهجرة اليهودية ، وعمل الشيخ على تحسين أحوالهم المعيشية ، وبدأ يعمل على محو الأمية في صفوفهم باعطائهم الدروس الليلية • وسرعان ما تعلق به فلاحو المنطقة الشمالية وعمالها وأصبحوا يكنون له بالغ الاحترام والمودة بفضل زياراته المتكررة لهم وما يتصف به من اصالة في الخلق والتقوى (٢) •

وتشير بعض المصادر العربية (٣) أنه بعد أحداث شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٢٩ التي شارك فيها رفاق القسام ، حدث انقسام داخل حلقات القسام ، اذ انشق بعض من اخوان القسام وعلى رأسهم أبو ابراهيم الكبير ، والسبب في ذلك اختلاف في وجهات النظر بينهم وبين الشيخ القسام ، ففيما رأى هؤلاء بأن الوقت قد حان لاعلان الثورة ، رأى الشيخ بأن الاعداد للثورة لم يكتمل بعد ، وبينما كان المنشقون يدعون لجباية الأموال اللازمة للثورة من الشعب بأية وسيلة ممكنة ، كان القسام يصر على الانتظار ويدعو الى عدم استعمال العنف خوفا من الانقسامات الداخلية منذ البداية ، وان الشعب سوف يدفع تبرعات كافية للثورة بعد اعلانها مباشرة ، وبعد أن يتحقق من أهدافها ويشاهد الانتصارات التي ستحققها •

---

(١) من مقال ابراهيم الشيخ خليل (احد رفاق القسام وتلامذته) : شئون فلسطينية ، ٧٤ مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦٨ •
(٢) عبد الوهاب الكيالي (الدكتور) • تاريخ فلسطين الحديث ، بيروت ١٩٧٠ ، ص ٢٩٣ •
(٣) نفس المصدر : ص ٢٩٢ •

وفي حديث لأبي ابراهيم الكبير نشر في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٦٩ لم يتضمن أية اشارة الى هذا الانقسام مطلقا ، بل أكد أنه ظل يعمل مع الشيخ القسام حتى حادثة نهلال سنة ١٩٣٣ . ويقول ابراهيم الشيخ خليل ، أحد رفاق وتلامذة القسام : « لم يحدث انشقاق على الاطلاق بين القائد الشهيد واخوانه سنة ١٩٢٩ ، بل كان الوفاق على أتمه . والانشقاق بمفهومه لم يحدث لا في حياة القائد الشهيد ولا بعد استشهاده أيضا ، والسبب بسيط جدا ، فان القائد الشهيد كان يدعو الى الجهاد على أساس ديني ، والجهاد في سبيل الله ، واستخلاص الوطن ودفع الظلم عن المواطنين . ومفهوم الجهاد على أسس دينية لا يوجد به اشكالات ولا تعقيدات أيديولوجية أو نفسية ، ولا أعماق ولا أبعاد ، وكل ما يتعلق بالجهاد محكوم بآيات قرآنية معروفة . كان هناك شعار واحد تنطوي تحته كل مفاهيم الثورة : (هذا جهاد ، نصر أو استشهاد) ... والذي حدث بالفعل كان خلافا بسيطا على توقيت اعلان الثورة في أوائل عام ١٩٣٥ » (١)

أما بالنسبة لجمع المال فقد كان يتم عن طريق الاشتراك الذاتي . يقول أبو ابراهيم الكبير : « ولقد كنا نصرف من عملنا الشخصي على عملنا السياسي » ، ويضيف « عندما قررنا أن نشتري السلاح ، بعد أقنعنا الشيخ ، جمعنا من بعضنا النقود ، ورصدنا ما جمعناه لشراء السلاح (٢) » . ويؤكد ابراهيم الشيخ خليل ان جمع المال بأية وسيلة لم يحدث أبدا ، اذ لم يكن الموضوع قد بحث بين القائد الشهيد واخوانه لا من بعيد ولا من قريب . والمال للثورة كان له مصدران : مصدر

---

(١) شئون فلسطينية ، عدد ٧ مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦٧ .
(٢) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ، ص ٢٦ — ٢٧ .

الاشتراك الشهري وكان جيدا ، والمصدر الثاني كان التبرع الطوعي . والتبرع كان يجري على أسس العقيدة الاسلامية ، ويقع تحت حكم عدة آيات قرآنية كريمة . ويشير الى أن العديد من رفاق الشيخ كانوا يتبرعون بكل ما يملكون بعد سد حاجتهم اليومية وان بعض اخوان القائد الشهيد كانوا على صلات حسنة جدا مع بعض الأثرياء من المواطنين ، وكانوا يحصلون منهم على بعض المال طواعية وعن طيب خاطر (١) .

وتشير بعض المصادر العربية أيضا الى آن الشيخ انتسب الى حزب الاستقلال عندما أسس في شهر آب (أغسطس) سنة ١٩٣٢ (٢) . والواقع ان الشيخ لم يكن بعيدا عن تيار الحركة الوطنية في البلاد ، وكانت له صداقات خاصة مع بعض أركان الاستقلال المقيمين في حيفا ومنهم رشيد الحاج ابراهيم . أما مسألة انتسابه الى الحزب فينفيها ابراهيم الشيخ خليل قائلا : « أما بالنسبة لتبعية القسام وارتباطه بحزب معين ، فان الذي أعرفه معرفة حقيقية ، ويعرفه العديد من اخواني الأحياء أمثال أبو ابراهيم الكبير ، والشيخ سليمان أبو حمام ، ومحمد عبد القادر أبو الهيجة وحسن شبلاق ، والحاج حسين حماده ، وأحمد التوسبه ، والشيخ محمد الحنفي ومحمد علي دلول وغيرهم كثيرون ، بأن القائد الشهيد لم يكن له أي ارتباط حزبي مع أي حزب من الأحزاب ، وأن ارتباطه الوحيد كان مع العقيدة الاسلامية وحدها » (٣) .

شارك القساميون في أحداث تشرين الأول (أكتوبر) سنة

---

(١) شئون فلسطينية ، عدد ٧ ، مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦٧ — ٢٦٨ .
صيدا ١٩٥٩ ، ص ١٢٠ — ١٢١ . وعبد الوهاب الكيالي (الدكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٩٢ .

(٢) محمد عزة دروزه : حول الحركة العربية الحديثة ، جزء ٣ ، صيدا ، ١٩٥٩ ، ص ١٢٠ — ١٢١ .

(٣) شئون فلسطينية ، عدد ٧ ، مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦٩ .

١٩٣٣ ، وكان من ضمن عملياتهم أن أحدهم وهو فلاح من بلدة صفورية يدعى مصطفى علي الأحمد وضع قنبلة في منزل حرس مستوطنة نهلال الواقعة بين حيفا والناصرة ، فقتل اثنان وأصيب آخران بجراح . وسير القساميون قطيعا من الغنم على الطريق المؤدية الى المستوطنة ، فضاع الأثر . وبعد مضي ستة أشهر على الحادث ، وصلت قوة من البوليس الى بلدة صفورية ، وبعد تفتيش منازل البلدة ، عثرت في منزل مصطفى علي الأحمد على قنبلة مشابهة للقنبلة التي وضعت في المستوطنة ، وكانت السلطات البريطانية قد احتفظت بشظاياها ، فألقت القبض على مصطفى علي الأحمد ، وعلى أحمد الغلاييني الذي صنعها .
ويكمل أبو ابراهيم الكبير رواية الحادث فيقول : « لقد اتهمونا نحن بالقنبلة ، رغم أننا لم نكن قد قمنا بها (أي بوضعها) . ألقي القبض على مصطفى علي الأحمد وسجن في الناصرة . كان هناك محام يدعى شريف عبيد ، فاتفق مع حليم بسطه — مساعد مدير الأمن العام الانكليزي — على كشف القضية . ولقد سلطوا المحامي على مصطفى علي الأحمد ، وطلبوا منه أن يعترف ، كما طلبوا منه أن يقول بأنني أنا وأحمد الغلاييني قد اشتركنا معه في هذه العملية . ولما بحثوا عن نوع المسامير التي صنعت منها القنبلة وجدوها عند تاجر يهودي ، فسألوه عمن اشترى من هذه المسامير التي صنعت منها القنبلة فتذكر أن أخا لأحمد الغلاييني هو الذي اشتراها . ولما جاءوا الى دكان الغلاييني وجدوني عنده بالصدفة ، فألقي القبض علينا . ذهب من يبحث لنا عن محام ، فقابل أحد أعضاء الحركة الوطنية الذين يحترفون المحاماة (لم يذكر أبو ابراهيم اسمه) . فقال لنا هذا الرجل (أي المحامي) ان القضية ستكلفكم كثيرا . فذهبت الى المحامي حنا عصفور ، فكلفناه ، وعندما فعلنا ذلك

طلب حليم بسطه منه (أي من حنا عصفور) أن ينتزع منا اعترافا • فجاء المحامي وقال لنا : أنا محاميكم ، وأريد أن تخبروني عما حدث معكم • قلنا له : نحن أبرياء ، دافع عنا بكل قوتك • وحاولت السلطات البريطانية أن تأخذ أمر توقيف لنا من حكام الصلح العرب ، فرفضوا اعطاء أمر بتوقيفنا ••• فأخذتنا السلطات البريطانية عند حاكم صلح (آخر) فأعطى أمر بتوقيفنا لمدة ١٥ يوما » (١) • وبقي الثلاثة في السجن رهن التحقيق مدة تسعة أشهر ، ثم حكم على مصطفى علي الأحمد بالاعدام ، وعلى أحمد الغلاييني بالسجن عشر سنوات ، أما أبو ابراهيم الكبير فقد بريء •

استطاع الشيخ عز الدين القسام ورفاقه حتى أوائل سنة ١٩٣٥ ، تنظيم عملهم الثوري وقسموه فروع :

١ ـ فرع الدعوة للجهاد يتمثل بخطباء المساجد من العلماء •

٢ ـ فرع التموين مهمته شراء الأسلحة والعتاد ، وكان أبرز من عملوا في هذا المجال الشيخ حسن الباير والشيخ نمر السعدي •

٣ ـ فرع الاعداد والتدريب العسكري يشرف عليه ضباط ومدربون خدموا في الجيش التركي •

٤ ـ فرع استقصاء المعلومات عن اليهود والانكليز للاطلاع على خططهم السرية ، وغالبية العاملين في هذا الفرع من العمال الذين يعملون في الدوائر الحكومية خاصة دائرة البوليس ، وقسم منهم يعمل مع اليهود وأبرز هؤلاء الشيخ ناجي أبو زيد •

٥ ـ فرع متخصص في العلاقات الخارجية من أجل الاتصالات

---

(١) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ـ ص ٢٦ •

السياسية • ويقول صبحي ياسين : « وقد عرفت من أفراده الشيخ محمود سالم المخزومي الذي اتصل بقنصل ايطاليا في القدس وقنصل تركيا » (١) •

أرسل الشيخ عز الدين القسام الشيخ محمود سالم المخزومي أحد تلامذته ليعلم الحاج أمين الحسيني بقراره القيام بثورة في فلسطين ، وتم الاتصال بين مبعوث القسام وبين الحاج أمين الحسيني عبر أحد أعوانه المدعو الشيخ موسى العزراوي ، ونقل اليه رغبة القسام والتي تتلخص بأن يبدأ الحاج أمين في الاعداد للثورة في القسم الجنوبي من فلسطين ، بينما الشيخ القسام يعد العدة في القسم الشمالي من فلسطين • وجاء رد الحاج أمين الحسيني بأن الوقت لم يحن بعد لمثل هذا العمل ، وأن الجهود السياسية التي تبذل كفيلة لحصول عرب فلسطين على حقوقهم (٢) • والغريب في الأمر ان الحاج أمين الحسيني لم يشر في كتابه « حقائق عن قضية فلسطين » الذي طبع عدة مرات ، كما أن كل ما صدر عن الهيئة العربية العليا من كراسات أو مذكرات أو تقارير لم يشر للشيخ القسام ولا لحركته •

وازاء الأحداث التي سادت فلسطين سنة ١٩٣٥ ، قررت القيادة للحركة القسامية الخروج من حيفا الى الريف ، للعمل في أوساط الفلاحين والاعداد للثورة • لقد دخل البلاد في نفس العام ٦١٫٨٥٤ مهاجرا يهوديا (٣) • وأكد المندوب السامي في

---

(١) صبحي ياسين : المصدر السابق : ص ٢٣ •
(٢) نفس المصدر ، ص ٢١ — ٢٢ •
(٣) Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain to the Concil of the League of Nations on the Administration of Palestine for the year 1935. Colonial No. 112 London 1936, p. 13.

تقريره الى وزارة المستعمرات في السابع من كانون الأول (ديسمبر) سنة ١٩٣٥ ، ان هذا الرقم يتجاوز الطاقة الاستيعابية للبلاد (١) • واشترى اليهود في ذلك العام ٧٢ر٩٠٥ دونما من الأرض العربية (٢) • وجاء اكتشاف حادثة تهريب الأسلحة في يافا في السادس عشر من تشرين الاول (اكتوبر) سنة ١٩٣٥ مؤيدا لأسوأ المخاوف التي يعانيها عرب فلسطين ، بالاضافة الى الاستفزازات الصهيونية كالتدريب العسكري السافر ومهاجمة الفاشيين اليهود من أتباع جابوتنسكي للقرى العربية (٣) • ولما لم يكن هنالك أمل بأن تستجيب الحكومة لمطالب عرب فلسطين بشأن الهجرة وبيع الأراضي والحكومة الذاتية البرلمانية ، أصبح من الواضح أن البديل الوحيد الذي بقي للحيلولة دون اقامة وطن قومي يهودي في فلسطين هو اللجوء الى الثورة المسلحة • خصوصا بعد أن ظهر عجز وجبن القيادة التقليدية والأحزاب الفلسطينية عن العمل الجاد • وبينما كان السياسيون الفلسطينيون يكشفون عن مواقفهم المتساهلة الهزيلة نحو الحكومة ، لم يكن أمام القسام ورفاقه الا الخروج •

حدث خلاف بين الشيخ القسام وبين أبي ابراهيم الكبير حول الخروج بالسلاح أو بدونه ، ولم يتعد الخلاف هذا الأمر • وقد شرح أبو ابراهيم الكبير في حديثه المنشور في أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٦٩ هذه المسألة فقال : « كان الشيخ قد أعد جماعة غيرنا (بسبب سجن أبي ابراهيم الكبير) بعد حادثة نهلال ، واتفق معهم على الخروج الى الثورة ••• وكنت ذات يوم في البيت عندما جاءني قبل الغياب حسن الباير ، من الذين هيأهم

---

(١) عبد الوهاب الكيالي (الدكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

(٢) Report for the year 1935, p. 32.

(٣) عبد الوهاب الكيالي (الدكتور) : المصدر السابق ، ص ٢٩٤ .

الشيخ بعد سجننا . قال حسن الباير : أرسلني لك الشيخ في خبر ، قلت : ما هو ؟ قال : الشيخ يريد رأيك في خروجنا . قلت : عندما يقرر الشيخ شيئا علينا التنفيذ . قال : ولكنه يريد رأيك ، فلم أعطه الرأي » . وعلل أبو ابراهيم ذلك بقوله « لأننا كنا تلاميذه » . وأضاف « ولقد عاد الباير وأخبر الشيخ بما حصل . فقال الشيخ : نصلي غدا في جامع الحاج عبد الله ، ونرى أبا ابراهيم ، وفي الفجر التقينا في الجامع وصلينا الفجر ، واجتمعنا في غرفة هناك . قال الشيخ : نريد الخروج فما رأيك ؟ قلت : ليس لي رأي . ولكن الشيخ أصر علي فقلت له : يا شيخ ، ماذا لدينا من السلاح ، نحن خارجون لاعلان الثورة ، وهذا يحتاج الى السلاح والمال ، والثورة تحتاج الى ذخائر كل يوم والى مصروفات كل يوم ، فماذا لدينا من كل ذلك ؟ قال : ليس عندنا من الذخائر والسلاح الا ما في أيدينا . قلت : اننا بما في أيدينا لا نستطيع الوقوف في وجه الانكليز ، فعلينا الاستمرار في عملنا كما هو الآن ، أي القيام بالغارات ليلا والعمل نهارا . قال : نحن لا نريد أن نعلن الثورة ، انما نريد أن نتسلح ونخرج الى القرى كي نحث أهلها على الجهاد . قلت : ولكن يا شيخ فالجواسيس لن يتركونا . قال : سنكون حذرين . وأردف : سنخرج نحن والجماعة ، أما أنتم فعليكم أن تبقوا حيث أنتم لكي تساعدونا (١) » .

ويؤكد ابراهيم الشيخ خليل ، في الحديث الذي نشر في آذار (مارس) سنة ١٩٧٢ ، نفس ما أورده أبو ابراهيم الكبير ، فيقول : « في أوائل عام ١٩٣٥ ، رأى القائد بأن المستعمر يراقب تحركات القساميين مراقبة دقيقة . وكان القائد يتحسس بأن المستعمر سيعتقل النخبة الصالحة من اخوانه ، ويفسد جميع

---

(١) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ، ص ٢٧ — ٢٨ .

مخططات الثورة قبل أن تظهر للمواطنين . وكان رأيه الخروج الى الجبال والتجول بالقرى وحث المواطنين على شراء السلاح والاستعداد للثورة ، وكان رأي الأخ أبو ابراهيم وبعض الاخوان التريث في الخروج الى الجبال مسلحين ، والتجول بالقرى بدون سلاح ، وتشجيع المواطنين على ما يلزم للثورة . ولكن هذا الخلاف كان بسيطا جدا بحيث أنه عندما صمم القائد الخروج الى الجبال ، كان يوجد في صندوق الجماعة مبلغ من المال قدره مائة جنيه ، فأخذه أبو ابراهيم من الصندوق وأرسله الى القائد مع المرحوم الحاج علي الحلبي (١) .

عملت سلطات الانتداب البريطاني في فلسطين على مراقبة تحركات الشيخ عز الدين القسام ورفاقه ، فخصصت لذلك عددا كبيرا من رجال البوليس السري كان أبرزهم شخص يدعى أحمد نايف (٢) . وتشير بعض المراجع العربية الى أن خروج الشيخ القسام كان ليلة ١٢ تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٥ من حيفا يرافقه نحو ٢٥ من رجاله (٣) . والواقع ان خروجه كان قبل ذلك ، اذ يبدو أنه ترك حيفا ليلة ٢٦/٢٧ تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٣٥ ، بعد الاضراب الشامل الذي شمل أنحاء فلسطين في ذلك الوقت ، احتجاجا على عملية تهريب الأسلحة ، واتجه الى قرية نورس الواقعة شمال المزار في قضاء جنين . ويقول أبو ابراهيم الكبير ان الشيخ القسام ورفاقه تمركزوا في مغارة قرب نورس ومكثوا فيها ما يزيد على عشرين يوما (٤) .

---

(١) شئون فلسطينية ، عدد ٧ ، مارس ١٩٧٢ ، ص ٢٦٧ .

(٢) قتلة القساميون في حيفا عام ١٩٣٧ .

(٣) صبحي ياسين : المصدر السابق ، ص ٢٧ وعبد الوهاب الكيالي: المصدر السابق ، ص ٢٩٥ .

(٤) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ، ص ٢٨ .

أما عدد الأشخاص الذين غادروا حيفا معه فقد يكون صحيحا ، لكن الذين ذهبوا بصحبته الى قرية نورس لم يتعد عشرة أشخاص، في حين توزع الباقون في القرى المختلفة ، حرصا من الشيخ القسام على عدم اكتشاف أمره وجماعته خصوصا وأنهم كانوا مراقبين من قبل جواسيس الحكومة الانتدابية .

حصلت الحادثة الأولى التي كشفت عن مركز قيادة حركة القسام في الرابع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٥ . ويصف أبو ابراهيم الكبير الحادثة فيقول : « في احدى الليالي هاجم مجهولون احدى المستعمرات ، وهي مستعمرة عين جارود الواقعة شمال شرقي نورس حيث كان القسام ورفاقه ، ومروا أثناء رجوعهم بالقرب من مركز تواجد الشيخ القسام . وفي الصباح مرت دورية مؤلفة من ثلاثة أشخاص ، انكليزي ويهودي وعربي ، ومعهم كلب أثر ، وكان محمود سالم ويوسف الزيباوي يقفان حرسا ، فلما رأى محمود سالم الدورية سأل الزيباوي عما يفعل ، فقال الزيباوي اذا اقتربوا منك أطلق النار . فما كان من محمود سالم الا أن أطلق النار ، فقتل الشاويش اليهودي (١) . وعندما سمع الشيخ اطلاق النار ، استفسر عن السبب فأخبروه بما جرى ، فطلب من رفاقه الرحيل فورا حتى لا يصطدموا مع القوات البريطانية ، ومنذ تلك اللحظة بدأت جماعة القسام مسيرتها ، ولكن الجواسيس انتشروا في المكان ، فما ان وصل الشيخ القسام ورفاقه الى أحراش يعبد التي تبعد عن جنين عشرة أميال ، حتى طوقوا من قبل قوات بريطانية أرسلت الى المنطقة (٢) .

---

(١) وفر الاثنان الى مركز البوليس في قرية جمله بين نورس وجنين لاعطاء خبر عن الحادث .

(٢) الثورة الفلسطينية ، عدد ١٩ ، ص ٢٨ .

وبعد هذه الحادثة ، انتقل الشيخ القسام وجماعته من نورس الى خربة الشيخ زيد الواقعة الى الشمال من يعبد ، وقطعوا مسافة تقدر بأكثر من ٥٥ كيلومترا في خمسة أيام • ومما لا شك فيه أن هذه التحركات لم تكن خافية على سلطات الانتداب البريطاني ، اذ كانت خربة الشيخ زيد التي وصلها الشيخ القسام ورفاقه مطوقة بالفعل • وأعلنت حالة الطوارىء منذ يوم التاسع عشر من تشرين الثاني (نوفمبر) في مدن حيفا وطولكرم وجنين ونابلس ، واتجهت قوات بريطانية قوامها أكثر من ٤٠٠ جندي وبوليس باتجاه خربة الشيخ زيد • وفي صباح يوم الأربعاء العشرين من تشرين الثاني (نوفمبر) سنة ١٩٣٥ (١)، جرت معركة غير متكافئة امتدت من الساعة الثامنة حتى العاشرة صباحا ترتب عنها استشهاد الشيخ عز الدين القسام واثنين من رفاقه ،فيما تفرق باقي رفاقه في الجبال والأحراش المجاورة (٢) •

لقد كان لاستشهاد الشيخ عز الدين القسام على هذه الصورة وقع أليم وحزين في نفوس عرب فلسطين ، وأثر عميق في سائر أنحاء فلسطين وسرعان ما أصبح رمزا للتضحية والبذل والعطاء، حتى ان الشعب أطلق عليه لقب أبو الوطنية • وحملت الجماهير نعشه على الأكتاف الى قرية الباجور الواقعة على بعد عشرة كيلومترات من حيفا حيث دفن ، وشارك في تشييع جثمانه الى مثواه الأخير أكثر من عشرين ألفا (٣) ، كانوا يهتفون بحياة فلسطين وبسقوط الاستعمار البريطاني والوطن القومي اليهودي • ثم رجم المشيعون سيارات البوليس وأفراد البوليس بالحجارة ،

(١) Parliamentary Debates, House of Commons, Fourth and Fifth Series, Vol. 307, Col. 318.

(٢) عيسى السفري : فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية ، يافا ١٩٣٧ ، ص ٢٣٨ .

(٣) جريدة المقطم ، ١٩٣٥/١١/٢٢ .

كما وقع صدام أثناء التشييع بين الشباب العرب و بين الانكليز، جرح على أثره ثلاثة من البوليس الانكليز وشخص عربي (١) • أما بالنسبة لموقف الزعماء السياسيين ، فلم يشاركوا في تشييع الجنازة ، وكانت برقيات التعزية التي أرسلوها فاترة ، اذ لم يخطر ببالهم أن حركة القائد الشيخ عز الدين القسام كانت بمثابة دليل على عقم أساليبهم ، كما أن تضحيته وتجرده فضحت نفعيتهم وأنانيتهم (٢) •

يرتبط بحركة الشيخ القسام أمران على جانب من الأهمية ، الأمر الاول ما أشارت اليه بعض المصادر العربية من أن خطة الشهيد القسام كانت تتضمن احتلال حيفا (٣) ، وهو أمر يدعو الى الدهشة • فلقد عاش الشيخ القسام في حيفا حوالي أربع عشرة سنة ، شهد فيها مدى ما وصلته من اتساع بحيث أصبحت الميناء الأول في فلسطين ، كما شهد تحولها الى قاعدة حربية بريطانية ترسو فيها السفن الحربية باستمرار بعد أيلول (سبتمبر) سنة ١٩٣٥ • فكيف يعقل أن يقدم القسام على احتلال المدينة ، وهو على علم بأن ما جنده لحركته لا يزيد عن ٢٠٠ رجل •

أما الأمر الثاني فهو ما أجراه الشيخ القسام من اتصالات بالايطاليين لضمان تأييدهم (٤) • والواقع ان هذا الأمر يبدو بعيد الاحتمال للأسباب التالية :

١ ـ ان اتصال الايطاليين كان قد تم بالفعل مع الحاج أمين

---

(١) جريدة المقطم ، ١٩٣٥/١١/٢٣ .
(٢) عبد الوهاب الكيالي (الدكتور) : المصدر السابق ص ٢٩٥ .
(٣) سامي الجندي : عرب ويهود ـ العداء الكبير ، بيروت ١٩٦٣ ، ص. ٦٨ .
(٤) ناجي علوش : المقاومة العربية في فلسطين ، ١٩١٧ ـ ١٩٤٨ سلسلة كتب فلسطينية رقم ٦ مركز الابحاث ، بيروت ١٩٦٧ ، ص ١٠٢ .

الحسيني ، وهو الرجل القادر على تحريك عرب فلسطين في ذلك الوقت ٠

٢ ـ لم يكن الشيخ عز الدين القسام وهو رجل دين قد نسي ما قام به الايطاليون من أعمال ضد الزعيم الديني عمر المختار ، وكانت المدة التي مضت على استشهاده لا تتجاوز أربع سنوات ٠

٣ ـ حاجة حركة الشيخ عز الدين القسام للمال حيث لم يكن في صندوقها عندما خرجت من حيفا في شهر تشرين الأول (اكتوبر) سنة ١٩٣٥ سوى مائة جنيه ، بينما كان احسان الجابري قد سلم الحاج أمين الحسين سبعة آلاف جنيه من ايطاليا ٠

٤ ـ ان التقرير الرسمي الصادر عن حكومة الانتداب البريطاني لعام ١٩٣٥ لا يتضمن اطلاقا أية اشارة الى أي نوع من الأسلحة الايطالية التي صادرتها واستولت عليها سلطات الانتداب ذلك العام (١) ٠

وهكذا ألقت حركة الشيخ القسام ظلا كبيرا على المسرح السياسي الفلسطيني وأصبحت كل محاولة لاقامة أي تقارب بين عرب فلسطين وسلطات الانتداب مصيرها الفشل ٠ ولم يمض شهر على اصطدام جيش السلطة المنتدبة مع القسام ورفاقه حتى أصبحت دوائر التحقيق الجنائية تعرب عن قلقها من تطور الأحداث ، وعم الحقد والكراهية على حكومة الانتداب البريطاني سائر أنحاء فلسطين ٠ وظهرت كتل سياسية من الشباب بقيادات ثورية جديدة أخذت تحل محل القيادات السياسية القديمة ، التي

(١) Report for the year 1935, pp. 125 - 126.

ساءت سمعتها ، ومشت هذه القيادة الشابة بنفس الخط الذي سار عليه الشهيد القائد ، واتخذوا من أسلوبه في الاعتماد على أبناء الريف من العمال والفلاحين . وتشكلت لجان الشباب الثوري في كل منطقة من مناطق فلسطين لتخطو على خطى الشهيد القائد عز الدين القسام الذي لم يلاق أي تجاوب من الزعامة المهادنة ضيقة الأفق والمستجيبة للضغوط السياسية الاستعمارية والصهيونية . وبذلك أصبح الشكل الذي ستتطور اليه الأمور واضحا وغدت المجابهة بين حكومة الانتداب والصهاينة من جهة ، وعرب فلسطين من جهة ثانية مسألة وقت فقط .



مصـــادر البحـــث

المصادر العربية :

١ ــ خير الديـن الزركلي : الاعـلام ، القاهرة ، ١٩٥٦ ، جزء ٧ ٠

٢ ــ سامي الجندي : عرب ويهود ، العـداء الكبير ، بـيروت ١٩٦٣ ٠

٣ ــ صبحي ياسين : الثورة العربية الكبرى (في فلسطـين) ١٩٣٦ ــ ١٩٣٩ ، القاهرة ١٩٥٩ ٠

٤ ــ عبد الوهاب الكيالي (الدكتور) : تاريخ فلسطين الحديث، بيروت ١٩٧٠ ٠

٥ ــ عيسى السفري : فلسطين العربية بين الانتداب والصهيونية يافا ١٩٣٧ ٠

٦ ــ محمد عزة دروزه : حول الحركة العربية الحديثة ، جزء ٣ ، صيدا ١٩٥٩ ٠

٧ ــ ناجي علوش : المقاومـة العربيـة في فلسطين ١٩١٧ ــ ١٩٤٨ ، سلسلة كتب فلسطينية رقم ٦ ، مركز الأبحاث ، بيروت ١٩٦٧ ٠

الدوريات :

١ ــ الثورة الفلسطينية : عدد ١٩ ، ١٥/٩/١٩٦٩ ٠

٢ ــ شئون فلسطينية : عدد ٧ ، مارس ١٩٧٢ ٠

٣ ــ جريدة المقطم : ٢٢/١١/١٩٣٥ ــ ٢٣ــ١١ــ١٩٣٥ ٠

المصادر الأجنبية :

(١)
Parliamentary Debates, House of Commons, Fourth and Fifth Series, Vol. 307.

(٢)
Report by His Majesty's Government in the United Kingdom of Great Britain to the Council of the League of Nations on the Administration of Palestine for the year 1935. Colonial No. 112 London 1936.



اثر الماوردي في الفن السلجوقي

بقلم
د. سعاد ماهر / مصر

لما أفضت الخلافة الى الخليفة المعتصم العباسي ٢١٨هـ أدرك أن جند الفرس لا يوثق بهم ولا يعتمد عليهم لكثرة شغبهم وقيامهم على الخلفاء فاستصوب كسرة حدة الفرس بالترك .

ولذلك استكثر من غلمان الترك حتى استطاع الاستغناء بهم عن العرب ، فبذل الأموال في شرائهم ، كما بلغ من عنايته بهم أن ألبسهم الديباج ومناطق الذهب وقيل أن عدتهم بلغت ثمانية آلاف مملوك ، والأشهر عند ابن تغري بردى ، أنهم بلغوا ثمانية عشر ألفا (١) . ولأجلهم شيد المعتصم مدينة سامراء على الطرف الشرقي لنهر دجلة بين بغداد وتكريت ، وبنى بها دارا وأمر عسكره بمثل ذلك حتى صارت أعظم بلاد الله أهلا (٢) سنة ٢٢١هـ .

ولئن جرت من صفات الغلظة والقسوة أشدها وأبشعها على هؤلاء الأتراك بعامة ، الا أنهم لم ينشروا الزندقة بين العرب

---

(١) النجوم الزاهرة ج٢ ص ٢٣٣ .
(٢) البيتي العلوي السقاف : مواسم الاوب ص ١١٥ ، ابن الاثير : تاريخ الكامل ج٧ ص ٥٠ — ٥١ .

المسلمين كالفرس ، فلم يذيعوا عقيدتهم الشامانية أو البوذية اللتين تختلفان عن عقيدة الفرس الزرادشية والمانوية والمزدكية (١) ، أملا منهم في بعث مظهر من مظاهر قوميتهم ومدنيتهم كما فعل الفرس ، وما ذلك الا لأن الترك كانوا أضعف شأنا بالقياس الى الفرس ٠

فما كانت لهم دولة واحدة كدولة الساسانيين التي تعتبر من أعظم الدول في الشرق القديم كما لم تكن لهم حضارة خاصة بالمعنى الصحيح ٠ بل انهم أخذوا عن الشعوب التي جاورتهم وخالطتهم فتأثروا بالصينيين والايرانيين ، وكان شأنهم كذلك في استعارة الأديان والعقائد ٠

ومما تجدر الاشارة اليه ، أن شعور الترك بالقومية كان شعورا ضعيفا كما أنهم لم يكونوا قبل الاسلام يحبون الحياة الوحشية ، بل كانوا شعوبا على شيء من الحضارة ، لها دولها وأديانها وآدابها ٠ الا أن معالم ذلك كله قد ضاعت في الاسلام ، اللهم الا النزر اليسير من الشعر الشعبي وأساطير النسب ، بل ان مدلول كلمة تركي يتضمن معنى اسلاميا ، فهو مسمى لشعب واحد من شعوب السهول الآسيوية ، أطلق على الأتراك جميعا في ظل الاسلام (١) ٠ وهكذا نستطيع القول بأن طائفة الأتراك التي نشأت وتربت في اطار المجتمع الاسلامي حتى القرن الرابع الهجري ، لم يكن لها تأثير يذكر في الحضارة الاسلامية أو المجتمع الاسلامي ٠

---

(١) حسين مجيب المصري : صلات بين العرب والفرس والترك ص ٢٩٥ ٠

(٢)
Bernard Lewis: The emergence of Modern Turkey P. 8 (London, 1968).

وفي أواخر القرن الرابع الهجري ، العاشر الميلادي ، آخذ التاريخ يردد اسم السلاجقة ، وهم في الأصل قبائل تركية عرفوا باسم « الغز » (١) ، أخذت تهاجر من أقصى التركستان تحت ضغط ظروف قاهرة ، فيممت وجهها شطر الغرب واتخذوا الهضاب المحيطة بنهري سيحون وجيحون ، وكانت منازل طائفة الأتراك المسلمين تسمى « القرلق » (٢) .

وقد أطلق على هذه القبائل التركية اسم « السلاجقة » نسبة الى رئيسها سلجوق بن دقاق (٣) الذي تولى زعامتها وجمع شملها ، وقادها الى تلك المنازل (٣٧٥هـ / ٩٨٥م) (٤) . ولما كانت منازل السلاجقة ، في ذلك الوقت ، تجاور ممتلكات السامانيين والخانيين والغزنويين (٥) ، وهم دول سنية المذهب ، فقد اعتنق السلاجقة الاسلام وتعصبوا للمذهب السني (٦) . وأخذ نفوذ السلاجقة ينمو نموا مطردا حتى أصبحوا قوة في خراسان (٧) ، واستطاعت القضاء على الدولة الغزنوية وتكوين

---

(١) كانت تسمى « آلاوغوز » وخففت فصارت « الغز » (عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق ص ١٦) .

(٢) ابن الاثير : ص ٦٢ حـ٧ .

(٣) دقاق او « تقاق » كلمة تركية معناها القوس الجديد (ابن الاثير في حوادث ٤٣٢هـ) .

(٤) حمد الله مستوفي قزويني : تاريخ كزيده ص ٣٣٤ .

(٥) عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق .

(٦) الراوندي : راحة الصدور ص ٨٦ (ترجمة آبراهيم امين الشواربي وعبد المنعم حسنين وفؤاد الصياد سنة ١٩٦٠م) .

(٧) بيهقي : تاريخ بيهقي ص ٦٥٩ .

دولة لهم تحت قيادة « طغرل بك » واتخذ نيسابور قاعدة له (١) (٤٢٩هـ / ١٠٣٧م) . ولم يمض وقت طويل حتى وصل طغرل بك الى بغداد واعترف به الخليفة القائم بأمر الله ، وأمر أن يذكر اسم طغرل بك في خطبة الجمعة (٤٤٧هـ / ١٠٥٥م) ، بعد أن أسقط اسم الملك الرحيم من الخطبة (٢) ، وبذلك أسدل الستار على دولة بني بويه المسيطرة على بغداد وحلت محلها دولة السلاجقة (٣) .

وهكذا نرى أن طغرك بك هو المؤسس الحقيقي لدولة السلاجقة في ايران والعراق واستطاع خلفاؤه أن يقيموا على هذا الأساس بناء شامخا ومجدا عظيما ، أخذ يمتد حتى وصل غربا الى حدود الروم والبحر المتوسط وشرقا الى الهند والصين. وكان مؤسس دولةالسلاجقة ، طغرل بك ، مسلما يحب أهل السنة ويحترم أئمة الدين (٤) احتراما شديدا ويميل الى المتصوفة ويجل شيوخهم فانتشر التصوف في عصرهم ، وظفرت الصوفية باحترام الناس والحكام فارتفع شأن رجالها وعظم تأثيرها في حياة المجتمع الاسلامي في عصرهم . ومن هنا كان تأثرهم بشيخنا الماوردي ، وتأثيره الواضح القوي على كل مظاهر الحضارة في العصر السلجوقي .

وأود قبل أن أتناول أثر الماوردي على الحضارة والفنون السلجوقية بالبحث والدراسة ، أن أذكر في ايجاز حضارة السلاجقة وفنونهم التي أتوا بها من منازلهم الأولى قبل أن تطأ

---

(١) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ص ١٠ ، الراوندي : راحة الصدور ص ٩٦ .

(٢) البنداري : مختصر تواريخ آل سلجوق ص ١٠ .

(٣) ابن الاثير : في حوادث سنة ٤٤٧هـ .

(٤) الراوندي : راحة الصدور ص ٩٩ .

أقدامهم أرض ايران والعراق • ومن المعروف أن السلاجقة عاشوا حياة تغلب عليها سمات البداوة من ميل الى التنقل والارتحال طلبا للرزق ، وسعيا وراء الكلأ والمرعى ، فكانت جذور الحياة القبلية راسخة في أعماق نفوسهم مما أثر في دولتهم وفي حاضرهم ومستقبلهم أيما تأثير •

وكان من الطبيعي أن يلجأ سلاطين السلاجقة الأوائل ، وهم غير مثقفين كما هو معروف ، الى استخدام عدد كبير من الموظفين لاستعمالهم في المهام المختلفة ، ومن ثم برزت طبقة الموظفين من الفرس والعرب ، وازداد نفوذ بعضهم ، وخاصة طبقة الوزراء والحجاب • وقد استطاع هؤلاء أن يلعبوا دورا بارزا موجها في كثير من مناحي الحياة السياسية والاجتماعية والفنية في العصر السلجوقي ، بل انهم استطاعوا أحيانا أن يسيطروا على سلاطين السلاجقة ويوجهوهم وفق ارادتهم •

ولما كانت ايران والعراق خاضعة للسلاجقة في القرن الخامس ، كما أن معظم أنحائهما كان يدين بالمذهب السني الذي كان يتعصب له السلاجقة ، فقد أدى هذا الى ازدياد صلة ايران بالعراق وبالخلافة العباسية • وظلت هذه الصلة قوية في أثناء حكم السلاجقة ، مما كان له أقوى الأثر وأبعده في اختلاط الايرانيين بالعراقيين وامتزاج حضارة كل من البلدين ، فأصبحا يمثلان معا صورة واضحة صادقة للحضارة الاسلامية في العصر السلجوقي ، الذي امتد من القرن الخامس حتى القرن السابع الهجري •

وهكذا نستطيع القول بأنه ، اذا كان الأتراك الذين أكثر من استخدامهم الخليفة المعتصم بالله ، في بلاطه وجيشه في القرن الثالث الهجري ، والذين نشأوا وتربوا في أحضان المجتمع

الاسلامي ، لم يكن لهم تأثير يذكر في الحضارة أو المجتمع الاسلامي ، الا أن الأتراك الذين وصلوا الى مراكز الحكم في القرن الخامس الهجري في ايران والعراق ، ونعني بهم السلاجقة ، قد أثروا تأثيرا عميقا في الحضارة والمجتمع الاسلامي • بل ان بعض الكتاب المحدثين من علماء الآثار (١) ، ذهب الى أبعد من ذلك ، فقال ، ان حضارة السلاجقة وفنونهم ، هي الدعامة الأولى التي قام عليها الفن العثماني في القرن التاسع الهجري •

والذي أود أن أوضحه هنا ، أنه برغم أن السلاجقة لم يأتوا بحضارة أو فن من موطنهم الأصلي ، اذ أنهم كانوا أقواما رحل ، أقول برغم هذا ، الا أن أثرهم وفضلهم على الحضارة والفنون الاسلامية ، كبير وعميق • ذلك أن تعصبهم لأهل السنة وحرصهم على اداء الفرائض والتقرب من أئمة الدين ، قد ساعد على ازدياد صلة ايران بالخلافة العباسية • وظلت هذه الصلة قوية أثناء حكم السلاجقة لها ، مما كان له أبعد الأثر في اختلاط الايرانيين بالعراقيين ، وامتزاج حضارة كل من البلدين بالأخرى ، فأصبحا يمثلان معا في العصر العباسي الثاني صورة واضحة المعالم للحضارة الاسلامية ، بعد ان كانت كل منهما تكاد تكون منفصلة عن الأخرى •

ولعل من أقوى الأسباب وأبرزها التي أدت الى ذلك الامتزاج القوي بين الحضارتين الايرانية والعربية في العصر السلجوقي ،

---

1) Claud Cahen: l'Islam (des origines au début de l'Empire Ottoman. p. 209.

هو العامل الديني • فقد كان مذهب المعتزلة (١) الذي ازدهر في عصر الخليفة المأمون ، والذي تطور تطورا خطيرا في العصر العباسي الثاني من أقوى الأسباب التي أدت الى تعصب السلاجقة للمذهب السني • وقد أدى هذا التعصب بدوره الى صبغ كل نواحي الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية بالصبغة السنية في كل الجهات التي خضعت للسلاجقة • ومن ثم فقد أخذ مذهب المعتزلة في الضعف في نهاية القرن الرابع الهجري ، بفضل أئمة الدين ، وعلى رأسهم أبو الحسن الأشعري (٢) الذي حمل على آراء المعتزلة وحاربهم حربا شعواء ووافق أهل السنة في كثير مما ذهبوا اليه •

كما جاء الغزالي (٣) وصرع المعتزلة وأعاد لايمان السلف منزلته العالية، فبقي بعده تراث أهل السنة (٤) • وهكذا وجد شيخنا الماوردي وأمثاله من أئمة السنة الجو مهيأ أمامهم لنشر المذهب السني نقيا بعد أن أزالوا عنه كل ما قد شابه من آراء المعتزلة •

واذا كنا قد اخترنا شيخنا الماوردي بخاصة لبيان أثره على حضارة وفنون السلاجقة فذلك لما اتصف به هذا الامام من سعة في الأفق واعتدال في الرأي وأخذ بالأمثل من أحكام السابقين ، ولا أجد للتدليل على ذلك أبلغ مما قدم به كتابه أدب الدنيا والدين ، فهو يقول : باستقامة الدين تصح العبادة وبصلاح الدنيا تتم السعادة وقد توخيت الاشارة الى آدابهما على أعدل الأمرين من ايجاز وبسط أجمع فيه بين تحقيق الفقهاء وتدقيق

---

(١) الشهرستاني : الملل والنحل ص ٦٥ — ٧٥ •
(٢) الاشعري : مقالات الاسلاميين ص ١٥٥ — ٢٧٨ •
(٣) حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام السياسي حـ٢ ص ٢١٨ •
(٤) الغزالي : تهافت الفلاسفة ص ٣ — ٤ •

الأدباء ، فلا ينبو عن فهم ولا يدق في وهم ، مستشهدا من كتاب الله عز وجل بما يقتضيه ومن سنن رسول الله صلوات الله عليه بما يضاهيه ، ثم متبعا ذلك بأمثال الحكماء وآداب البلغاء وأقوال الشعراء ، لأن القلوب ترتاح الى الفنون المختلفة وتسأم من الفن الواحد .

وبرغم اعتناق الماوردي للمذهب الشافعي ، الا أنه لا يتعصب له بل نجده في كل أحكامه وآرائه وفتواه يورد مذاهب الأئمة الثلاث : الشافعي والحنفي والمالكي متوخيا في ذلك العدل والنفع العام ، كما أشار الى ذلك في كتابه « الأحكام السلطانية » حيث يذكر « امتثلت فيه أمر من لزمت طاعته ليعلم مذاهب الفقهاء فيما له منها فيستوفيه وما عليه منها فيوفيه ، توخيا للعدل في تنفيذه وقضائه وتحريا للنصفة في أخذه وعطائه » .

وعالم فقيه هذه آراؤه ومبادؤه كان لا بد أن يؤثر تأثيرا مباشرا في المجتمع الذي عاش فيه وكتب له وعنه . واذا كان ابن خلدون يعد مؤسس علم الاجتماع فان الماوردي واضع اللبنة الأولى في هذا الميدان . ومن ثم فانني أعتقد أنه لم يجانبني الصواب عندما اعتبرت الفن السلجوقي ثمرة من ثمار آراء وأحكام الماوردي ، لأن الفن هو في الواقع الترجمان الصادق والاصيل لأحاسيس ومعتقدات المجتمع .

ولما كان الفن الاسلامي ، دون غيره من باقي فنون العالم القديم والحديث ، ينقسم الى قسمين رئيسيين فقط ، ألا وهما فن العمارة الذي يعبر عنه أثريا باسم الآثار الثابتة ، والقسم الثاني الفن الزخرفي ويعرف باسم الآثار المنقولة ، فقد رأيت أن أبين أثر الماوردي وآرائه في كل منهما على حدة .

أما عن العمارة فهي في الواقع السجل الذي يستقى منه تاريخ الأقدمين بما فيه من تقدم وازدهار ، أو تدهور وتخلف ، ومن ثم فقد سجلت لنا العمارة الاسلامية وخاصة الدينية منها تاريخ الدول المتعاقبة ، وأعطتنا صورة صادقة عن منشئها • ذلك ان العقيدة الاسلامية التي تغلغلت في نفوس معتنقيها لسماحتها وملاءمتها لطبيعة النفس البشرية ولحرصها على الاسعاد في الدارين ، ارتبطت ارتباطا وثيقا بعمارة المساجد التي يعمرها من آمن بالله واليوم الآخر وأقام الصلاة وآتى الزكاة ولم يخش الا الله •

ويعمرها الزاهدون ، والمتصوفون ، والذاكرون الله كثيرا ، والعارفون بالله • يعمرها حلقات الدرس من فقه وحديث ومنطق وكلام ، ومجالس الأدب من نحو وبلاغة ونقد ، وندوات الاجتماع التي تتعرض لسائر العلوم ويعمرها العلماء والفقهاء ، والأئمة والأدباء ويقوى بها الضعيف والغريب ويأنس اليها ابن السبيل والمسكين ، ويرفع صوته فيها الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر والداعي الى الخير •

فالمساجد دين وخلق وهدى ونور وصومعة الناسك ومدرسة الدارس ودين وقوة ودرك للعزة في الأولى والفوز العظيم في الآخرة •

على أن الذي يعنينا في بحثنا هذا هي العمائر التي انتشرت في العصر السلجوقي والتي يمكن القول بأن الماوردي وآراءه كان له أثر في انتشارها وفي تصميمها المعماري ونعني بها المدرسة ، على أننا لا ندعي أن المدرسة نشأت في العصر السلجوقي ، فمن المعروف أنه ظهرت في النصف الثاني من القرن الرابع الهجري في شرق العالم الاسلامي ، أسماء جديدة لأماكن العبادة عرفت

بالمدارس • ثم انتشرت في العصر السلجوقي في القرن الخامس الهجري هذه المنشآت على نطاق واسع حتى أصبحت هي الاسم الغالب على أماكن العبادة • وهذا التغيير في الاسم لا بد وأن يكون لحكمة اقتضتها الوظيفة الجديدة أو الدافع المباشر ، كذلك صاحب التغيير في الاسم تغييرات جوهرية في التخطيط المعماري •

وقبل أن نتكلم عن السبب في استخدام اسم المدرسة وتخطيطها المعماري ، يجدر بنا أن نذكر شيئا عن نشأتها • تعتبر مدينة نيسابور هي أول مدينة اسلامية أطلقت كلمة مدرسة على (دار العلم) ، وكان ذلك في عهد محمود الغزنوي في القرن الرابع الهجري ، فقد أنشئت المدرسة البيهقية والسعيدية ومدرسة أبو سعيد الاصطرلابي ومدرسة أبو اسحق الأصفراني ، وقد ظلت هذه المنشآت عمائر محلية مدة خمسين عاما ثم قضي عليها تماما بعد قتل وزير طغرل بك مؤسس دولة السلاجقة •

الا أنها بعثت من جديد على يد نظام الملك أعظم رجل تولى الوزارة في عهد السلاجقة قاطبة بل وأعظم وزراء الشرق في عصره ، فقد ظل وزيرا لثلاثة من السلاطين هم طغرل بك وألب أرسلان وملكشاه • فقد استطاع بثاقب فكره وبعد نظره أن يستفيد من هذه المنشآت الثقافية والدينية في نشر المذهب السني ومناهضة المذهب الشيعي • وهكذا أصبحت المدارس منشآت عامة بعد أن كانت خاصة ، يتخرج فيها الموظفون الذين يتولون ادارة الشئون الادارية والثقافية والدينية في دولة السلاجقة •

وقد أنشأ نظام الملك الكثير من المدارس ، التي بلغ عددها عشرة (١) في ايران والعراق وذلك في النصف الثاني من القرن

---

(١) ناجي معروف : علماء النظاميات ومدارس المشرق الاسلامي ص٥

الخامس الهجري ، وقد حذا حذوه كثير ممن خلفه من السلاجقة وانتشرت المدارس في كل الولايات السلجوقية ٠

أما عن التصميم المعماري للمدرسة ، فهو يختلف اختلافا بينا عن تصميم المسجد برغم اشتراك كليهما في الوظيفة الأولى وهي تأدية فريضة الصلاة ٠ فبينما يتكون المسجد من صحن يتوسطه وتحيط به البوائك والأروقة من كل الجهات أو بعضها (لوحة رقم ١) نجد المدرسة تحتوي على صحن مكشوف أو مغطى يتوسطها وتحيط بها أربعة ايوانات (١) من جهاته الأربع أو ايوانين أو ايوان واحد (٢) ٠

على أنه من الثابت أن التخطيط الأول للمدرسة في العصر السلجوقي كان عبارة عن ايوان واحد في جهة القبلة ،أما الأضلاع الثلاث الأخرى فكانت تحتوي على غرف للطلبة وذلك لأن المدارس الأولى كان معظمها لمذهب واحد (٣) ٠

وقد نتبين أثر الماوردي غير المباشر في تخطيط المدرسة ذات الايوان الواحد في عصر السلاجقة الأوائل ، اذا عرفنا أن نظام الملك قد بنى المدارس لأصحاب الامام الشافعي رضي الله عنه

---

(١) لوحة رقم (٢)

(٢) الايوان : لفظ فارسي معرب (ديفان) ومعناه معماريا حجرة ذات ثلاثة جدران على ان يكون مفتوحا من الجهة الرابعة كلية على فناء ، وقد استعمل هذا النظام المعماري في قصور ومنازل الساسان وقد اخذ المسلمون عنهم هذا التصميم في منازلهم لملاءمتها للجو الحار . وفي القرن الخامس الهجري استخدم في تصميم المدارس حتى يستطيع ان ينفرد فيه المدرس في غير أوقات الصلاة بتلاميذه واصحاب مذهبه .

(٣) سعاد مهار : مساجد مصر واولياؤها الصالحون ج ١ ص ٢١ . لقد احصى كزويل ثمانين مدرسة في سوريا ترجع الى القرنين السادس والسابع بينها ٢١ للمذهب الشافعي و ٢٢ للمذهب الحنفي وتسع للمالكية والحنابلة ومن بينها ست مدارس لمذهبين هما الشافعية والحنفية .

ووقف عليهم الوقوف ، وفي ذلك يقول أبو شامة « ومدارسه في العالم مشهورة لم يخل بلد منها حتى جزيرة ابن عمر التي هي في زاوية من الأرض لم يأبه لها أحد بنى فيها مدرسة كبيرة حسنة » (١) ويقول السبكي انه كان لنظام الملك في كل مدينة بالعراق وخراسان مدرسة وله بيمارستان بنيسابور ، ورباط ببغداد ثم عدد المدارس التي عرفت بالنظاميات فقال ، نظامية ببغداد ثم عدد المدارس التي عرفت بالنظاميات فقال : نظامية وطبرستان (٢) ، واذا أضفنا اليها المدرسة النظامية في جزيرة ابن عمر كانت عشرا (٣) ٠

وقد سار نظام الملك على سيرة ونهج الامام وقاضي القضاة الماوردي ، فقد كان لا يميل الى النزاع الطائفي ولا الى الفتن المذهبية ، بل كان همه الألفة وجمع الكلمة ، يدل على ذلك الخطاب الذي وجهه الى مدرس نظاميته ببغداد ، اسحق الشيرازي جوابا على كتاب منه اليه في معنى الحنابلة الذين كانوا الغالبين على بغداد يومئذ « وليس توجب سياسة السلطان وقضية العدل الى أن يميل في المذهب الى جهة دون جهة ونحن بتأييد السنن أولى من تشييد الفتن ، ولم نتقدم ببناء هذه المدرسة الا لصيانة أهل العلم والمصلحة لا للاختلاف وتفريق الكلمة » (٤) ٠

على أن اعتناق سلاطين ووزراء السلاجقة للمذهب الشافعي، مذهب الماوردي لم يقتصر على العصر الذي عاش فيه ، بل امتد الى نهاية حكمهم في منتصف القرن السابع الهجري ٠ اذ تحدثنا

---

(١) ابو شامة : كتاب الروضتين جا ص ٦٢ — ٦٣ .
(٢) السبكي : طبقات الشافعية ج٤ ص ٣١٣ — ٣١٤ .
(٣) ناجي معروف : علماء النظاميات ص ١٠ .
(٤) ابن الجوزي المنتظم ج٨ ص ٣١٢ ٠

المراجع التاريخية عن أبي الفضائل شرف الدولة اقبال الشرابي (١) الذي سطع نجمه في خلافة المستنصر بالله العباسي، وظل نفوذه في ازدياد حتى بلغ الذروة عند وفاة المستنصر (٦٤٠هـ / ١٢٣٢م) وأصبحت له السيادة التامة في خلافة المستعصم بالله ٠ والذي حفلت سيرته بشيء كثير من الاهتمام لما قام به من أعمال تذكر في جميع المجالات العسكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية (٢) على أن الذي يعنينا من أمره في هذا ، أنه كان محبا للعلم وأهله مقربا من العلماء ، فقد أنشأ في العراق مدرستين كبيرتين للشافعية (٣) الأولى ببغداد والثانية بواسط ، كما أنشأ مدرسة ثالثة للشافعية في الحجاز بمكة المكرمة (٤) ، ويفهم من تاريخ هذه المدارس الثلاث أنها كانت ذات ايوان واحد لتدريس المذهب الشافعي فحسب ، أما باقي مساحة المدرسة فقد كان يشغلها غرف الطلبة والمتصوفة (٥) ٠

وكما كان الماوردي متسامحا في غير افراط أو تفريط ، فلم يتعصب لمذهبه الشافعي ، كذلك نجده واسع الأفق ، نافذ البصيرة ، فلم يتشدد في أمور الدنيا التي لا ضرر من الاستمتاع بها ، ما دامت لا تخرج عن حدود الشريعة ٠ وفي ذلك يقول : ان شرف المطلوب بشرف نتائجه وعظم خطره بكثرة منافعه ، وبحسب منافعه تجب العناية به ، وعلى قدر العناية يكون اجتناء

---

(١) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٦١ ، النجوم الزاهرة ج٧ ص ٥١ الحوادث الجامعة لابن الفوطي ص ٣١٠ ، الفخري : الاداب السلطانية ص ٢٦٧ ، شفاء الغرام ج١ ص ٣٣١ ، ابن العمادي : الشذرات ج٥ ص ٢٦١ ، ناجي معروف : المدارس الشرابية ص ٤٣ ، قطب الدين : الاعلام بأعلام بيت الله الحرام ص ٨٢ ٠

(٢) ابن الجوزي : المنتظم ج ١٠ ص ١١٥ ٠

(٣) ابن الساعي : الجامع المختصر ص ٣١٩ ٠

(٤) السبكي طبقات الشافعية ج ٥ ص ٢١٣ ٠

(٥) النعيمي : الدارس في اخبار المدارس ص ١١٩ ٠

ثمرته وأعظم الأمور خطرا وقدرا وأعمها نفعا ورقدا ما استقام به الدين والدنيا وانتظم به صلاح الآخرة (١) • ثم يعود فيقول في باب « أدب الدنيا » ان ما يصلح به الدنيا ستة أشياء هي قواعدها وان تفرعت وهي دين متبع وسلطان قاهر وعدل شامل وأمن عام وخصب دائم وأمل فسيح • ثم يفصل كل فرع من الفروع الست ، فيقول مثلا : فيما يلزم السلطان القاهر ، أن يهتم بعمارة البلد باعتماد مصالحها وتهذيب سبلها ومسالكها •

كما يفسر العدل الشامل بعبارات ومعان لم يسبق اليها ، اذ يقول : ان العدل مأخوذ من الاعتدال ، فما جاوز الاعتدال فهو خروج عن العدل ، وقد قالت الحكماء : الفضائل هبات متوسطة بين خلتين ناقصتين وأفعال الخير تتوسط بين رذيلتين ، «فالظرف» مثلا واسطة بين الخلاعة والعرامة (٢) •

نخلص من هذه الآراء التي قال بها الماورديوشاعت وانتشرت بين أبناء وحكام عصره من السلاجقة ، أنه يبيح الاستمتاع بالحياة الدنيا فيما لا يتعارض مع الدين والشرع وفي غير افراط أو تفريط • على أننا نستطيع أن نتبين ثمرة آرائه هذه في ظاهرتين فنيتين هامتين في تاريخ الفنون السلجوقية ، الأولى : هي زخرفة واجهات العمائر الدينية (٣) والمدنية بزخارف هندسية ونباتية وكتابية بل وفي بعض الأحيان حيوانية • أما الظاهرة الثانية : فهي توضيح المخطوطات وخاصة العلمية منها بالرسوم والصور •

---

(١) أدب الدنيا والدين ص ٢ •

(٢) أدب الدنيا والدين ص ٩٨ — ١٠٥ •

(٣) Bashkiroff. A.S. : The Art of Daghestan. Carved Stone. p. 93 (Moscow 1931).

أما عن العمارة ، فمن المعروف أن السلاجقة كانوا يشملون الفنون برعايتهم في ايران والعراق وآسيا الصغرى برغم آن تأثيرهم الفني كان ضئيلا ، ذلك أنهم لم يأتوا بطراز فني من عندهم ، فهم قوم رحل كما سبق القول ، هذا بالاضافة الى أن السلاجقة استقدموا أبناء البلاد أنفسهم في الأقاليم الاسلامية المختلفة ، فكانوا يشجعونهم بما يكلفونهم به من أعمال أو يشترونه من تحف فنية • وبرغم ذلك كله فقد نشأ تحت رعايتهم طراز قائم بذاته ، له خصائصه ومقوماته التي تكاد لا تخطئها العين • واذا كان علماء الفنون والآثار لم يستطيعوا اظهار الدوافع التي أدت الى ظهور فن السلاجقة المتميز ، برغم ان أصحابه لم يضيفوا له جديدا يميزه أو يطبعوه بطابع من عندياتهم يعلمه ، فلعل مرجع ذلك ان علماء الآثار لم يعيروا أئمة وعلماء ذلك العصر ، الكثير من العناية فلم يتبنوا الآراء الجديدة التي صبغت العصر بطابع خاص بعيدا عن التزمت الديني والمذهبي ، والقضاء على المعتزلة وأصحابها • كما أنهم لم يدرسوا آراء وكتابات علماء ذلك العصر مثل شيخنا الماوردي الذي سبر غور المجتمع الانساني وغاص في أعماق النفس البشرية فلم يثقل عليها بالتزامات دينية قاسية بل واءم بين خيري الدنيا والآخرة ، ومن ثم فلم أكون مغالية اذا قلت أن الماوردي هو واضع اللبنة الأولى لعلم الاجتماع •

وقد امتاز الطراز السلجوقي بضخامة العمائر واتساعها ومظهرها القوي (١) ، كما امتاز أيضا باستخدام الزخارف المجسمة ولا سيما في واجهات العمائر (٢) • على أنه يبدو أن

(١) Diez. E: Churasanische Baudenkmaler. I.P. 18 (Berlin 1918)

(٢) Cohn — Wiener, E: Turan, Islamische Baukunst in Mittelasien. p. 27 (Berlin 1930).

الأساليب التي مهدت للطراز السلجوقي قد قامت في بلاط محمود الغزنوي (أول من احتك بهم السلاجقة) ثم امتدت منها الى ايران ، ومن ثم يمكن اعتبار الفنون التي سبقت الفن السلجوقي مرحلة الانتقال بين الفن الساساني والفن السلجوقي (١) .

ومهما يكن من الأمر فان العمائر السلجوقية تمتاز بتفخيم الواجهات وتنوعها حتى أنه كان لكل بناء منها طابعا خاصا في الزخارف الفنية التي تزدحم بها الواجهة . ولذلك فقد أصبحت العناية بالعناصر المعمارية الأخرى ثانوية بالنسبة الى العناية بالواجهات . وقد يتبادر الى الذهن ،أن المقصود بفخامة الواجهات في العبارة السابق الاشارة اليها ، هو في ضخامة حجم المدخل أو الواجهة ، كما نرى ذلك في ايران في العصر المغولي والصفوي وانما الذي نعنيه هنا هو فخامة العناصر الزخرفية ، كالحنيات المزينة بالمقرنصات والدلايات المصفوفة في تنسيق بديع في اطار مستطيل أو مربع من الزخارف الهندسية المختلفة الأشكال ، أنظر لوحة رقم (٣) . وكثيرا ما نجد واجهة العمائر وخاصة الدينية منها مغطاة بأشرطة من الكتابة والزخارف الهندسية المنحوتة نحتا قليل البروز والى جانبها زخارف ونقوش أخرى نباتية كثيرة البروز من مراوح نخيلية ونباتية محورة ومتشابكة وخطوط مضفورة وأخرى معقودة (٢) ، كما يظهر ذلك واضحا في واجهة مدرسة (اينجه مناره لى) بمدينة قونيه بآسيا الصغرى (٣) (أنظر لوحة رقم ٤) . وفي بعض الأحيان تجد الواجهات مغطاة بزخارف بارزة نباتية وهندسية في غير تماثل أو

---

(١) زكي محمد حسن : فنون الاسلام ص ٨٧ .

(٢) Gabriel Rousseau: L'Art décoratif musulman p. 342 (Paris 1934).

(٣) Gabriel A: Monuments turcs d'Anatolie. Vol. II p. 113 (Paris 1931 - 34).

تقابل وخاصة بآسيا الصغرى في المناطق القريبة من أرمينيا ، الأمر الذي جعل بعض علماء الآثار يقول بوجه الشبه بين هذه الزخارف وزخارف بعض واجهات الكنائس في أرمينيا ، وكذا الزخارف الجصية بدير السريان بوادي النطرون • وعلى أية حال فان ذلك يؤكد الرأي الذي ذهبنا اليه ، وهو أن روح التسامح التي سادت العصر السلجوقي كنتيجة لآراء علمائها مثل الماوردي ، جعلتهم يجمعون عناصر فنهم من كل فنون البلاد التي خضعت لهم ثم عادوا يصبغونها بالصبغة الاسلامية (أنظر لوحة ٥) •

ولعل أهم مميزات الفن السلجوقي في زخرفة واجهات العمائر ولم يسبق اليه ، هو استخدام الكائنات الحية ، في أسلوب محور عن الطبيعة ، على النحو الذي عرفته الفنون الاسلامية • فقد أكثر الفن السلجوقي من استخدام النقوش الآدمية والتي تمثل الحيوانات والطيور على العمائر والأسوار والأبواب والقناطر في المدن السلجوقية المختلفة في آسيا الصغرى ولا سيما قونيه وديار بكر والعراق وخاصة الموصل وبغداد •

ومن أبدع واجهات عمائر قونية المنحوتة في الرخام وجه (سلطان خان) الذي يرجع الى (٦٢٦هـ / ١٢٢٩م) ، وفي مدينة آمد (١) (ديار بكر) أمثلة طيبة من التماثيل والنقوش المنحوتة في العصر السلجوقي وبين هذه النقوش كثير من الحيوانات والطيور • على أن الزخارف الحيوانية لم تكن كلها لمجرد الزينة فحسب ، بل كان بعضها من رنوك الأمراء وشاراتهم ومما يجدر ملاحظته أن الزخارف الكتابية التي تزين الواجهات

---

(1) Van Berchem. M. und Strzygowski : Amida. p. 139 (Heidelberg 1910 fig. 59 et. 255).

كانت تقوم على أرضية من الزخارف النباتية المحفورة حفرا دقيقا مفصلا وفي مستوى منخفض عن مستوى الحروف الكتابية . ومن أحسن الأمثلة لذلك مسجد السلطان ملكشاه بمدينة آمد (١) الذي يرجع تاريخه الى (٤٨٤هـ / ١٠٩١م) .

كما تزخر الموصل بأمثلة كثيرة توضح النقوش التي تزخر بها واجهات العمائر السلجوقية والمحاريب الداخلية . ومن أهمها محرابا ضريح الامام عون الدين (٢) ، وهما مصنوعان من الرخام ويحتويان على رسوم نباتية محفورة حفرا دقيقا وفي عدة مستويات (٣) . والحق أننا نستطيع أن نلاحظ العناية التامة برسوم هذين المحرابين وخاصة في الفروع النباتية الغنية بالسيقان والوريقات فضلا عن الكتابة الزخرفية الجميلة بالخط الكوفي والنسخي ، على أرضية من الرسوم النباتية حينا وحينا آخر متصلة بهذه الزخارف النباتية بحيث تنتهي هامات الحروف وذيولها بتلك الرسوم (٤) (أنظر لوحة ٦) .

ومن الزخارف السلجوقية الجصية البديعة ، لوحة تضم رسوما آدمية في مناظر مختلفة محفوظة في متحف بنسلفانيا ، زخرفت أرضيتها برسوم أشكال نجمية وصليبية مما يستعمل في تغشية الجدران ، وتقوم فوق هذه الأرضية رسوم آدمية أكثر بروزا وأتقن حفرا ، وفيها تفاصيل دقيقة للملابس . ويمثل الموضوع الرئيسي لهذه الزخارف رسم لأمير جالس على عرشه ،

---

(١) Flury-S : Islamische Srhriftbander, Amida-Diarbekr p. 120 (Basel 1920).

(٢) Sarre und Heggfeld; Archàolgische Reise in Eupheral und Tigrit gebielt Vol. II p. 227-263.

(٣) Glieck und Diez: Die Munst des Islam p. 242.

(٤) Dimand. M.S : Studies in Islamic Ornament (Aro Islemica Vol. I. p. 293).

ويحمل العرش فيلان، على غرار العروش التي تحملها الحيوانات في الفن الساساني (١) ، ويعلو هذه اللوحة شريط من الخط النسخي على أرضية مورقة نصها : السلطان الملك الأعظم الملك طغرل العالم العادل القادر ، واعتمادا على أسلوب الخط النسخي ترجح أن تكون هذه الزخارف ترجع الى عصر السلطان طغرل الثاني المتوفى (٥٩٠هـ / ١١٩٤م) (لوحة رقم ٧) ·

ولم يقتصر تأثر الفن السلجوقي على آثار الغرب والساسان فحسب ، بل ان فنون الشرق الأقصى قد اتخذت طريقها الى الفن السلجوقي وأثرت فيه ، وخاصة بالنسبة للحيوانات الخرافية ، كالتنين · ومن أجمل الأمثلة لذلك لوح من الرخام (٢) يمكن نسبته الى بلاد الجزيرة في القرن السابع الهجري ، محفوظ بمتحف الفن الاسلامي بالقاهرة (لوحة رقم ٨) · وقوام الزخرفة رسم تنينين متقابلين ، فغر كل منهما فاه ، فبدت أنيابه الحادة ولسانه المشقوق ، بينما التف ذيل كل منهما حول الآخر · وفوق التنينين شريط به كتابة بالخط الثلث نصها (السلطان المعظم) ·

أما بالنسبة لتوضيح المخطوطات بالرسوم والصور فانه برغم عدم تعرض الماوردي لموضوع التصوير في الاسلام ، في كتبه غير الفقهية القليلة التي بين أيدينا (٣) ، الا أننا نستطيع اعتمادا على آرائه التي أدلى بها في كتاب أدب الدنيا والدين ، أن نفهم ضمنا أنه لا يحرم التصوير على اعتبار أنه من زينة الحياة

---

(١) Survey of Persian Art. Vol. V, PL. 518.

(٢) المرجع السابق حـ٥ لوحة (٥٢٠) ك زكي حسن : فنون الاسلام ص ٦٣٥ ·

(٣) ما زلنا لا نعرف الا القليل عما ألفه الماوردي في غير كتب الفقه ، مثل ادب الدنيا والدين ، وادب الوزير والاحكام السلطانية ·

الدنيا التي لا غبار عليها ما دامت لا تدخل في باب المحظورات ، كأن تتخذ أصناما أو أيقونة للعبادة • وقد انتهى الى هذا الرأي جمهور الفقهاء (١) على اعتبار آنه لم تتنزل فيه آية قرآنيــة صريحة (٢) • ولو أضفنا الى ما تقدم ان أول مدرسة للتصوير انتشرت على نطاق واسع كان في عصر السلاجقة (٣) ، وهـم ليسوا زاردشتيين أتباع ماني المصور العظيم (٤) ، ولم يعتنقوا المذهب الشيعي مذهب معظم الايرانيين ، بل هم سنيون متعصبون لمذهبهم حريصون على ارضاء رجال الدين تواقون للقيـام بما يؤمرون به ويمتنعون عما ينهون عنه •

وقد ازدهرت المدرسة السلجوقية (٥) في التصوير الاسلامي بين القرنين السادس والثامن للهجرة • على أن تصاوير المدرسة السلجوقية لم تكن كلها من انتاج المصورين العراقيين ، بل كثير منها كان ثمرة جهود فنية نشأت في بعض المدن والأقاليم الفنية الأخرى • وكان هذا الانتاج الفني في ديـار الاسلام متأثـرا بالأساليب التي ازدهرت في عاصمة الخلافة على أيد حكامهـا السلاجقة ، ثم تعود فتنتشر منها الى سائر بلاد الأمبراطورية • على أن ذلك لا ينفي وجود اتجاهات محلية في المدرسة السلجوقية، ترجع الى ما يؤثره المصورون المحليون عن أسلافهم في البيئات

---

(١) احمد تيمور وزكي حسن : التصوير عند العرب ص ٤ الى ٩ ، بشر فارس : سر الزخرفة الاسلامية ص ٣١ — ٣٣ ، محمد رشيد : تاريخ الامام محمد عبده ح٥ ص ٤٩٩ — ٥٠١ .

(٢) الثعالبي : لطائف المعارف ص ١٢٦ .

(٣) Arnold, Painting in Islam p. 8.

(٤) E. Blochet: Musulman painting. p. 19.

(٥) لقد اختلف علماء الاثار من مسلمين ومستشرقين في تسمية هذه المدرسة فالبعض سماها المدرسة العربية لظهور مسحة عربية واضحة في السحن والبعض سماها مدرسة بغـداد ولكن افضلها واعمها تسميتها بالسلجوقية .

المختلفة ، والى الاقتباس من الأساليب الفنية الأجنبية (١) ٠

وحسبنا أن نذكر أن تزويق المخطوطات بالرسوم والصور التوضيحية ، فن حملت لواءه بغداد في العصر السلجوقي في القرنين السادس والسابع الهجري (١٢ ــ ١٣م) ، ولكنه ازدهر في أماكن أخرى من ديار الاسلام الخاضعة للسلاجقة ، فعرفته الموصل (٢) والكوفة (٣) وواسط (٤) وغيرها من بلاد الرافدين ٠ كما امتد الى ايران (٥) ومصر (٦) والشام (٧) بل امتد تأثيره الى الرسوم الحائطية في البرطيل (٨) بقصر الحمراء في غرناطة والى بعض المخطوطات العربية بالأندلس(٩)٠ وقد امتد أثر المدرسة السلجوقية الى أبعد من ذلك فقد امتد من شرق ايران الى آسيا الصغرى حتى سماها الأستاذ (Basil Gray)

---

(١) B. Gray : Persian painting p. 36.

(٢) K. Holter: Die Galen-Handschrift und die Makamen Hariri der Wiener Nationalbibliothek. p. 48. (in Jahrbuch XI 1937).

(٣) L. Massignon: The Origin of the Transformation of Persian Iconography by Islamic theology (Survey of Persian Art. III p. 1928 - 36).

(٤) زكي حسن : مدرسة بغداد في التصوير الاسلامي ص ١١ ٠

(٥) P.W. Schulz: Die Persischislamische Miniaturmalerei p. 117; E. Kuhnel: painting and the Art of the Book. p. 27.

(٦) R. Riefstahl: The Date and Provenance of the automata Miniatures p. 206-214 (Art Bulletin XI p. 1929).

(٧) D.S. Rice: A Miniature in an Autograph of Shihab al-Din Ibn Fadhallah al-Umari. p. 861 - 864 (Bull. School of Oriental and African studies XIII 1951.

(٨) جمال محرز : الرسوم الجدرانية الاسلامية في البرطيل بالحمراء ص ٤٣ ــ ٤٧ ٠

(٩) U. Monneret de Villard : Un codice arabo-spagnola con miniature (in Bibliofilia XIIII firens, 1942) p. 209-223.

باسم المدرسة الدولية (١) ·

ومن أشهر الفنانين الذين قامت على أكتافهم مدرسة التصوير السلجوقية المصوران عبد الله بن الفضل (٢) ويحيى بن الحسن ابن كوريها (٣) الواسطي · أما عبد الله بن الفضل فكتب وصور (٦١٩هـ / ١٢٢٢م) مخطوطة من كتاب خواص العقاقير فيه نحو ثلاثين صورة ، وأشهرها صورة رجلين كل منهما تحت شجرة وبينهما وعاء يحركه أحدهما بعصا في يده ، وتمثل هذه الصورة صناع الرصاص · وهناك صورة أخرى محفوظة في متحف المتروبوليتان بنيويورك ، تمثل طبيبا يحضر دواء (لوحة رقم ٩) · ولما كان هناك تأثير بيزنطي واضح على تلك الصور التي وقعها عبد الله بن الفضل بامضائه ، لذلك فان الدكتور زكي حسن(٤) يرجح أن ابن الفضل اما كان تلميذا لفنان مسيحي في العراق ، أو أن يكون هو نفسه مسيحيا اختار الاسلام وتسمى باسم عبد الله كما يفعل أغلب المسيحيين الذين يعتنقون الدين الاسلامي ·

أما الواسطي فربما نشأ في مدينة واسط في القرن السابع الهجري ، وتعلم الرسم منذ نعومة أظفاره حتى حذق الرسم واستطاع أن يرسم صورة بأسلوب اسلامي متميز · فقد استطاع اظهار التعبير على الوجوه من فرح وحزن ورهبة ورغبة وذلك عن طريق نظرات العيون وحركات الأيدي · ومما ساعده على

---

(١) Bi Gray: Persian painting. p. 69.

(٢) زكي حسن : فنون الاسلام ص ١٧١ ·

(٣) استدل الاستاذ بلوشيه من وجود اسم (كوريها) من بين اسماء الواسطي على انه من أصل ارميني ·
(Blochet: Musulman Painting p. 21)

(٤) زكي حسن : فنون الاسلام ص ١٧١ ·

ذلك هو استعماله القلم والمداد الأسود الناتج عن حرق أليـاف الكافور وخلطها بزيت نباتي (الخردل) الذي يساعـد علـى اظهار التفاصيل الدقيقة في الصورة (١) ٠

لقد خلد الواسطي فنه في رسم مخطوط مقامات الحريري (٢) حيث قام بنسخ وتصوير المخطوط متبعا أسلوبا متميزا انفرد به ، فلم يتبع الطريقة التي سار عليها جميع المصورين وهي ترك فراغ يحدده الخطاط أو النساخ للمصور ٠

وفي الوقت نفسه رسم الحشود الصغير للأشخاص والحيوانات داخل اطارها على بعدين في اللوحة وعلى مسافة واحدة منه ٠ وكتب اسمه على الورقة الأخيرة وتاريخ المخطوط (٦٣٤هـ / ١٢٣٧م) (أنظر لوحة رقم ١٠ ـ ١١) ٠

ولعل من أكثر مصوري الاسلام استعمالا لصور النساء هو الواسطي ، فقد عني عناية خاصـة بابراز دور المرأة (٣) في المجتمع الاسلامي في عصره ، فرسمها مرة تغزل الصوف لتنسج الثياب والخيام ومرة تحضر الحطب والمناقشات وثالثة تجلس

---

(١) شاكر حسن سعيد : الخصائص الفنية والاجتماعية لرسـوم الواسطي ص ٥ .

(٢) الحريري : هو ابو محمد القاسم بن علي الحريري البصري ولد في البصرة ٤٤٦هـ / ١٠٥٤ كان اديبا وعين في ديوان الخلافة في البصرة في منصب صاحب الخبر في البريد . واشهر مؤلفاته هي المقامات وعددهـا خمسون مقامة تناولت جوانب مهمة من الحياة الاجتماعية والدينية والادبية وتناولها بأسلوب جمع بين الحقيقة الجودة والبلاغة واتسعـت له الالفاظ واتقادت له وفور البلاغة حتى اخذ بأزمتها وملك ريقها فاختار الفاظهـا واحسن نسقها . ويقال أن الحريري كتب بخط يـده سبعمائة نسخـة (شذرات الذهب حـ٤ ص ٥٢ ، ابن خلطان حـ١ ص ٤٢٠) .

(٣) ناهدة عبد الفتاح : المرأة في رسوم الواسطي ص ٨ .

للدرس والشرح والافتاء في المسجد • وأحيانا تستجدي المصلين، وتارة تشكو زوجها الى الحاكم ، وأخرى للقاضي ، واذا ما فارق الحياة أحد من أهلها صورها تلطم الخدود وتشق الجيوب ، كما صورها ترقص وتغني في سوق الرقيق ، ثم صورها بجرأة وبواقعية وهي في حالة الوضع ، وذهب كذلك الى الريف مع المرأة فصورها ترعى الابل وتملأ الجرار وتفري الصوف وتعمل في الحقل (لوحة رقم ١٢ ــ ١٣) •

ومما يجدر ملاحظته بالنسبة لملابس المرأة ، أن الواسطي عني باظهار التفاصيل الدقيقة منها ، كما أنه كثيرا ما نجده يغطي رؤوس النسوة الفقيرات بخمار (١) أسود يعرف باسم مقنعة (٢) أو فوطة وهو ضرب مما تعتم به (٣) النسوة الفقيرات • وقد اشتهرت مدينة الكوفة بصناعة هذا النوع من الخمر ولبسه ، وكان الخمار خاصا بالحرائر (٤) ، (أنظر لوحة رقم ١٤) •

أما عن المخطوطات التي وضحت بالصورة في العصر السلجوقي فلعل أقدمها وأهمها كتاب في البيطرة (لوحة رقم ١٥) هو مختصر رسالة لأحمد بن حسن بن الأحنف (٥) جاء في نهايتها ، أنها كتبت في بغداد على يد علي ابن حسن بن هبة الله في آخر

---

(١) الاصفهاني : الاغاني حـ٣ ص ٤٥ •

(٢) الوشاء : الموشي ص ١٢٦ •

(٣) ابن منظور : لسان العرب حـ١ ص ٢٧٣ •

(٤) ففي زمن عمر بن عبد العزيز كتب الى ولاته يقول : لا تلبس امة خمارا ولا يتشبهن بالحرائر • (ابن سعيد : الطبقات : حـ٥ ص ٢٨١) •

(٥) هذه النسخة محفوظة بدار الكتب المصورة وتضم ١٤٨ ورقة Stchoukinc: Les manuscripts illustrés musulmans de la Bibliotheque du Caire p. 138-140 (gazette des Beaux Arts 6 period XIII 1935).

شهر رمضان سنة (٦٠٥هـ / ١٢٠٩م) • على أن تصاوير هذه المخطوطة ليست مثالا طيبا للأساليب الفنية التي نعرفها في المدرسة السلجوقية • ومن الكتب العلمية التي أقبل على تزويقها المصورون من المدرسة السلجوقية كتاب الترياق (١) لجالينوس (لوحة رقم ١٦) وكذا كتاب الحشائش أو خواص العقاقير أو خواص الاشجار المترجم عن ديسقوريدس (٢) وكتاب الحيل الميكانيكية لابن الرازي (٣) الجوزي (لوحة رقم ١٧) وعجائب المخلوقات للقزويني (٤) (لوحة رقم ١٨) ، هذا فضلا عن طائفة قليلة من كتب الأدب مثل كليلة ودمنة (لوحة رقم ١٩ ــ ٢٠) ومقامات الحريري السابق الاشارة اليها • أما كتب التاريخ ودواوين الشعر فقد ذاع تزويقها فيما بعد •

وأود قبل أن أترك موضوع توضيح المخطوطات بالصور ، أن أذكر ، أن الرسوم الآدمية في الفن السلجوقي لم تقتصر على توضيح المخطوطات وزخرفة التحف المنقولة فحسب بل ظهرت على العملة كذلك • ولما كانت العملة في الاسلام شارة من شارات الملك لذلك فان ظهور الصور والتصاوير عليها التي لم تكن توجد من قبل ، اللهم الا في أوائل العصر الاسلامي عندما

---

(١) ابن شاكر : فوات الوفيات ص ٣٦ .

(٢) Florance Day: Mesopotamian Manuscripts of Dioscorides. p. 273 (Bulletin of Metropolitan Museum of Art. VIII 1950).

(٣) احمد تيمور وزكي حسن : التصوير عند العرب ص ٤٢ ، ٤٣ ، ٤٩ ، ٨١ ، جرجي زيدان : تاريخ التمدن الاسلامي ج ٥ ص ٤٣ ، ٤٤ .
Carra de Vaux: Les penseurs de l'Islam. p. 119.

(٤) Holter. K: Die Islamischen Miniaturhand schriften vor 1350 p. 30 (in Zentralblatt fur Bibliothekwossen LIX 1937.
J. Ruska: Qazwinistudien (Der Islam IV 1913) p. 20.

كان الفرس يسبكون للدولة الاسلامية الدراهم ، وتسبك بيزنطية الدنانير الذهبية (١) ، له قيمته وخطره ، وان دل على شيء فانما يدل على أن التسامح الديني وعدم التزمت في العصر السلجوقي بلغ درجة كبيرة ، أتاحت للرسوم الحيوانية فرصة الانتشار في جميع أنحاء العالم الاسلامي . ولعل من أهم النقود التي ظهرت عليها صور مسكوكة تلك التي سكها بنو الأرتق (٢) والأتابكة (٣) في المشرق والمغرب ، بل وحتى صلاح الدين الأيوبي (٤) وذلك في القرنين الثاني عشر والثالث عشر (لوحة رقم ٢١ ــ ٢٢) .

وكان لآراء الماوردي ومن أخذ برأيهم من أئمة المذهب السني ، بالنسبة لولاية الصدقات والزكاة ، أثر كبير على الفن السلجوقي ولكن بطريق غير مباشر . فقد ذكر الماوردي في هذا الموضوع : والزكاة تجب في الأموال المرصدة للنماء ، اما بأنفسها أو بالعمل فيها ظهرة لأهلها ومعونة لأهل السهمان . ثم قسم الزكاة الى صنفين فيقول : والأموال المزكاة ضربان : ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة ما لا يمكن اخفاؤه كالزروع والثمار والمواشي ، والباطنة ما أمكن اخفاؤه من الذهب والفضة وعروض التجارة .

ويفسر الماوردي كيف يتم لولي الأمر التصرف في الأموال

---

(١) Walker: A catalogue of the Arab-Byzantine and Post-reform Umaiyad Coins. P. XXXI.

(٢) محمد باقر الحسيني : العملة الاسلامية في العهد الاتابكي ص ٦٧ ، ٧٣ ، ١٢٥ .

(٣) عبد الرحمن فهمي : فجر السكة العربيسة ص ٤٥ . ويذكر حاستون فيت أن صلاح الدين الايوبي قد ضرب سكة ببلاد الجزيرة وعليها رسم يمثله وهو جالس فوق عرشه .
Hautecocur et Wiet: Mosquée du Caire p.p. 176-177.

(٤) فجر السكة العربية ص ٤٤ .

الباطنة ، أي الذهب والفضة فيقول : وليس لوالي الصدقات نظر في زكاة المال الباطن وأربابه أحق باخراج زكاته منه • أما عن شرط من تجب عليه الزكاة فوضحها بقوله : والشروط المعتبرة في هذه الولاية أن يكون حرا مسلما عادلا عالما بأحكام الزكاة (١) •

والذي يهمنا من أمر الزكاة في هذا المجال ، أي بالنسبة للفن ، هو الأموال الباطنة ، أي الذهب والفضة ، فقد فصل الماوردي مقدار ما يجب أن يدفع عنه وقيمة المدفوع فقال : الذهب والفضة من الأموال الباطنة وزكاتهما ربع العشر ، ونصاب الفضة مائتا درهم بوزن الاسلام (٢) خمسة دراهم ، هو ربع عشرها واذا نقصت عن مائتين لا زكاة فيها • ويقول أبو حنيفة : ولا زكاة فيما زاد على مائتين حتى يبلغ أربعين درهما فيجب فيها درهم سادس ، والورق (٣) والنقار (٤) سواء •

---

(١) الاحكام السلطانية ص ٩٩ .

(٢) الذي وزن كل درهم منه ستة دواني وكل عشرة منها سبعة مثاقيل

(٣)كان العرب في الجاهلية ترد عليهم دراهم الفرس فكانوا لا يتابيعون بها الا على انها تبر (ذهب) البلاذري ص ٢٦٣ ، الاب انستاس ماري الكرملي علم النميات ص ١٠ ،

Havoix. H. cataloque des monnais Musulmanes de la Bibliothèque national, Vol. I, pp. I, II.

كما كانت الدراهم والدنانير لا تقبل في معاملتهم عددا وذلك لتنوع الاوزان فقد يكون الدينار ثابت الوزن والمقدار الا انه قد ينقص وزنه اثناء التداول . ولمنع الغش كانوا يعمدون الى الوزن ويطلقون على نقود الذهب كلمة عين وعلى نقود الفضة كلمة « الورق » (جورجي زيدان التمدن الاسلامي ج٧ ص ٩٧) .

(٤)جاء في مجمع البحرين؛ النقرة او النقار، هي السبكة أي المعدن=

وأما الذهب فنصابه عشرون مثقالا بمثاقيل (١) الاسلام يجب فيه ربع عشره وهو نصف مثقال ، ويستوى فيه خالصه ومطبوعه • واذا اتخذ من الفضة والذهب حليا مباحا سقطت زكاته وذلك في قول الشافعي ومالك ووجبت في قول أبي حنيفة : أما اذا اتخذ منها ما خطر من الحلى والأواني وجبت زكاته في قول الجميع (٢) •

نتبين من الأحكام السابقة بأنه لا زكاة على الفضة المسكوكة اذا قلت عن مائتي درهم كما تسقط الزكاة عن الفضة والذهب المستعملة حليا وتجب على المتخذة أواني • وتهربا من دفع زكاة الذهب والفضة فقد لجأ المسلمون في العصر السلجوقي ، عصر التسامح الديني واستخدام الرخص المتاحة في المذاهب السنية الأربعة دون تعصب أو تزمت ، الى تطور صناعة الحلى من معدني الذهب والفضة ، كما أنهم قسموا ثرواتهم الفضية على جواريهم بحيث لا يزيد ما تحصل عليه الجارية عن مائتي درهم •

= المسبوك والدرهم النقرة من الدينار نصفه وخمسه، وان شئت قلت سبع اعشاره ، فيكون كل سبع مثاقيل عشرة دراهم (الكرملي : النقود العربية وعلم النميات ص ١١٣) وجاء في صبح الاعشى ج٣ ص ٤٤٣ الدرهم النقرة يكون ثلثاها من فضة وثلثاها من نحاس وتطبع بدور الغرب السلطانية والمقصود من عبارة الماوردي (بالورق والنقار) هو ان الفضة تجب عليها الزكاة سواء كانت مصنعة اي مسكوكة او تبر .

(١) كان العرب يتعامل بالدينار وزنا للمبالغ التي لا تزيد عن الاوقية الواحدة ، اما اذا قل عن ذلك يكون بالعدد لا بالوزن ويسمى المثقال من الذهب دينارا (يوسف غنيمة : النقود العباسية ص ١٠٠) .

(٢) الاحكام السلطانية ص ١٠٥ .

فلا شك أن الجواري (١) اللاتي امتلأت بهن قصور العباسيين والسلاجقة كن من العوامل الهامة التي ساعدت على العناية بالحلي والجواهر والاكثار منها ، فقد كن يمثلن طبقة هامة في المجتمع الاسلامي في العصر السلجوقي • وكان ظاهر الأمر بالنسبة للأمير أو صاحب الجواري من الاكثار من اقتناء الحلي ، هو لتجميلهن بالفضة والذهب ، أما ما خفي فهو الهروب من دفع الزكاة لأن الأمة وما تملك ملكا لصاحبها • كما كان صاحب الجواري يوزع عليهم الدراهم بحيث لا تزيد ما تحصل عليه كل واحدة منهن على مائتي درهم في معظم الحالات •

أما عن صناعة الحلي في العصر السلجوقي ، فمن المعروف أن الذهب والفضة قد استخدما في صناعة أنواع شتى من الحلي كالأقراط والأساور والقلائد والخواتم المختلفة • وكان العرب يطلقون على بعض الحلي أسماء تمثل آلات الحرب ومعداته (٢) فمن أنواع الأقراط (الترس) لمشابهته للترس الذي يلبس في الحروب ، وكذلك حلي (الخنجر) على هيئة قبضة الخنجر وحلي (مشرف) الى غير ذلك من الأسماء والأشكال • أما حلي العصر السلجوقي فقد امتازت بأشكالها التي تحوي رسوما على هيئة الحيوانات أو الطيور أو الصور الآدمية (لوحة رقم ٢٣ ـ ٢٤) •

ومن الأساليب الزخرفية التي شاع استعمالها في تزيين الحلي في العصر السلجوقي الميناء ، وهي عبارة عن مادة زجاجية نصف شفافة تتكون من أكاسيد معدنية تذاب في سوائل وأحماض خاصة وتستخدم في زخرفة المعادن كالذهب والفضة والنحاس • فنستطيع

---

(١) حسن ابراهيم حسن : تاريخ الاسلام السياحي جـ٢ ص ٣١٤ ، حضارة الاسلام في دار السلام ص ٩٨ .

(٢) ابن منظور لسان العرب ، احمد ممدوح حمدي: معدات التجميل ص ١١٢ .

مثلا أن نحصل بأكسيد القصدير على الميناء البيضاء وبأكسيد الكوبلت على الميناء الزرقاء وبأكسيد النحاس على الميناء الخضراء • وزخرفة الحلى بالميناء تكون على طريقتين ، ميناء ذات فصوص (Émail eloisonne) وفيها تصب الميناء في حواجز رقيقة ذهبية تلصق على المعدن والثانية طريقة الحفر (Email éhamplevé) وفيها توضع الميناء في تجاويف حفرت خصيصا لها على صفحة الحلية المراد زخرفتها ثم يحرق الحلى في النار فتثبت الميناء •

وبرغم افتاء الفقهاء وأصحاب المذاهب بعدم جواز الزكاة على الذهب والفضة المصنوعة للحلى الا أن خلفاء الدولة وسلاطين السلاجقة حرصوا على الحفاظ على حقوق الناس وأموالهم فأنشأوا دار العيار لمراقبة تجارة الحلى • فقد جاء في كتب الحسبة (١) ما نصه : ألا يبيعوا أواني الذهب والفضة والحلى المصنوعة الا بغير جنسها ليحل فيها التفاصيل ، وان باعها (الصانع) بجنسها حرم فيها التفاصل والنسب والتفرق قبل القبض (٢) •

أما عن التحف المعدنية ، فيورد الماوردي حكم المذاهب فيها فيقول : أما المعادن فمن الأموال الظاهرة وفي قدر المأخوذ من زكاته ثلاثة أقاويل • احداهما ربع العشر كالمقتنى من الذهب والفضة ، والقول الثاني الخمس بالزكاة (٣) ، والقول الثالث ان كثرت مؤونة فضية ربع العشر وان قلت مؤونة فضية الخمس •

---

(١) الشيزري : نهاية الرتبة في مطلب الحسبة الباب .

(٢) المقريزي : خطط ج ص ٤١٤ .

(٣) الركازكل : محال وجد مدفونا من حزب الجاهلية في موات في طريق سايل ، يكون لواجده وعليه دفع خمسه للزكاة (الاحكام السلطانية ص ١٠٦)

يفهم من الأحكام السابقة ان المعادن حكمها في دفع الزكاة حكم الذهب والفضة ، وان صياغتها واستخدام معدني الذهب والفضة في صناعتها مما يقلل من قيمة الزكاة الواجبة على تلك المعادن في حالة عدم صياغتها • والواقع ان صناع المعادن قد استفادوا من هذه الأحكام في العصر السلجوقي فائدة كبيرة ، فقد كان هذا العصر فاتحة نهضة جديدة في صناعة التحف المعدنية تجلت في الأساليب الفنية التطبيقية والموضوعات الزخرفية التي تجلت فيها بوضوح الرسوم الحيوانية والآدمية ، التي لم تكن موجودة من قبل ، هذا بالاضافة الى الزخارف النباتية والهندسية •

وقد أجمع المؤرخون والرحالة على اشتهار مدينة الموصل في العصر السلجوقي بصناعة التحف المعدنية ، اذ يقول ابن سعيد (١) الرحالة المغربي في رحلته الى الجزيرة والعراق والموصل (٦٤٨هـ / ١٢٥٠م) : « ان مدينة الموصل كانت فيها صنايع جمة لا سيما أواني النحاس المطعم التي كان يحمل منها الى الملوك » (٢) •ويقول ابن كثير (٣) في حوادث (٦٥٦هـ/١٢٥٨م) « ان بدر الدين لؤلؤ يبعث في كل سنة الى مشهد الامام علي بالنجف قنديلا ذهبا زنته ألف دينار » •

---

(١)
Muhamad Rashid at feel: Iraq and Al-Jazira as described by Ibn Said al-Maghribi. P. 4 (Baghdad 1962).
لقد كان ابو الفداء يمتلك هذه المخطوطة ، وهي موجودة الان في المكتبة الاهلية بباريس •

(٢) Barrett : Islamic Metalwork in the British Museum p. 14
Rice : Inlaid brasses from the workshop of Ahmed al Dhaki al-Mausili p. 284 (Art Orientalis II 1957).

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١٣ ص ٢١٤ •

ولعل من أهم العوامل التي ساعدت على قيام هذه الصناعة في كل من العراق وسوريا هو مناجم النحاس (١) الغنية الموجودة في منطقة الخابور وأرغانه (٢) ، أضف الى ذلك تشجيع رجال الدولة لهذه الصناعة والقائمين عليها وذلك باقتنائهم الكثير مما يصنع منها (٣) . وكانت التحف المعدنية في العصر السلجوقي تحتل مركز الصدارة في العمائر الدينية (٤) والمدنية على حد سواء ، فهناك قناديل وتنانير وشماعد المساجد والمدارس وأبوابها المصفحة بالبرنز المكفت بالذهب والفضة . وفي القصور المناضد والموائد والثريات والأطباق والأباريق والكؤوس والطسوت والدكك وما اليها (٥) .

ومن أقدم التحف المعدنية المؤرخة (٦١٧هـ / ١٢٢٠م) وعليها امضاء صانعها ، نقش اسماعيل بن ورد الموصلي (٦) ، كما عثر على مجموعة من التحف المعدنية الجميلة ، على أن أحمد الذكي النقاش (٧) الموصلي ، لعل أهمها الابريق الذي يحمل تاريخ صنعه (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) واسم صانعه (عمل أحمد الذكي النقاش الموصلي سنة عشرين وستمائة والعز لصاحبه) .

---

(١) ابن الاثير : الكامل حـ ١٠ ص ٢١٥ .

(٢) ابن كثير : البداية والنهاية حـ ١٢ ص ١٩١ .

(٣) ابن العبري : تاريخ مختصر الدول ص ٢١٦ .

(٤) Dimand : Muhamdan Art p. 151.

(٥) Rice : Studies in Islamic Metalwork, Vol. II p. 63

(٦) Wiet : Objets en cuivre. p. 170.

(٧) Rice : Inlaid brasses from al-Dhaki al Mausili

هذا! وقد أورد لنا (Mayer) (١) قائمة كبيرة من أسماء الصناع العراقيين الذين نقشوا أسماؤهم على التحف المعدنية التي ترجع الى العصر السلجوقي ٠

أما عن طريقة الصناعة التي استخدمت في العصر السلجوقي والتي تؤيد ما سبق ذكره من آن المسلمين استفادوا مما أورده الماوردى من أن الزكاة لا تجوز على المعادن المصنعة والتي يدخل فيها الذهب والفضة ، هي طريقة التكفيت (٢) ٠ والتكفيت أسلوب في زخرفة المعادن قوامه حفر رسوم على سطح المعدن ثم تملأ تلك الزخارف المحفورة بمادة أخرى أغلى منها كالذهب والفضة ومختلفة في اللون كالنحاس الأحمر والأصفر ٠

ومما يدل على أن فقهاء الدين والقضاة لم يجدوا حرجا في استخدام الأواني المعدنية المكفتة ، القصة التي ساقها سبط ابن الجوزي (٣) قال : لقد حكى لي المجد في حران ٦١٣هـ قال : رأيت بين يدي القاضي علاء الدين الكردي ، قاضي قضاة الأشرف دواة كانت لي أخذت مني في المصادرة ، وهي مكفتة بالذهب والفضة ، فقلت أنت قاضي المسلمين وتدعي الورع ، كيف تستحل أن تكتب في دواة غصب وهي « مكفتة بالذهب » ،

---

(١) Mayer : L.A. : Islamic Metalworkers and their works (Geneva 1959)

(٢) Herbert Maryon. A History of Technology Vol. II p. 452 (London 1954).

(٣) سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان في تاريخ الاعيان حـ ٨ ص ٦٧١ (طبعة الهند ١٣٧٠) ٠

أنظر (لوحة رقم ٢٥ ، ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٨ ، ٢٩ ، ٣٠) ٠

وبعد فهذا قليل من كثير من أثر الماوردي على المجتمع وفنونه في العصر السلجوقي ممثلة ومسجلة على الآثار التي ما يزال الكثير منها باقيا حتى الآن في ميدان العمارة من المدارس والخواني ٠ أما في الفنون الزخرفية فهي كثيرة ، ولذا فقد اكتفينا بتسجيل المواد الواضحة كتصوير المخطوطات وسك العملة ثم الحلى والأواني المعدنية ٠



الوثائق البريطانية واهميتها في كشف المصالح البريطانية في جزيرة العرب بعد الحرب العالمية الأولى

(١٩١٨ — ١٩٢٦)

الدكتور مصطفى عبد القادر النجار
مدير مركز دراسات الخليج العربي
جامعة البصرة

قسمت الدبلوماسية البريطانية جزيرة العرب قبيل الحرب العالمية الأولى الى قسمين سياسيين رئيسيين (١) :

الأول : ويشمل الأجزاء الشمالية والغربية وهي ضمن مناطق النفوذ العثمانية ·

الثاني : ويشمل الأجزاء المتبقية التي يحكمها الشيوخ العرب المحليين (٢) ·

---

(١) للوقوف على تفاصيل وافية عن المصالح البريطانية قبل الحرب العالمية الاولى · راجع مجموعة الوثائق التي جمعها :Dr. Robin Bidwell

The Affairs of Arabia «1905 — 1906» 2 Vols. «Foreign Office Confidential Print». (London — 1971).

أما تفاصيل المصالح البرياطنية بعد الحرب فقد اعتمدنا بشكل أساسي على وثائق :

F.O. 371/11495, 9037, pp. 165-177 — Colonial Office, 26th Nov. 1926.

(٢) وقد أعطتهم بريطانيا مفهوم (الاستقلال) ·

وتحددت المصالح البريطانية في القسم الثاني من جزيـرة العرب بمنطقتين متميزتين :

الأولى : عدن والأراضي المحيطة بها .

الثانية : الشريط الساحلي للخليج العربي وخليج عمان .

وتأتي أهمية عدن (المحمية) (٣) من أنها محطة زيت هامة وقاعدة بحرية على طريق الهند والشرق الأقصى .

وعليه فقد وضع الساسة البريطانيون خططا كاملة ومفصلة للحفاظ عليها ضمن الدائرة البريطانية بشكل لا يقبل النقاش .

واذا كان هناك خلاف في وجهات النظر فقد برز حول الأراضي المحيطة بها : هل ان بريطانيا تدخل جميع المناطـق القبليـة المحيطة بعدن ضمن دائرة نفوذها . أم أن المصالح البريطانية تقضي الحفاظ على جزء منها .

وكان الرأي الثاني هو الراجح ، وبحدود حماية عدن من أي هجوم محتمل .

أما وجهة النظر الأولى فقد تلاشت واكتفى بالمعاهدات التي تربط قبائل المنطقة (٤) ببريطانيا والتي يعود أقدمها الى سنة ١٨٣٩ .

أما بالنسبة للمنطقة الأخرى ـ الشريط الساحلي للخليـج العربي وخليج عمان ـ فقد عدتها بريطانيا من المناطق الرئيسية

---

(٣) حددتها بريطانيا بشريط ساحلي طوله (١٣٠) ميلا وبعمق (٥٠) ميلا ، واعتبرت عمقها في القسم الشرقي أكبر منه في القسم الغربي . ومن الجدير بالذكر أن عدن خضعت للاحتلال البريطاني عام ١٨٣٩ .

(٤) الممتدة من حضرموت حتى مسقط شرقا . وكان قد سبق تحديدها من جهة الشمال عام ١٩٠٥ مع العثمانيين .

التي تديرها حكومة الهند بشكل مباشر • وأصبح الحفاظ عليها من أهم مباديء تلك الحكومة (٥) •

وعليه فقد ربطت الامارات على طول ساحل الخليج العربي بسلسلة من معاهدات الحماية •

أما مسقط الواقعة على خليج عمان فقد حدد علاقتها مع بريطانيا تصريح عام ١٨٦٢ الذي تعهدت فيه بريطانيا وفرنسا بوجوب احترام استقلال السلطان المحلي •

ولم تشأ بريطانيا أن تزحف الى داخل جزيرة العرب قبل الحرب وتنشيء فيها علاقات مباشرة ولكنها كانت تراقب الملك عبد العزيز الذي أخذ نجمه يتألق • وقد تابعت توسعاته ـ لا سيما تلك التي من جهة الشرق ـ حيث تفاهمت معه •

وقد أعطت الحرب العالمية الأولى اتجاها « جديدا » للسياسة البريطانية في المنطقة العربية بشكل عام • وجاء قيامها لصالح بريطانيا في جزيرة العرب بشكل خاص •

فقد سارعت بريطانيا للدخول في عدة اتفاقات ومحالفات مع الرؤساء العرب في الجزيرة العربية للتعجيل بهزيمة العثمانيين •

وباشارة من بريطانيا قام شريف مكة ـ فيما بعد الملك

---

(٥)
Lord Lansdowne's Declaration of 1903 (re-affirmed by Sir Edward Grey in 1907).

حيث صرحا ما يلي :

«We should regard the establishment of a naval base or of a fortified Port on the Persian Gulf by any other Power as a very grave menace to British interests and that we should certainly resist it with all the means at our disposal».

حسين ـ بالخروج على العثمانيين عام ١٩١٦ • وأعلن قيام مملكة مستقلة في الحجاز (٦) •

وكانت حكومة الهند ـ قبل ذلك ـ قد طرحت فكرة قيام الملك عبد العزيز بالثورة العربية بوساطة صديقه الكابتن شكسبير (٧) • ولكن مقتل شكسبير في معركة جراب غير الخطة • فحل الملك حسين بدلا من الأول ولورنس بدلا من الثاني •

وقد اكتفى بالتوصل الى اتفاقات مع الملك عبد العزيز حيث تم عقد معاهدة دارين عام ١٩١٥ (٨) • كما قدمت معونات جسيمة له •

وحصل الشيء نفسه مع الادريسي أمير عسير (٩) •

وتكشف الوثائق البريطانية الى أن تلك الاجراءات قد اقتضتها ظروف الحرب وأملتها الضرورة القصوى لمواجهة العثمانيين • وهو أمر لا بد منه لتحقيق النصر البريطاني سواء كان ذلك سليما أم غير سليم • وتعد التعقيدات التي نجمت عنها فيما بعد ثمنا لذلك النصر •

وبعد انتهاء الحرب العالمية الأولى لعبت بريطانيا دورا بارزا في رسم خارطة سياسية جديدة لجزيرة العرب • وذلك بعد أن

---

(٦) من الجدير بالذكر ان الشريف تعاون مع بريطانيا وفقا لمعاهدة تم عقدها في كانون الثاني ١٩١٦ . F. O. 371/2486.

(٧) تعارفا عندما كان شكسبير مقيما سياسيا في الكويت .

(٨) F.O. 371/11445, No. 9037. p. 172.

لقد تم عقدها في ٢٦ كانون الاول سنة ١٩١٥ وظلت سارية المفعول حتى ١٩٢٧ . هذا اضافة الى عقد بروتوكولات العقير سنة ١٩٢٢ .

(٩) تم عقد معاهدة معه في (٣٠) نيسان سنة ١٩١٥ . ومن الجدير بالذكر انه سبق أن تحالف مع ايطاليا سنة ١٩١٢ .

قام خبراء متخصصون (١٠) باجراء دراسات مركزة وشاملة ودقيقة أعطوا فيها آراء محددة حول جميع الأوضاع في جزيرة العرب • وطرحت بعدئذ أمام الحكومة البريطانية بغية تنفيذ ما يناسبها •

ومن تتبعنا لتلك الدراسات التفصيلية يمكن أن نعطي صورة عن أهم الجوانب الأساسية التي وردت فيها •

فحول العلاقات بين بريطانيا والملك عبد العزيز استقر الرأي باسناد سلطته التي امتدت الى الاحساء ـ حيث أنهى حكم العثمانيين ـ عام ١٩١٣ • والي حائل ـ حيث أنهى حكم ابن رشيد ـ عام ١٩١٧ • والى الحجاز ـ حيث أنهى حكم الهاشميين ـ عام ١٩٢٤ • وبلغت مملكته أبواب شرق الاردن والعراق • وأصبح أقوى شخصية في الجزيرة العربية (١١) •

ومن أجل الحفاظ على استقرار المنطقة فقد سارعت بريطانيا الى عقد اتفاقيات الحدود بين الملك عبد العزيز وبين الهاشميين في كل من شرق الأردن والعراق لتلافي الأزمات المحتملة وعدم اعطاء أية فرصة لتصاعد الخلافات بين العائلتين مما سيؤثر حتما على استقرار المنطقة وبالتالي على المصالح البريطانية فيها •

---

(١٠) أمثال برسي كوكس وفلبي وغيرهما . راجع عن الاول :
Philip Graves, The life of Sir Percy Cox. (London - 1951).
وراجع عن الثاني :
Elizabeth Monroe, Philby of Arabia, (London - 1973).

(١١) في عام ١٩٢١ اطلق على الملك عبد العزيز لقب (سلطان نجد). وفي عام ١٩٢٧ اصبح لقبه (ملك الحجاز ونجد وملحقاتها) . راجع عن تفاصيل ذلك :
Kenneth Williams, Ibn Sa'ud, The Puritan King of Arabia (London - 1933).

وباستطاعة الباحث الاستنتاج أن تلك الاتفاقيات لم تكن متفقة مع مصلحة أي من الطرفين بقدر اتفاقها مع أكبر قدر من المصالح البريطانية في المنطقة .

ومن هنا قررت بريطانيا وجوب اسناد فكرة ضم العقبة ومعان الى شرق الأردن . وكانت تلك المدينتين مثار خلاف بين كل من أمير شرق الأردن وملك الحجاز .

ولما ضم الملك عبد العزيز الحجاز الى مملكته انتقل الخلاف هذا اليه بوصفه وريثا لتلك المناطق التي كان يطالب بها الملك حسين (١٢) .

وهنا تصدت بريطانيا للأمر . وتشير التقارير السرية البريطانية الى أن بريطانيا أعطت تعليمات الى مفوضها للضغط على الجانب السعودي من أجل جعل الحدود لصالح الجانب الأردني (١٣) .

كما أنها وجهت تحذيراتها الى الملك عبد العزيز ليكف عن مطالبته بالمدينتين ، فاستجاب مكرها . واتخذت من جانبها الخطوات اللازمة لضمها لشرق الأردن . وذلك ضمن معاهدة جديدة تعقد بينها وبين الملك عبد العزيز .

وقد بررت بريطانيا اجراءاتها تلك ، بأن العقبة مهمة لشرق الأردن بوصفها المنفذ الوحيد له للعالم الخارجي . كما أن ضمها يسهل مهمة اتصال البحرية البريطانية بشرق الأردن .

أما معان فأهمية ضمها لا تقل عن أهمية ضم العقبة ، ذلك

---

(١٢) H. St. J.B. Philby, Arabia, p. 298 - 314 (London - 1970).

(١٣) F.O. 371/11445, No. 9037.

أن موقعها على سكة حديد الحجاز يكسبها أهمية خاصة للمصالح البريطانية ٠

وبالنسبة للحدود العراقية ـ السعودية ٠ فقد وافق الملك عبد العزيز على مشروع بريطاني لعقد معاهدة جديدة تنظم العلاقات بينه وبين الملك فيصل الأول ٠ والذي يتضمن أيضا وجوب اعترافه بمركز بريطانيا الخاص في العراق وعدم المساس به أو احداث اضطرابات أو اعتداءات عليه (١٤) ٠

وقد حصل الشيء نفسه بالنسبة لامارات الخليج العربي الأخرى حيث تعين على الملك عبد العزيز وجوب المحافظة على الوضع الراهن (Stat us quo) الذي وجدته بريطانيا يتفق ومصالحها ٠ وحذرته من عدم النفاذ لتلك المناطق بأي شكل من الأشكال ، وعدم الاشتباك مع شيوخ وأمراء الساحل ٠

كما طلبت بريطانيا من الملك عبد العزيز عدم اتخاذ أي موقف معاد مع رعايا الأمبراطورية البريطانية من المسلمين الذين يؤمون مملكته بقصد أداء فريضة الحج ٠

وبعد أن اطمأنت بريطانيا على الأوضاع السياسية في الجزيرة العربية وفرغت من التنسيق بينها وبين الحكام العرب فيها كل على حدة ٠ التفتت الى العلاقات المخلية التي تربط بين الحكام أنفسهم ٠ فوجدت أن مصلحتها تقتضي عدم حل الخلافات القائمة بينهم ٠ وأن يتركوا وشأنهم طالما أن تلك الخلافات لا تؤثر على سير المصالح البريطانية لا بل تزيدها ضمانا (١٥) ٠

أما بالنسبة لليمن ، فقد اعتبر امام اليمن يحيى (١٩٠٤ ـ ١٩٤٨) نفسه وريثا للعثمانيين في منطقته ٠ وصار

---

(١٤) F.O. 371/8936 — 9240, Najd & Iraq Boundary.

(١٥) F.O. 371/11445, No. 9037. p. 170.

يخطط لضم كل من عدن وعسير لمملكته من أجل اقامة (دولة اليمن الكبرى) (١٦) .

ولما كان مخططه هذا يستوجب موافقة بريطانيا أو الدخول معها في مجابهة مباشرة فان الامام فضل الموقف الأول ، وأظهر رغبة متزايدة في عقد اتفاقية يمنية ـ بريطانية توصله الى تحقيق أهدافه .

لكن بريطانيا طرحت نوايا الامام على بساط البحث لاجراء دراسات تفصيلية عن شخصيته أولا ، واستراتيجية المنطقة ، وأهميتها بالنسبة للمصالح البريطانية ثانيا ، وتحليل الأوضاع في كل من عسير وعدن ومستقبلهما ثالثا .

وتكشف لنا التقارير البريطانية أن نتائج تلك الدراسات أقرت بأن الملك يحيى امام اليمن هو الرجل الثاني في جزيرة العرب بعد الملك عبد العزيز ، وله نفوذ قيادي وسياسي وديني في نطاق دائرته . ومن الصعب جدا أن يظهر أي لين للتنازل عن مطالبه في عسير (١٧) وعدن (١٨) .

---

(١٦)
Jacob, H. Kings of Arabia. Mills & Boon, P. 288 — 230 (London - 1923).

ومن الجدير بالذكر ان الامام دخل في اتفاق مع العثمانيين سنة ١٩١١ واستمر كذلك طوال فترة الحرب حتى اذا ما شارفت على نهايتها سلم له الاتراك صنعاء مع الذخائر والمعدات التي كانت تحت أيديهم بوصفه الوارث الطبيعي لهم .

(١٧) يصف فلبي في كتابه : Arabian Highlands (Oxford - 1952), The Middle East Institute ثروة عسير الزراعية ومنتجاتها الغذائية الوافرة ويجعلها من الاسباب الرئيسية لمهاجمة الامام يحيى للامارة . حيث كان الامام ينوي القضاء على الامارة الادريسية واسترداد أملاكه منها .

(١٨) بعد الحرب العالمية الاولى اعتبر الامام ان احتلال بريطانيا لعدن



أما بالنسبة لاستراتيجية المنطقة وأهميتها للمصالح البريطانية فان الوثائق البريطانية توضح لنا أن عسير تحتل موقعا متميزا لدى بريطانيا • ذلك أنها تضم قاعدتين استراتيجيتين بحريتين بريطانيتين في البحر الأحمر : الأولى في خليج قمران • والثانية في جزر فارسان (Farsan) •

وعليه فان مستقبلها يهم بريطانيا أكثر من غيرها • ولذا فانها نالت من لدن الساسة الانكليز دراسة خاصة ، فتوصلوا الى أن حاكمها الادريسي (١٩) رجل وافد الى الجزيرة العربية ولا تربطه بها جذور عريقة • وان الطبيعة الجغرافية لمقاطعته لا تساعده على صد أي هجوم عليه • على الرغم من أن ولاء القبائل في عسير ـ المسلحة بكميات كبيرة من الاسلحة يقف حائلا ضد فكرة الهجوم •

وتستنتج الوثائق البريطانية الى أن الادريسي لا يقوى على مجابهة امام اليمن في حالة تأزم العلاقات بينهما •

ولما كانت اليمن قد فتحت بابها على مصراعيه للنشاط الايطالي السياسي والتجاري ، وقد أقام الامام علاقات تجارية وثيقة مع ايطاليا المتواجدة في أريتريا • فان ذلك النشاط سينتقل حتما الى عسير التي يخطط الامام لضمها اليه • ومعنى

جاء اغتصابا وان أسلافه كانوا يحكمونها قبل القرن التاسع عشر . وان مطالبته بها تأتي وفقا لخطة أعدها لاسترجاع اجزاء بلاده المغتصبة . راجع:
Jacob, Kings of Arabia, p. 242.

(١٩) توفى السيد محمد الادريسي في ٢٠ مارس ١٩٢٣ . وحل محله ابنه علي . وكان الادريسي الاب قد ضم الحديدة له منذ بداية عام ١٩٢١ . راجـع :
Survey of International Affairs; Royal Institute of International Affairs, year 1925, Vol. I. P. 323.

ذلك أن القاعدتين البريطانيتين ستكونان تحت رحمة القوات الايطالية • وهنا لا بد من معالجة الأمر معالجة جادة •

ولما كانت بريطانيا لا ترغب في مجابهة مباشرة مع ايطاليا من أجل هاتين القاعدتين فانها فضلت أن تعلن تصريحا دوليا بتحذير أي دولة بحرية من التسلل الى هاتين القاعدتين على غرار تصريح لانسدون (Lord Lansdowne) عام ١٩٠٣ ، بخصوص الخليج العربي (٢٠) ، حيث وجدت أن ذلك أفضل علاج لابعاد الايطاليين عن قاعدتيها في البحر الأحمر •

ومن جهة أخرى حذر رجال الاقتصاد الانكليز بوجوب عدم اندفاع المؤسسات التجارية الانكليزية للحصول على امتيازات في اليمن أو عسير • ذلك ان موارد هذين الاقليمين محدودة لا تستحق المجازفة من أجل جعلهما سوقا للبضائع الانكليزية •

ويترك لنا جاكوب (٢١) الذي كان يشغل منصب المعاون الأول لحكومة عدن تحليلا لوجهة نظر المصالح البريطانية في اليمن حيث يقول : (أن مصالح بريطانيا في هذا الاقليم يمكن أن تركز في تدعيم مركزنا في عدن ، وترك الداخل يتطور في خط عربي • وان بريطانيا يمكنها أن تنجح في بسط نفوذها بوساطة انجاح تجارتها في المنطقة • فهي لم تستطع استغلال كل

---

(٢٠) راجع نصه في :

F.O. 371/10138 - 9155 - Memorandum by Mr. Mullet : «We should regard the establishment of a navel base, or fortified port, in the Persian Gulf by any other power as a very grave menace to British interests, and we should certainly resist it with all the means at our disposal».

(٢١) رأس اول بعثة بريطانية الى اليمن عام ١٩١٩ ولكن البعثة باءت بالفشل . وقد وضع كتابا وصف فيه رحلته وتضمنت اهم ارائه .

طاقتها التجارية بعد فيها) (٢٢) • ثم يقول : (ان سياستنا يجب أن تكون الربح دون الاستيلاء ، العمل دون الوجود الفعلي، التطوير دون السيطرة ، فوقت التدخل قد مضى ، وسياسة فرق تسد أصبحت لا قيمة لها ، وأن الاحتفاظ بالحكام العرب الذين يأخذون المرتبات ليقفوا بوجه حاكم عربي ناهض معناه أن ندفع المسلم ضد المسلم • فعدن فقط هي أرض بريطانية ومعزولة في ركن واحد • وعليه ان تجزئة الأقسام الداخلية لا يهمنا كثيرا) (٢٣) •

وجاكوب هنا ـ شأنه شأن جميع رجالات بريطانيا ـ يعبر عن وجهة نظر مصالح بلاده واخلاصه لها • وهو في تحليله هذا ينظر الى الصورة نظرة ينقصها الانصاف والصدق • ولم يلتفت بأي شكل من الأشكال الى مصالح أهل البلاد •

أما بالنسبة للامارة الادريسية فقد اتخذت بريطانيا قرارا (بأن زوال حكم الادريسي أمر لا مفر منه • ويجب أن يبدأ التفكير في مستقبل امارته) •

وقد تمخض عن ذلك عقد اتفاقية ثنائية بين الملك عبد العزيز وحسن الادريسي في تشرين الأول سنة ١٩٢٦ أصبحت فيها الامارة الادريسية تحت الحماية السعودية • وبذلك أصبح الملك عبد العزيز وجها لوجه أمام الملك يحيى • وبهذا دخلت العلاقات السعودية ـ اليمنية مرحلة جديدة (٢٤) •

---

(٢٢) Jacob, Kings of Arabia, p. 245 (London - 1923).

(٢٣) Jacob, Kings of Arabia, p. 245 (London - 1923).

(٢٤) راجع نص الاتفاقية في :

Survey of International Affairs, 1928, p. 319.

وقد جاء ذلك القرار ضمن خطة شاملة للتسوية وضعتها وزارة المستعمرات Colonial Office لحل مشاكل الحدود في جزيرة العرب بشكل عام (٢٥) ٠

أما فيما يخص مشاكل الحدود بين امام اليمن ومحمية عدن (٢٦) ، فقد وجهت الضغوط على الامام لحمله على الانسحاب من الأراضي المحيطة بعدن ٠ وهددته بريطانيا برفض المعاهدة التي يرغب بعقدها معهم ٠

وقد بذل السير جلبرت كلايتون Sir Gilbert Clayton الذي وصل الى صنعاء في ربيع ١٩٢٦ ــ على رأس بعثة سياسية ــ جهودا مكثفة من أجل اقناع الامام للاستجابة لطلب بريطانيا ، ولكن جميع مساعيه باءت بالفشل ٠

وعليه طرحت عدة حلول للمسألة منها : التدخل العسكري ، ولكن الخبراء العسكريون البريطانيون لم ينصحوا الأخذ به لأن تكاليفه لا توازي الفائدة التي تجنيها بريطانيا من ذلك ٠

كما نصحت لجنتا أركان الحرب والدفاع الأمبراطوري باتباع طريق وسط يتضمن تقوية السلاح الجوي البريطاني في عدن وبالتالي استخدامه في تهديد الامام ، حيث سيؤدي ذلك الى تعقله في اتخاذ المواقف التي تهدد المصالح البريطانية في عدن ٠

---

(٢٥)
Memorandum from Colonial Office, Dated 26 Nov. 1926.

(٢٦) كانت الحدود تتذبذب بين النفوذ البريطاني والنفوذ العثماني في اليمن منذ سنة ١٨٧٣ حتى بداية سنة ١٩٠٢ . ولكنها حددت بين عامي ١٩٠٢ ــ ١٩٠٤ بوساطة لجنة مختلطة بريطانية ــ عثمانية . وفي اتفاقية عام ١٩١٣ العثمانية البريطانية توصل الطرفان الى تسوية شاملة للحدود . ولكن الامام رفضها بعد الحرب العالمية الاولى .

أما السير جلبرت كلايتون فكان من رأيه وجوب اعادة النظر في العلاقات بين بريطانيا والقبائل العربية على وجه العموم في عدن ٠ والعمل على تعديل معاهدات الحماية لتناسب روح العصر والابتعاد عن أي موقف متطرف مع الامام ٠ وقد أخذت الحكومة البريطانية برأي كلايتون هذا ووجدت منه حلا معقولا يخدم مصالحها بشكل أكبر ٠



ظاهرة الاستعمار الاستيطاني في افريقيا والشرق الاوسط

البروفسور ريتشارد ستيفنز
استاذ العلوم السياسية/جامعة لنكولن/بنسلفانيا

ان استقلال أنغولا في نوفمبر من عام ١٩٧٥ ، وما سبقه من الانحلال الاجتماعي في تلك البلاد التي كانت مهددة مؤقتا بأن تصبح دولة استيطانية على غرار « روديسيا » ، استقلال له مغاز عميقة بالنسبة لظواهر الاستيطان التي ما زالت قائمة في افريقيا والشرق الأوسط ٠

فأنغولا بلد غني بالبترول والحديد الخام والماس والمنتجات الزراعية ، وتحقيق الاستقرار الداخلي فيهـا سوف لا يؤثر فحسب في الأحداث الدائرة في « ناميبيا » الواقعة تحت سيطرة جنوب افريقيا ، بل سيمكنها أيضا ، اذا انضمت اليها تجمعات دول منتجة مثل الأوبك ، من أن تلعب دورا فعالا في الصراع المتزايد مع العالم الصناعي الغربي ٠

فقبل خمسة عشر عاما خلت ، انطلقت المقاومة المسلحـة لأول مرة ضد البرتغاليين في أنغولا ، وقام الثوار برفض جهود البرتغال الرامية الى انتزاع النخبة الأنغولية من بين الجماهير

بتطبيق سياسة تهدف الى استيعابها ضمن النخبة البرتغالية ·
كما تحدى الثوار أيضا رفض البرتغال فكرة السيادة الأنغولية
أو استقلالها المحتمل ·

وفي عام ١٩٧٥ ، حاولت البرتغال أن تغطي الطبيعة الاستعمارية لامبراطوريتها التي دامت خمسة قرون · فأعلنت أن كل ممتلكاتها ستصبح « مقاطعات وراء البحار » مرتبطة ربطا أبديا بالبرتغال · ولكن لم تخب الآمال التي كانت تهدف اليها هذه المحاولة فحسب ، بل أن هذه البادرة أدت في النهاية الى سقوط النظام الحاكم في البرتغال آنذاك ، وذلك فان هذه المهاترة الدستورية القانونية قد مكنت حلفاء البرتغال في حلف الأطلسي من أن يؤيدوا ، بضمائر مرتاحة ، طلب البرتغال عام ١٩٥٥ الانضواء تحت لواء الأمم المتحدة · وكان من جراء ذلك أن استمرت الولايات المتحدة وحلفاؤها ، لا سيما فرنسا التي أعطت نفسها حقا مشابها في شمال الجزائر ، في الاعتراف بمطالبة البرتغال للسنوات السبع التالية باعتبار هذه المقاطعات جزءا لا يتجزأ من البرتغال وبالتالي بأنها لا تخضع لمجال اشراف الأمم المتحدة ·

وفي هذه الأثناء وبسبب الأحداث في أنغولا ، فان الحركات الثورية التي برزت في غينيا بيساو وموزامبيق رفضت أن ينطلي عليها وجه البرتغال الاستعماري · فانطلق بذلك الصراع الذي أرهق البرتغال وأوصلها الى حافة الهاوية الى أن انتهى الأمر أخيرا في ٢٥ ابريل ١٩٧٤ الى الاطاحة بمارسلو كاتيانو ـ خليفة سالازار · وبعد ثلاثة شهور من ذلك ، لم تنجح عملية التأخير التي حاولها الجنرال سبينولا · وفي سبتمبر من ذلك العام تم رسميا الاعتراف باستقلال غينيا بيساو الذي كان قد أعلن عنه من قبل · وفي يونيو ١٩٧٥ تم استقلال موزامبيق ، وجزر

الرأس الأخضر وساوتومي وبرنسيبي في يوليو عام ١٩٧٥ ، ولم يبق الا أنغولا لتحقيق استقلالها ٠

واذا نظرنا الى الوراء ، فان الأحداث التي دارت في البلدان الافريقية التي كانت خاضعة للبرتغال ، قد دحضت الزعم الأمريكي والغربي بأن حرب العصابات ليس بمقدورها تحقيق الاستقلال السياسي ٠ وليس أدل على ذلك من اعتراف القادة العسكريين البرتغاليين أنفسهم ، ومنهم الجنرال سبينولا ، الذين كانوا يشرفون على العمليات العسكرية المضادة للثوار في غينيا بيساو ، بأن الثوار قد انتصروا لسبب بسيط ووجيه وهم أنهم لم ينهزموا ٠ وقد كان هذا الزعم هو الذي دفع الولايات المتحدة لمساندة النظام البرتغالي بشكل مباشر أو غير مباشر في عملياته العسكرية في أنغولا ٠ وفي مقابل هذه المساندة ، حصلت الولايات المتحدة من البرتغال على تسهيلات لاستعمال قواعدها في جزر الآزور ٠ فقبل ستة أشهر من سقوط نظام كاتيو ، كانت هذه التسهيلات الممنوحة لأمريكا هي التي مكنت اسرائيل من الحصول على تموينها من الأسلحة بسرعة في وقت محنتها أثناء حرب أكتوبر ١٩٧٣ ٠ واذا ما تذكرنا أن كل حلفاء أمريكا الغربيين الذين لم تعد لديهم مراكز القوى التي كانوا يتمتعون بها سابقا أو الذين أدركوا الواقع الجديد قد أدهشوا الولايات المتحدة برفضهم منحها مثل هذه التسهيلات ، لأدركنا أن موافقة البرتغال على ذلك تكشف مدى اعتمادها على أمريكا وتابعيتها لها ٠ ولكن مثل هذا الاعتماد ، اضافة الى اعتماد ممتلكاتها الافريقية ، لم يكن يتمشى مع طبيعة عقد السبعينات ٠

فمن الناحية التقليدية ، لم ترغب البرتغال في أي وقت من الأوقات بانشاء دولة استيطانية ، كما أن التطور في هذا الاتجاه

لم يكن ليتمشى مع فلسفتها الاستعمارية • ومع أن نفس هذا الرأي ينطبق على معظم القوى الأوروبية التي مضت في هـذا الاتجاه ، الا أن البرتغاليين بدوا أكثر تصميما على منع الاستيطان وعلى الحفاظ على النمط الاستعماري الذي كان سائدا في القرن الثامن عشر •

وقد كان قصد البرتغال في منعها قيام دولة استيطانية في مستعمراتها هو معالجة العجز الدائم في ميزان مدفوعاتها عن طريق الفائض التجاري مع ممتلكاتها الافريقية • ومع أن المستوطنين البرتغاليين كانوا يقدمون الى المستعمرات ، الا أن أعدادهم كانت قليلة ، وكانت أنغولا تقتطع أكبر عدد منهم فلم يبلغ عددهم في النهاية غير نصف مليون برتغالي • وعلاوة على ذلك ، كانت البرتغال طبقا لفلسفتها السلطوية ، تتخذ الاجراءات الكفيلة بمنع قيام قاعدة استيطانية سياسية قد يصل بها الأمر الى تحدي الحاضرة البرتغالية • ولهذا ، وفي عام ١٩٧٤ ، وبالرغم من اقتراب الحكومة من الانهيار التام ، فان محاولات المستوطنين المتردة في أنغولا وموزامبيق الاعلان عن استقلالهم عن الحاضرة البرتغالية قد تبخرت بسرعة •

ولم يجد برتغاليو المستوطنات الجرأة الكافية التي يتطلبها اعلان الاستقلال ، لأن في ذلك خروج عن الدور الخانع الذي لعبوه بصفتهم مستفيدين من الاجراءات البرتغالية الاقتصادية والسياسية في المستعمرات •

ان تصميم البرتغاليين على الحفاظ على « مقاطعاتهم فيما وراء البحار » بأي ثمن ، لا يمكن بأي حال من الأحوال أن نعزوه الى الفوائد المادية المقترنة ببيع العمالة الافريقية الرخيصة الى جنوب افريقيا والتي كانت البرتغال تتقاضى عائدها بالذهب ،

ولا الى العوائد المتوفرة عن المنتجات الزراعية الأولية والمعادن ٠ ولا الى بيع خدمات النقل والمواصلات الى الدول المجاورة ٠ فالبرتغال لم تكن مثل القوى الأوروبية الأخرى التي سمحت لمستعمراتها وتوابعها أن تتمتع بالسلطة الرسمية دون اعاقة المصالح الاقتصادية التقليدية ، لأن البرتغال نفسها كانت فقيرة ومتخلفة ومعتمدة اقتصاديا على الآخرين ٠ ولذا فانها كانت تخشى أن يحل الآخرون محلها في مستعمراتها كمستفيدين رئيسيين مما يمكن أن نطلق عليه العلاقة الاستعمارية الجديدة ٠ والحقيقة ، ان عضوية البرتغال في حلف شمال الأطلسي ودعم أمريكا العسكري لها تطلب منذ الستينات دخول رأس مال أجنبي غير برتغالي في المناطق التي كانت تعتبر مناطق خالصة للبرتغاليين ، وخير مثال على ذلك هو وجود شركة غلف أويل في الممتلكات البرتغالية الافريقية ٠

ان انهيار الامبراطورية البرتغالية ، أقدم أثر أوروبي في افريقيا منذ « عصر الاستكشافات » ، ورائدة حاملي « العبء الملقى على عاتق الرجل الأبيض » ، والسباقة في حمل رسالة أوروبا التمدنية ، ذلك الدور الأوروبي الذي تم تحقيقه على حساب ما بين ثلاثين الى خمسين مليونا من الافريقيين الذين بيعوا عبيدا ، هذا الانهيار لم يكن فجائيا بل جاء في أعقاب انهيارين آخرين لمجتمعين استيطانيين أوروبيين غير مكتملين في كل من كينيا والجزائر ٠

ومن تجربة كينيا والجزائر ، نستطيع أن نتبين بوضوح أكثر ملامح الظاهرة الاستيطانية ، اذ أن هاتين الحالتين قد بينتا العلاقات الاستعمارية مع المستوطنات من جهة ، ونمو المؤسسة الاستيطانية المستقلة بقرارات قانونية ودستورية عن الحاضرة من جهة أخرى ٠ ولكن كنتيجة للتغير في سياسة الحاضرة

نحو المستوطنات في حالة كينيا والجزائر ، حيث استطاعت الحاضرة أن تدرك عدم جدوى صراع المستوطنين من أجل اقامة مستوطنات مستقلة ، فان اندفاع المستوطنين نحو الاستقلال قد أمكن كبحه • ولأن القوة الحقيقية كانت تتركز عمليا في الحاضرة التي كانت تشغلها أمور أعمق تتعلق بوجودها ، فان ذلك كان السبب الحقيقي لفشل محاولتي الاستقلال الاستيطاني في كل من كينيا والجزائر •

واذا ما بحثنا أمر كينيا ، فاننا نجد أن بريطانيا قد أعلنت عام ١٨٩٥ عن اقامة محمية تابعة لها في تلك المنطقة لتأمين طريقها الى أوغندا منبع النيل الأبيض وذات الخصوبة الزراعية الوفيرة • ولكن خط الحديد الذي أنشأته بريطانيا عبر « كينيا » باستغلال العمالة الهندية الرخيصة وبكلفة تنوف على (٥) ملايين جنيه استرليني آنذاك لم يكن بالامكان ادامته بشكل مربح ، على حد زعمهم ، الا بتواجد المستوطنين البيض • ومع قدوم عام ١٩٠٢ كان استيطان البيض في مرتفعات « كينيا » الباردة سياسة رسمية • وانطلاقا من هذه السياسة ، فان سكرتير المستوطنات في الوزارة البريطانية آنذاك السيد / جوزف شامبرلين ، عرض على الزعيم الصهيوني « تيدور هرتزل » عام ١٩٠٣ جعل أوغندا (كينيا) منطقة للمستوطنات اليهودية •

وقد قبل المؤتمر الصهيوني السادس المنعقد في « بازل » في سويسرا في أغسطس عام ١٩٠٣ هذا العرض ، الذي تم ربطه ربطا أوثق بالمصالح البريطانية الاستعمارية الاستيطانية في جنوب افريقيا • وكان شامبرلين يعتقد بنجاح سياسة المصالحة بين البيض ، التي تبناها بعيد حرب البوير ، نتيجة للدعم الذي سيلقاه من اليهود • ولمواجهة الأعباء المالية الساحقة التي نتجت عن هذه الحرب ، فان « شامبرلين » كان يرى أن الثروة العظيمة

الصناعية والمعدنية الموجودة في الراند هي وحدها القادرة على اعادة تعمير جنوب افريقيا • ولكن من بين كل المتلكات البريطانية ، كانت جنوب افريقيا هي الوحيدة التي كان اليهود والأموال اليهودية يعيرونها اهتماما • وقد ذكر « جوليان امرى » ـ كاتب قصة حياة « شامبرلين » بهذا الصدد « أن منطقة الراند ، بشكل خاص ، كانت بأيد يهودية محضة •••• وكان « شامبرلين » و « ميلنر » يعقدان على ازدهارها كل آمالهم من أجل اعادة تعمير جنوب افريقيا وتطويرها في المستقبل (١) •

وقد لاحظ « روبرت وايزبورد » أن جنوب افريقيا قد أصبحت « مرتعا للنشاط العسكري حتى قبل قيام الاتحاد الصهيوني في جنوب افريقيا عام ١٨٩٨ ، يضاف الى ذلك أن بعض أغنى المستثمرين اليهود في مناجم الراند كانوا من الصهاينة » (٢) •

ومن المعلوم أن عرض الاستيطان في « أوغندا » قد شق الحركة الصهيونية حتى الحرب العالمية الأولى ، ولكن لو قبلت المنظمة الصهيونية آنذاك هذا العرض بجدية ، لما كان الطابع الاستيطاني للدولة الصهيونية مثار جدل ، كما تبين « لوايزبورد » ، الذي يقول :

« فيما يتعلق بكينيا ، يمكن للمرء أن يتساءل : هل يساعد وجود مجتمع يهودي له شأنه على احتفاظ بريطانيا بزمام الأمور في تلك المنطقة ؟ أم هل كانت القومية الافريقية

---

1. Julian Amery, The Life of Joseph Chamberlain, Vol. IV (London, 1951) p. 257.
2. Robert G. Weisbord, African Zion, (Philadelphia, 1968) p. 127.

ستعتبر مثل هذا المجتمع القائم في وسطها استيطانيا ليس له حق في تقرير المصير والوجود القومي ؟ انه من الواضح أن القومية الافريقية كانت ستصطدم بالصهيونية السياسية الحديثة تماما كما فعلت القومية العربية في الشرق الأوسط ٠ ولكانت شرق افريقيا آنذاك ، هي منطقة الصراع ، ولكان « كينياتا » بدلا من « ناصر » هو محط سخط الصهيونية ٠ وفي تلك الحالة ، كان تبرير الصهيونية لوجودها سيفقد المنطق التاريخي والقرائن العاطفية (التي تدعيها الآن في فلسطين) » (٣) ٠

ان المعارضة المحلية البيضاء للاستيطان الصهيوني كانت أحد الأسباب التي جعلت فكرة خلق « وطن للرجل الأبيض » في كينيا تبدو مجرد أحلام مدة بضع سنوات ٠ وكان اعتبار لندن أن « كينيا » أصبحت محمية بريطانية من جهة وتساهلها أمام نمو ادارة محلية فيها من جهة أخرى خير مؤشر على أن تطورا مشتركا للعلاقة بين البيض والأفارقة على غرار ما كان يجري في غرب افريقيا قد يصبح مثالا يمكن أن يحتذى ٠ واستجابة لطلبات المستوطنين ، أنشأت لندن عام ١٩٠٧ مجلسا تشريعيا استبعد منه الأفارقة ، مما أثار التوقعات لدى المستوطنين أن هذا الاجراء سيقودهم في النهاية الى أن يرثوا الأمبراطورية البريطانية في « كينيا » كما حدث في مستعمرتي رأس الرجاء الصالح وفي « كندا » اللتين نشأتا حول مثل هذه المجالس التشريعية واستمدتا قوتهما منها ٠ ومنذ انشاء هذا المجلس التشريعي بدأت معالم التفرقة بين البيض والافريقيين تتضح خاصة بعد انتهاج سياسة ترمي الى هدم اقتصاد الأفارقة ٠

---

3. Robert G. Weisbord, African Zion, (Philadelphia, 1968) p. 127

أما المكاسب المتلاحقة التي حققها البيض بعد الحرب العالمية الثانية والتي سهلتها التشريعات المرسومة ضد صالح الأفارقة ، فانها أتت أكلها عام ١٩٥٠ عندما هبت قبيلة « كيكويو » الكينية لتصب جام ثورتها بكل قسوة ووحشية على تلك الأوضاع . وفي السنوات القليلة اللاحقة حالت بريطانيا دون نجاح أن تسحق ما أسمته بحركة الماو الماو من خلال حملات استيطانية واعتقالات للزعماء المتهمين ومنهم « كينياتا » ، وارهاب عنيف مارسته ضد هذه الحركة . ولم يكن سبب ذلك ردة الفعل البريطانية المنيفة حماية مصالح المستوطنين فحسب ، بل كانت بريطانيا ترى أن كينيا ضرورية لسياستها الأمبراطورية في منطقتي الشرق الأوسط والمحيط الهندي . ولكنها عندما اقتنعت أخيرا بوجوب فصل سياستها في المحيط الهندي عن سياستها في الشرق الأوسط ، قامت عام ١٩٥٥ بتعيين وزير افريقي . وفي عام ١٩٥٧ ، ومن أجل أن تواجه احتجاج البيض المستوطنين ، سمحت للأفارقة بأن يصبح لهم حق الترشيح والانتخاب لعضوية المجلس التشريعي فالتحق به بعض الأفريقيين نتيجة لذلك . وكان معنى ذلك هو رفض السيادة البيضاء من جهة ، وأن مسألة حكم الأغلبية والاستقلال الذي منحته بريطانيا لكينيا في ديسمبر عام ١٩٦٣ أصبحت مسألة وقت فحسب .

وأثناء هذه التطورات ، تم الحفاظ على العلاقات الاقتصادية التي كانت تربط المستوطنين بكل من المراكز المالية في بريطانيا وجنوب افريقيا وروديسيا . ومع أن آلافا من البيض لم يطيقوا فكرة مساواة الأفارقة بهم اجتماعيا ففروا الى جنوب افريقيا وروديسيا التي كانت مفتوحة لهم ، يحملون معهم كل السيولة النقدية التي استطاعوها ، الا أن الكثير من البيض ظلوا في « كينيا » وكان سبب بقائهم هو أن الخيط الذي انتظم النظام القديم بقي سليما ، وتحولت كينيا مثلها مثل معظم المستعمرات

البريطانية السابقة الى وضع مريح تطغى عليه الصيغة الاستعمارية الجديدة ، وذلك بالرغم من تجربة الماو الماو والارهاب الذي عرضتهم له • وفي هذه الصيغة الجديدة ، أمكن استيعاب العديد من القيادات السياسية الكينية في البنية الاقتصادية السائدة المحكومة من الخارج ، علما بأن بعض هذه القيادات كان يشار اليها بأنها جماعات ارهابية متوحشة الى عهد قريب • وهذه الطبيعة الاقتصادية والسياسية لكينيا هي التي تفسر لنا بقاءها محظية غربية في افريقيا وبها تواجد اسرائيلي قوي •

ولكن اذا كانت ثورة كينيا ضد الاستيطان قد أمكن تطويقها، ولو الى حين ، بواسطة التيارات الاقتصادية القائمة آنذاك ، فان القضية الجزائرية قد اتبعت مسارا آخر • فبعد احتلال الجزائر عام ١٨٣٠ ، قامت فرنسا بضم الجزء الشمالي منها الى الجسد الفرنسي عام ١٨٧١ على شكل ثلاث دوائر لما وراء البحار على النمط الذي اتبعته البرتغال عام ١٩٥١ •

ومن النقائض التاريخية أن يكون القرار الفرنسي بغزو الجزائر انعكاسا لرغبة الحكومة الضعيفة آنذاك في الحصول على مكاسب تلهي شعبها بها عنها • فان الأحداث في الجزائر بعد تسعين عاما من هذا الغزو ، بما في ذلك ثورة المستوطنين أنفسهم، أدت الى أمور عكسية تماما • فلم تؤد هذه الأحداث الى مجرد انقلاب دستوري في الحاضرة والى الاعتراف باستقلال الجزائر ، بل تعدت آثارها ذلك الى اعادة تشكيل الاتحاد الفرنسي ذاته الى حين ، ثم الى انهياره نهائيا • ومثل ذلك ، فان البرتغال التي ارتبط نشاطها الاستعماري ارتباطا عضويا بنسيجها الداخلي الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، قد أدت الأحداث في

مقاطعاتها لما وراء البحار لا الى مجرد الانقلاب الدستوري في الحاضرة ، بل الى مسار من الأحداث لا يمكن التكهن بمنتهاه ٠

أما القرار الفرنسي بضم شمال الجزائر فلم يكن الهدف منه مجرد القضاء على ما تبقى من مظاهر الحياة القبلية هناك ، بل كان يهدف بالدرجة الأولى الى ترسيخ الاستيطان الفرنسي فيها٠ وفي الوضع الاستعماري « العادي » ، تستطيع السلطات التقليدية المحلية سواء أكانت قبلية أم دينية أن تخدم المصالح الاستعمارية٠ ولكن منطق البقاء يفرض سياسة مختلفة ٠ وفي الجزائر ، فان مصادرة الممتلكات لصالح المستوطنين الفرنسيين قد أنزلت السكان المسلمين المحليين عام ١٩٠٠ من مرتبة مزدهرة الى وضع اقتصادي واجتماعي وثقافي منخفض ٠ كما أن القبائل قد تم اذابتها والاقتصاد الوطني قد جرى هدمه بعد ابادة ثلاثة ملايين جزائري ٠ وليس لنا الا أن نشكر حملات « التمدين » الطويلة وحملات « فرض حالة السلم » التي جعلت انتاج الخمور للتصدير يحل محل الانتاج التقليدي للحبوب الذي كان يوفر للجزائريين الكفاية الزراعية الذاتية ٠ فالفلاحون الذين فقدوا أراضيهم بعد اقتلاعهم منها ، صاروا يستخدمون بعد ذلك في فرنسا كأيدي عاملة رخيصة ٠ وأصبحوا في ذلك يشبهون النمط السائد في جنوب افريقيا التي أصبح سكانها المقهورون يمثلون « احتياطيا محليا » يوفر العمالة لخدمات المناجم والزراعة في خدمة الأقلية المسيطرة ٠

وكان يبدو أن مصالح المستوطنين الفرنسيين قد ترسخت ، لا سيما بعد تفويتها عبر عدة أجيال وعن طريق مئات الآلاف من المهاجرين الوافدين من جنوب أوروبا لضمان بقاء المستوطنين٠ ولكن القوى الجديدة التي لها جذورها في تناقض النظام الفرنسي ، كانت تتخمر لتؤدي الى الانهيار التام للبنيان

الاستعماري الاستيطاني • ولم يتمكن دمج المجتمع اليهودي الجزائري الكبير عدديا في المواطنية الفرنسية عام ١٨٧٠ من تقوية القاعدة الاستيطانية ، واعاقة النمو المتزايد للمقاومة الوطنية • ان هذا التطور الذي نجد جذوره فيما لقيه العمال الجزائريون عندما تعرضوا للحياة الغربية في الحاضرة ، وفي ردة الفعل التي تمثلت في الاعتزاز بالنفس عندما وجدوا حضارتهم التقليدية معرضة للهجوم الشامل • ان هذا التطور قد أثبت أنه يفوق كل المحاولات الاستيطانية الفرنسية للتحكم والسيطرة • فبينما اكتسب بعض الجزائريين صبغة « الملتحقين » بفرنسا مقابل انسلاخهم الاجتماعي والثقافي ، كما فعل بعض الأفارقة في المستعمرات البرتغالية وفي المستعمرات الفرنسية جنوب الصحراء الكبرى ، الا أن الجزائري العادي لم يقبل التخلي عن هويته • ولذا فان الجزائريين لم يكونوا معنيين مطلقا باقدام فرنسا عام ١٩٤٤ على انشاء الاتحاد الفرنسي ، في محاولتها عقب الحرب العالمية الثانية للحفاظ على ممتلكاتها الافريقية والامريكية والآسيوية ، ذلك الاتحاد الذي امتدحه المنظر الليبرالي الاستعماري « روبرت دي لافيجنت » وشبهه بقرار الامبراطور الروماني كاراكالا عام ٢١٢م بمنح المواطنية الروحية لكل أحرار العالم (٤) • ان التنازلات الفرنسية في الجزائر ، التي أعاقها تمرد المستوطنين مؤيدوهم في الحاضرة ، قد جاءت متأخرة بحيث لم تنقذ الأقلية البرجوازية الجزائرية التي كانت راغبة في القبول بروابط فيدرالية مع فرنسا • ففي ١ نوفمبر عام ١٩٥٤ أعلنت الثورة ، ولم تقتنع فرنسا أن جذور هذه الثورة جزائرية صرفة مما قادها بعد عامين الى

---

4. Edward Mortimer, France and the Africans 1944-1960 (London, 1969) p. 55.

مغامرة استعمارية أخرى وهي حربها ضد مصر (غزو السويس) •
ولكن مصير الاتحاد الفرنسي كان قد تقرر أصلا في بداية عام ١٩٥٩ في الهند الصينية في معركة ديان بيان فو ، ومع انسحاب القوات الفرنسية من القارة الهندية الى الجزائر ، ولذلك ترك للولايات المتحدة أن تقوم بمحاولات عديمة الجدوى لاصلاح ما يمكن اصلاحه من المصالح « الغربية » •

ان انتصار الثورة الجزائرية عام ١٩٦٢ التي ساعدتها وأدامتها القومية العربية الجديدة التي اتصفت بها الخمسينات• قد تغلب على آخر نزع تخريبي للاستعمارية الاستيطانية المتلاشية •

وكمحاولة غير مثمرة للحفاظ على الجزائر ، جوهرة المستعمرات الفرنسية ، قامت فرنسا بمنح تونس والمغرب استقلالهما وحاولت اعادة تشكيل الاتحاد الفرنسي بحيث تستطيع منح المستعمرات بعض الاستقلالية السياسية والاجتماعية والثقافية • ومع أن فلسفة دمج المناطق السوداء في الاتحاد الفرنسي وهي التي ترعرعت في مارتينيك والسنغال استهدفت حل المشكلة الثقافية القائمة ، الا أن هذه الخطة الديغولية تعرضت للتحدي في غينيا التي كان يقودها سيكوتوري عام ١٩٥٨ • وأمام هذه الضغوط ، ولمواجهة عدم رضا مؤيدي الالتحاق بالاتحاد الفرنسي عن سياسة فرنسا ، تم عام ١٩٦٢ منح استقلال ظاهري لكل أجزاء الامبراطورية الفرنسية في افريقيا ما عدا الصومال « جيبوتي » وبقيت هذه البلدان معتمدة اقتصاديا على فرنسا •

ومع أن اتفاقية استقلال الجزائر الموجودة في سجلات وقائع اجتماعات ايفيان في ٢٨ مارس ١٩٦٢ قد رضيت بالهوية

الاستعمارية الجديدة لفرنسا وأعطتها حق ديمومة استعمال القاعدة البحرية في مرسى الكبير وأعطتها مواقع في الصحراء للقيام بتجاربها النووية ، وحق الهبوط في الموانيء الجوية علاوة على تنازلات أخرى في مجال النفط والغاز الطبيعي ، فان حكومتي بن بيلا وبومدين لا تعتبران هذه التنازلات نهائية ٠

وهكذا ، وتمشيا مع فلسفة ابنها الثوري فرانز فانون ــ ذلك الزنجي من سكان جزر الهند الغربية ، قامت الجزائر بافتتاح مسرح السبعينات عندما حثت القوى الاقتصادية غير الغربية على التكتل لتحدي آخر محاولة مدعومة من الغرب للتدخل في العالم العربي ٠ وفي الوقت ذاته فان هذه القوة الجديدة التي ظهرت في العالم الثالث كانت مهتمة بتغيير عدم التوازن القائم بين اوروبا والبلدان غير الأوروبية الذي كان سائدا في العالم منذ فجر الفترة الصناعية التوسعية ٠

وفي يومنا هذا ، بعد اقتلاع الدويلات الاستيطانية أو الاستيطانية المبطنة في كينيا والجزائر وافريقيا البرتغالية ، وفي عهد تزايد عزة العديد من الدول المستقلة ظاهريا الواقعة تحت نمط الجديد ، لم يبق في أفريقيا من الدول الاستيطانية الا جنوب افريقيا ــ التي تتحكم في ناميبيا ــ وروديسيا ٠ وتمتد الجذور الاستيطانية في جنوب افريقيا الى القرن السابع عشر الذي نشطت خلاله في تلك المنطقة الشركة الهولندية الهندية الشرقية ، والى الانتصار البرتغالي وما أدى اليه من حركة استيطانية خلال الحروب النابوليونية ٠ أما روديسيا ، فلم تكن بها الا حفنة من البيض عند اطلالة القرن العشرين ٠ وفي هاتين المنطقتين ، كان الفضل الاستيطاني يرجع الى السياسة الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي وضعها النابغة الاستعماري الداهية

سيسيل رودس . فبعد اكتشاف الذهب والماس في منطقة الراند في منتصف القرن التاسع عشر ، أصبحت جنوب افريقيا مرتبطة بشريان النظام الاقتصادي والسياسي البرتغالي . وفي نفس الوقت ، اقتضت الاستراتيجية الامبراطورية الرامية الى الحفاظ على ممتلكاتها في الهند ومن ثم التحكم في قناة السويس ، أن يكون مصير جنوب افريقيا مرتبطا بأولويات الاستراتيجية البريطانية .

وقد تشكلت السياسة البريطانية للمنطقة عام ١٨٥٢ ، حينما تنازلت بريطانيا لمستعمرة رأس الرجاء الصالح لتحكم نفسها بنفسها على أساس غير عنصري لكن تحدده المعطيات الاقتصادية . ومع أن هذه السياسة قد بدت وكأنها نسخة متحررة عما كان يدور في كندا ، الا أن مسار الحكومة المحلية في مستعمرة الرجاء الصالح كان الهدف الواضح منه أن يرعى الأقلية البيضاء . وكان من نتيجة ذلك أن أدى التوسع السياسي والاقتصادي لحكومة رأس الرجاء الصالح وارتباطه بالمصالح الامبراطورية البريطانية ، الى صدام مع النظام الاقتصادي والسياسي للملاك المستوطنين الهولنديين (البوير) . وكان هذا الصدام ذا طابع بدائي عنصري ديني . وكانت الغلبة أثر هذا الصراع الدموي الذي دام من ١٨٩٩ ـ ١٩٠٢ للمجتمعات الانجليزية ـ الصناعية صاحبة المناجم . ومن ذلك الحين ، وبمساندة بريطانيا واثارة الحماس من قبل الجنرال سماتس والجنرال بوثا الهولنديين اللذين انضما الى جوقة الامبراطورية التي ابتدأها سيسيل رودس ، أخذت جنوب افريقيا تلعب دورها المساند لحركة الاستيطان .

وبالمرور العابر على تطور الدولة الاستيطانية في جنوب افريقيا ، فانه من المهم أن نذكر قرار تشكيل ذلك الاتحاد عام

١٩٣٠ ، الذي منحت بريطانيا بموجبه الاستقلال الى كافة التجمعات البيضاء الانجليزية والهولندية • علاوة على ذلك حافظ الاتحاد على البنية العنصرية في كل من الدولة البرتغالية الحرة * ودولة الترانسفال (الهولندية) وأعد المسرح للقضاء على ما تبقى من حقوق سياسية هامشية لغير البيض في منطقتي الرأس والناتال • ومنذ ذلك الحين ، ظل حكم الأغلبية غير البيضاء خاضعا لرحمة « ممدنيهم » • ومن الطريف في الأمر أن هذا الاتحاد كان ينظر اليه على أنه تجسيد لخصال التسامح والحرية التي نسبتها بريطانيا لنفسها ، وبالتالي فقد باركه على حد سواء كل من الأحرار والاشتراكيين والمحافظين والاستعماريين • وبشكل خاص ، فان ولادة هذا الاتحاد مدينة لتلك الحفنة من السياسيين ، وهم اللورد ميلنر ، واللورد سيلبورن ، وجوزف شامبرلين واللورد بلفور ، الذين قاموا بعد سبع سنوات باصدار وعد باسم آخرهم (بلفور) يساندهم في ذلك الجنرال سماتس ولويد جورج حيث شرعوا فيه قيام دولة استيطانية أخرى ولكن في الشرق الأوسط هذه المرة •

وطوال فترة سيادة بريطانيا على جنوب افريقيا التي دامت حتى الانتصار الانتخابي الذي حققه الجناح الهولندي (الأفريكانز) في مايو ١٩٤٨ ــ وهو عام الانتصار الصهيوني في فلسطين ــ ثم تبنى نظام اقتصادي شامل يعتمد على العمالة السوداء والآسيوية الملونة • وبالتالي ، فان انتصار الأفريكانز عام ١٩٤٨ الذي تبعه اعلان قوانين التفرقة وقوانين عنصرية عديدة أخرى ، لم يمثل سوى التكشف المنطقي للممارسات السياسية السابقة التي كانت مبطنة ببعض المحسنات الليبرالية •

---

* اللون البرتقالي هو شعار البروتستنت في بريطانيا ــ المعرب •

وما انشاء جمهورية جنوب افريقيا عام ١٩٦٠ ، وقطع الروابط الاسمية الصرفة مع بريطانيا الملكية الا مظهر خارجي من مظاهر هذه السياسة على المستوى التشريعي الرسمي ٠

واذا كان الانسلاخ الرسمي عن بريطانيا قد سبب امتعاضا وارتباكا ، فانه لم يغير في حقيقة أن الاستثمارات البريطانية في جنوب افريقيا التي قدرت حينها بمبلغ ١٨٢٠ مليون راند بقيت هي المسيطرة ، وان التجارة مع بريطانيا لا زالت تشكل أكثر من ٣٠ ٪ من التجارة الكلية ٠ أما الاستثمارات في جنوب افريقيا، التي تحقق أعلى عائد في العالم ، فلم تكن لبريطانيا وحدها ، بل تبعتها بسرعة في ذلك كل من أمريكا والمانيا الغربية وفرنسا واليابان ٠ وفي الحين الذي نددت فيه هذه البلدان بسياسة التفرقة العنصرية في جنوب افريقيا ، فان الأهمية الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية لجنوب افريقيا قد فاقت بالنسبة لها كل ما تمثله حقوق الانسان ٠ ومن النقائض أنه بحجة الحفاظ على حقوق الانسان قامت هذه القوى بالزام نفسها بتطويق أخطار الشيوعية ٠ وفي يومنا هذا ، فان جنوب افريقيا التي تمثل المحور الاقتصادي لنصف جنوب القارة ، تشعر بالارتياح وهي مطمئنة الى أن السياسة الأمريكية حسب تصريحات «كيسنجر» لا تنوي مجابهة النظام السائد فيها ٠

أما روديسيا ، التي تسلم أقل من نصف مليون من البيض فيها مقاليد الحكم الواقعي منذ ١٩٢٣ ، حينما أعطيت استقلالية شبه تامة ما عدا بعض التحفظات القانونية التي كان القصد منها الدفاع عن حقوق الافريقيين ، تلك التحفظات التي تلاشت واقعيا من قلة استعمال الافريقيين لها ، فقد شهدت استقلالا من طرف واحد عندما أعلنت حكومة الأقلية برئاسة رئيس وزرائها

ايان سميث استقلالها التام بالسلطة عن بريطانيا في نوفمبر ١٩٦٥ • وحينذاك ، لم يكن عدد البيض يتعدى ٢٥٠ ألفا ، ولكن كان تحت تصرفهم قوة عسكرية لها وزنها ، وتحت أمرتهم نظام تشريعي متكامل • وبمساعدة من البرتغاليين وجنوب افريقيا ، قامت هذه الأقلية في روديسيا بترسيخ نظامها الاستغلالي العنصري الخاص •

وكل ما عملته بريطانيا ازاء هذا التمرد هو تحويل أمر روديسيا الى الامم المتحدة التي اقترحت سياسة المقاطعة ، ولكنها تجاهلت كل مطالب الدول الافريقية ودول العالم الثالث بسحق هذا التمرد • ولكن الدعم العلني الذي تلقته روديسيا من البرتغال وجنوب افريقيا والتعاون المباشر أو غير المباشر الذي قامت به عدة دول غربية معها ، مكنها من ان تزدهر بالرغم من « عدم شرعيتها » • وعلاوة على ذلك ، فقد كانت هناك مؤشرات قوية عام ١٩٧٤ على قيام تحالف عسكري شامل بين جنوب افريقيا والبرتغال وروديسيا يرتقي الى مستوى التبادل الاقتصادي المتزايد بينها • وقد دخل روديسيا بضع مئات من الجنود من جنوب افريقيا تحت شعار كونهم شرطة تقوم بعمليات مضادة للثوار الافريقيين قبل أن يدفع انهيار البرتغال جنوب افريقيا الى اعادة النظر في سياستها •

ان الناس غير العارفين بطبيعة دولة جنوب افريقيا قد تصيبهم الدهشة من جراء دبلوماسية « الحوار » الجديد التي تتبعها هذه الدولة مع افريقيا السوداء ، وازاء تراجعها الظاهري عن مساندة روديسيا ، وفيما يتعلق بتخفيف بعض مظاهر البنية العنصرية • ولكن الحقيقة التي لا شك فيها ، هي أن كلا من هذه الخطوات تهدف الى الحفاظ على الهيمنة البيضاء •

ويدلنا تمحيص الحوادث السابقة على أن جنوب افريقيا درجت على سياسة « قبول الحقائق الواقعة » ولكنها في نفس الوقت تخلق « حقائق جديدة » متمشية مع سياسة بقائها • ومن هذا المنطق ، فان جنوب افريقيا لم توافق فحسب ، بل رحبت ، بمنح الاستقلال للمناطق التي كانت تابعة للمفوضية البريطانية في باسوتولاند (ليسوتو) وبيشوانالاند (بوتسوانا) وسوازيلاند، بالرغم من استمرار مطالبة جنوب افريقيا لمدة نصف قرن بضم هذه المناطق لها لتزيد من « رصيدها المحلي » من العمالة البانتوستانية • والسبب في هذا الترحيب ، هو أن وجود هذه الدول التابعة المحيطة بها ، كما هي الحال مع مالاوي في الشمال ، مكن جنوب افريقيا من المضي في ارساء قواعد الوفاق السياسي مع افريقيا السوداء الى حد ما من التوفيق • وانطلاقا من هذا أيضا فقد كان من المتوقع أن تتسامح جنوب افريقيا ازاء استقلال موزامبيق وانغولا ، لأن مخاطر وتكاليف مساندة أنظمة الأقليات البيضاء فيهما كانت عالية جدا ، ولأن اعتماد موزامبيق الاقتصادي عليها والروابط الاقتصادية الوثيقة بينها وبين أنغولا يسهلان الوفاق السياسي مع افريقيا السوداء • وكان هذا هو المضمون الذي دفع رئيس الوزراء فورستر الى تبني سياسة الوفاق في وجه معارضة شديدة من الجناح اليميني المتطرف لحزبه • ولأنه يتوقع أن يتطور موقف الوطنيين الافريقيين (الزمبابوي) بعد أن يتحرروا من الآثار الجذرية التي يطبعهم عليها الصراع الثوري الطويل الى معتدلين ميالين للمصالحة والوفاق ، فقد بدأ فورستر منذ أواخر ١٩٧٤ بالحث على نهج جديد تنتهجه قيادة روديسيا البيضاء ولا زالت هذه سياسته حتى وقتنا الحاضر •

وقد رأينا في السابق مقدرة أيديولوجية حزب البيض الحاكم

في جنوب افريقيا على الانحناء للوصول الى مكاسب عملية ، كما حصل في عامي ١٩٤٧ ــ ١٩٤٨ حينما تخلت عن سمتها اللاسامية وتبنت سياسة مؤيدة لاسرائيل لكسب أصوات اليهود في الانتخابات • ولكن بالرغم من ذلك فان أملها البعيد في البقاء كدولة استيطانية لا زال مظلما • ذلك لأنه من الصعب تخيل دوام ظروف الوفاق مع كل الدول الافريقية المستقلة المحيطة بها من جهة ولأن البانتوستانيين المدجنين الآن قد يصبحون في ظروف جديدة مواتية مثل حصان طروادة من جهة ثانية • ومن المستبعد أن يتم أحد هذين التطورين بتنسيق مع شكل من أشكال المعارضة الداخلية للنظام العنصري • ولكن الأهم ، هو أنه بغض النظر عن الاستراتيجية التي ستتبعها الأقلية البيضاء ، فان مجرد رفض الشعب أن يختفي ، ذلك الشعب الذي تصبح الحاجة الى عمالته أكثر أهمية بالنسبة لبقاء الدولة ، ورفضهم اعتبار التحسن الاقتصادي أجرا عن الخنوع الاقتصادي والسياسي والاجتماعي والنفسي ، هذا الرفض البسيط سيظل أعظم ضمان لفشل الاستيطان •

وأخيرا ، وكما ذكرنا آنفا ، تم انشاء دولة استيطانية أخرى، بنفس الأسلوب ، وفي نفس الحقبة الزمنية التي شهدت قيام اتحاد جنوب افريقيا والسيادة البيضاء في روديسيا ، لكن هذه المرة في فلسطين • وكان تأييد الصهيونية السياسية متمشيا مع الاستراتيجية الاستعمارية كما صرح الجنرال سماتس وونستون تشرشل ، كما عكس هذا التأييد لدرجة كبيرة تلك الفلسفة الليبرالية التي كانت تبرر ذاتها والتي قامت خلال أربعة قرون بتبرير العبودية أولا ثم تبرير الممارسات الاستعمارية الاستيطانية ، وهي فلسفة مليئة بالمغالطات ، أو كما يقول الشيوعيون ، قد حددتها طبيعة الأنظمة التي تبنتها • ومع أن

المساندة البريطانية للصهيونية السياسية كان نتيجة للاسامية التي كانت احدى جوانب « التطور » الغربي ، الا أن التزام بريطانيا الشرعي المتمثل بوعد بلفور عام ١٩١٧ والذي أيدته القوى الغربية المنتظمة آنذاك في عصبة الأمم المتحدة بالاضافة الى الولايات المتحدة ، هذه المساندة وهذا الالتزام كانا بلا شك سبب النجاح الأولي للصهيونية • وخلال الثلاثينات قامت المجتمعات اليهودية في الولايات المتحدة وجنوب افريقيا ودول غربية أخرى بزيادة مساعدتها للوكالة اليهودية التي كانت تمثل حكومة استيطانية يهودية ، فتمكن الصهاينة بذلك من تحمل انقطاع المساعدة البريطانية بعد نشر الورقة البيضاء عام ١٩٢٩ •

وفي محاولة لضمان الدعم البريطاني المرتكز على تحديد المصالح المشتركة بين بريطانيا والصهيونية ، قام حاييم وايزمان ــ زعيم الصهيونية في بريطانيا ، بعرض خطة جديدة على الجنرال سماتس عام ١٩٤٣ • وقد اعتبر وايزمان الذي قدر له أن يكون أول رئيس لدولة اسرائيل ، أن بريطانيا لا أمل لها في استعادة مركزها القيادي بعد الحرب العالمية الثانية الا عن طريق اعادة بعث افريقيا من جديد • وبافتراض التعاون مع جنوب افريقيا في هذا المجال ، فقد لمح وايزمان أن فلسطين تحت السيطرة اليهودية تستطيع •••••• « أن تصبح المختبر أو الوحدة الانتاجية الرائدة من المصنع الكبير الذي يمكن لافريقيا أن تصبحه (مشروعا زراعيا صناعيا يمكنه انتاج الطاقة من الكاربوهيدرات) • وما من شك في أن هذه الخطة ستجعل فلسطين قادرة على توطين أعداد كبيرة من المهاجرين بشكل منتج • وفي نفس الوقت فان الرابطة التي ستقوم بين افريقيا وفلسطين ستقوى من مركز فلسطين في المحيط العربي ، أو قد

تجعل فلسطين قادرة على الانضمام اقتصاديا وسياسيا الى معسكر افريقي بدلا من الدخول في الاتحاد الفيدرالي العربي المنتظر » (٥) ٠

ومع أن هذا الاقتراح لم يثمر لأسباب متعددة ، الا أنه يجعلنا نكشف غوامض العلاقة بين بطل جنوب افريقيا الداعي الى صيانة المصالح البريطانية الاستعمارية وبين القضية الصهيونية ٠ وفي الوقت ذاته ، فانه ينم عن السياسة الافريقية التي اتبعتها اسرائيل مؤخرا عند محاولتها امتصاص عداء جيرانها العرب ٠

أما بالنسبة للصهيونية ، فان نجاحها ، اذا نظرنا الى الأمور بمنطقية ، قد تطلب اتباع نفس التكتيكات التي خدمت الدول الاستيطانية الأخرى ٠ فلم تكتف بمحاولة التغلب على رفض « حاضرتها » السابقة لها ـ بريطانيا ـ ولكنها اتخذت خطوات أثناء تعاملها مع السكان الأصليين حملت طابع ضمان هيمنة المستوطنين على المحليين ٠ وبقي هذا الطابع قائما بالرغم من محاولات تعديله أو تخفيضه في بعض الأحيان لارضاء ضمائر بعض اليهود الذين استهجنوا أن يطبقوا ما يتعارض ويتنافى مع قيم الديانة اليهودية ٠ ولكن ، اذا ما لزم ادخال مستوطنين جدد ، فان القدماء يجري خنقهم اقتصاديا وسياسيا ليسلموا بالأمر الواقع ٠ وتمشيا مع منظور الفلسفة الصهيونية فان الأغلبية « المحلية » لم يكتف باخضاعها للأقلية « المتحضرة » القادرة على احياء الصحراء بل تمت تصفيتها بفعالية على غرار

5. Richard P. Stevens, Wizmann and Smuts: A study in Zionist - South African Cooperation (Beirut 1975) Appendix 11 p. 127.

ما حصل للهنود الحمر في أمريكا من خلال فلسفة وجودية مبررة لذاتها كان دعاتها يرفعون أنفسهم الى ما فوق حدود العقلانية عن طريق معتقداتهم الدينية ، ويستغلون العرقية الدينية والتقليد اليهودي المسيحي ، فان اليهود ، أقنعوا أنفسهم أكثر مما فعل البيض الهولنديون في جنوب افريقيا ، بأنهم سيحققون ارادة الله ويرثون أرضه . ولذا فان مفاهيم العدالة والحق وبقاء ذلك الشعب الذي لم يسبق ان انتمى الى أية هوية سياسية معينة ، كانت كلها مرتبطة ببقاء تلك الدولة ، أي أنه قد تم تطويع الدين للدولة لنظريتهم . ونظرا لحداقة القادة الصهاينة ، فان تأييد هذه الدولة الجديدة لم يأت من اليهود والمسيحيين فقط ، بل جاء من المحافظين والأحرار ، من المستعمرين والاشتراكيين ومن الرأسماليين ومن أعداء السامية ومن الحزب الشيوعي أيضا . ومع أن تبريرات التأييد التي أقنع العالم الخارجي بها نفسه قد يصيبها أحيانا الارتباك والتناقض الا أن الصهاينة فيما بينهم حافظوا على اتفاقاتهم العامة بشأن أهدافهم النهائية .

وقد كانت الولايات المتحدة ، كما أثبتت الأحداث ، هي التي قدمت الدعم الرئيسي بعد عام ١٩٤٢ الى الدبلوماسية الصهيونية ، كما قدمت الدعم السياسي والاقتصادي الذي أبقى على حياة الدولة اليهودية . واذا كان القول صحيحا بأن الدعم الأمريكي باديء ذي بدء للصهيونية السياسية كان نتيجة للتهيئة التي فرضتها جهود الصهاينة الدائمة على كل نواحي الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية في أمريكا ، فلا ننسى أن هذه الجهود كانت تبذل في مجتمع مستجيب لها سلفا . فالوحشية التي عاملت بها ألمانيا الهتلرية اليهود الأوروبيين أيقظت الشعور بالذنب على كثير من الممارسات الغربية والأمريكية التقليدية ،

كما دفعت بوارثي هذا التقليد أن يكفروا عن ذنوبهم على حساب الآخرين وذلك بدعمهم للبرنامج الصهيوني •

وما أن جاء عام ١٩٦٧ حتى تجاوز الحماس الأمريكي لاسرائيل كل وزن الجهود اليهودية المنظمة • فبينما كانت الولايات المتحدة عام ١٩٥٦ لا تزال مهتمة بالحفاظ على بدائلها السياسية في الشرق الأوسط ومن ثم لم تكتف يومها بالاصرار على الانسحاب الاسرائيلي البريطاني الفرنسي من الأراضي العربية المحتلة بل هددت بطرد اسرائيل من الأمم المتحدة نجد أن اسرائيل قد أصبحت عام ١٩٦٧ بديلا للوجود الأمريكي في المنطقة • ولكونها حلقة وصل غير رسمية بين التحالف الأمريكي مع البرتغال واسبانيا وايطاليا واليونان وتركيا ، فقد عرضت اسرائيل بالاتفاق مع ايران فكرة قيام جسر غربي الى البحر الأحمر والخليج ليكون منطلقا للتحكم في ثروة النفط العربية عند اللزوم • وحتى أولئك القادة العسكريين الذين كانوا يحذرون من مغبة اضعاف الروابط مع الدول العربية ،أصبحوا بين عشية وضحاها ملتزمين التزاما تاما بمساندة الدولة اليهودية • كما قامت عدة مؤسسات أمريكية خاصة بتقوية مركز اسرائيل في العالم بموافقة الحكومات المتعاقبة في أمريكا •وقامت أيضا اتحادات العمال والنقابات القوية الأمريكية ، ولا سيما تلك التي تمولها وكالة الاستخبارات الأمريكية بتشجيع الوجود الاسرائيلي في العالم الثالث ولا سيما في افريقيا ، اذ أنه حيثما وجدت اسرائيل ، وبالمثل الصين الوطنية ، ترحيبا فان المصالح الأمريكية لا تنعدم بل تتحقق بكلفة أقل • واذا ما أقدم أحد على انتقاد هذه السياسات بما تحمل في طيها من تخريب المصالح الأمريكية على المدى الطويل فان العديد من الأكاديميين « الموضوعيين » والمعلقين الصحفيين يسارعون الى دحض هذه

الدعوى واستبعاد هذا الاحتمال • فالشائع في أمريكا مثلا أن منتجي النفط ليسوا قادرين على اتخاذ أي اجراء موحد ودائم • كما أن مختلقي الأعذار لسياسة دعم اسرائيل ، بعد أن آمنوا تماما بالصورة الكاريكاتورية التي رسموها لأنفسهم عن العالم العربي يعتقدون أن منتجي النفط أو من يسمونهم شيوخ النفط سيضعون دائما مكاسبهم المادية قبل التزاماتهم القومية العربية • واذا ما حصلت معجزة ، في رأيهم ، وطبق العرب اتفاقيات المقاطعة ، فان اجراءات العرب ستضر بهم • وأخيرا ، للزيادة في تطمين المواطنين الأمريكيين بعدم أهمية الروابط الوثيقة مع العرب ، فان الشعب الأمريكي قد قيل له أن اعتماد أمريكا على نفط العرب هو من القلة بحيث أن أية محاولة عربية لاستعماله كسلاح سياسي سوف لا يكون لها أثر يذكر •

ولذا ، فلم يكن من المستغرب لهذه الاعتبارات ، أن الحكومة الأمريكية ، والشعب الأمريكي لم يكونا مستعدين مطلقا للمبادرة العربية في حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، كما صعقها استعمال العرب لسلاح النفط • وفي الحقيقة فان الاحداث قد تجاوزت ادراك الامريكيين على كثير من المستويات • فمن جهة ، دلت حرب فيتنام على افلاس الدور الذي مثلته أمريكا وهو دور بوليس العالم الذي يساعد العالم الحر • ومن جهة أخرى ، فان انتصار اسرائيل عام ١٩٦٧ قد أضاف سوسة جديدة في الضمير الدولي • فقد برزت اسرائيل التي احتلت مساحات شاسعة وأصبحت مفخرة للعالم الغربي وكأنها صورة حية للدولة البروسية الهيجيلية المنتصرة • وكانت هذه الصورة الجديدة التي تحمس لها معظم الاسرائيليين وأبطالهم الغربيين ، هي التي أثارت تساؤلات لم تكن متوقعة في تلك « القلعة الديمقراطية » المحاصرة « المعزولة » « المهددة » • وعندها قام زعماء سياسيون

يتمتعون بالاحترام ، مثل الرئيس جوليوس نيريري ـ رئيس تانزانيا ـ بمطالبة اسرائيل بالانسحاب من الأراضي المحتلة ٠

كما لم تكن أمريكا أو حلفاؤها الغربيون مستعدين لظهور « المواطن الفلسطيني » ، ذلك المواطن الذي أثبتت الهزيمة العربية وجوده ٠ فقد رفض الفلسطينيون الدور الذي أعد لهم ، ورفضوا « طي خيامهم » والاختفاء ثقافيا وجسديا اما ضمن المجموعة العربية الاسلامية أو كمجموعة أخرى من اللاجئين الذين فقدوا أرضهم ٠ لقد كان هذا الرفض أو المقاومة الذي استخلص الاعتراف العالمي بالوجود الوطني الفلسطيني هو الذي استدعى اثارة منطق الاستيطان ٠ فتحديات التحركات ، والمحاكمات أمام المحاكم العسكرية ، والمحاكمات والادانات الجماعية ، والطرد ، والمصادرات ، كلها أساليب قد سبق تجريبها في الجزائر وكينيا وجنوب افريقيا وعم تطبيقها في فلسطين ٠ ان تطبيق هذه الأساليب ، كما حدث في الاماكن الاخرى ، لم يفشل في تحقيق أغراضه فحسب ، ولكنه ساهم في ابراز قيادة وطنية فلسطينية أكثر تلاحما ، قيادة قبل بشرعيتها المجتمع العالمي في النهاية ، عدا بعض الاستثناءات ٠

وهناك تطور آخر ، ليس منفصلا تماما عن أحداث بداية السبعينات ، يوحي بالشمولية ويعطي الظواهر الاستيطانية أينما وجدت بعدا جديدا ٠ فقد دخل على العالم عهد جديد كانت بدايته تحديات ليبيا الموفقة لشركات النفط عام ١٩٧١ ٠ ان هذا الحدث لم يكن يدور في خلد أحد ، لا سيما اذا تذكرنا الثورات التي حرضتها أمريكا في غواتيمالا وفي ايران وفي غويانا وفي الكونغو في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات بقصد منع أية مواجهة بين المنتجين والمستهلكين سواء أكانت السلعة هي

الموز أو النفط أو البوكسايت أو اليورانيوم • وان اقدام الدول العربية المنتجة للنفط مبدئيا في غمرة حرب أكتوبر على الانضمام الى القوى المناهضة للاستيطان والاستعمار في افريقيا من خلال مقاطعة جنوب افريقيا وروديسيا والبرتغال ، هذا العمل كان نذيرا لامكانية تغير ذي مغزى في النظام العالمي • فلو استطاع النفط العربي المستقل عن المراكز الغربية ، وهذا احتمال يستبعده المنظرون ، أن يتوحد مع منتجي المواد الخام من افريقيا وآسيا وأمريكا اللاتينية ، في الوقت الذي يشتري التكنولوجيا من الغرب ، فان ذلك سيكون بالفعل بشير نظام عالمي جديد •

ان هذه المعالم للنظام العالمي الجديد سوف لا تكتب الفصل الأخير في حياة الدول الاستيطانية في جنوب افريقيا وروديسيا واسرائيل فحسب ، بل الفصل الأخير في حياة العالم الصناعي الغربي أيضا • وفي كلتا الحالتين ، فان المرغوب فيه ليس الفناء، بل البقاء والتوافق • فكما أن السكان التقليديين الأصليين لجنوب افريقيا وروديسيا وفلسطين لا يرغبون في طرد ولا تصفية أولئك الذين يوافقونهم على المشاركة في مصادر الأرض على أساس غير عنصري ، فكذلك الحال مع الدول المنتجة التي ينبغي أن تهدف الى تبادل متناغم ذي مغزى مع العالم الصناعي على أساس المساواة المتبادلة • وكما أن عالم المترفين والمعدمين لا يمكن أن يعيش في عزلة عن بعضهما ، فكذلك الحال مع مؤيدي المستوطنات الباقية الذين يجب أن يعدلوا من التزاماتهم • واذا كانت الظاهرة الاستعمارية الاستيطانية قد ارتبطت عضويا مع نمو العالم الغربي وتوسعه ، فان انهيارها النهائي سيعكس بلا شك نهاية عهد كما سيعكس ظهور توازن جديد في النظام العالمي • وأن هذا التوازن سيخفف اعتماده على الأيديولوجيات ويزيد اعتماده على واقع البقاء الذي يواجهه ثلاثة أرباع سكان العالم يوميا •

مصادر تاريخ جنوب الجزيرة العربية

ملاحظات حول بعض المخطوطات التاريخية المخزونة في المكتبة القومية بباريس

بقلم الاستاذ راضي دغفوس
قسم التاريخ بكلية الآداب والعلوم الانسانية
تونس

تحتوي المكتبة القومية بباريس في فرنسا على بعض المخطوطات التي تهم تاريخ جنوب الجزيرة العربية وخاصة منه تاريخ اليمن في الفترة الاسلامية .

وتعد هاته المخطوطات التاريخية جزءا لا يتجزأ من جملة المؤلفات العديدة التي تتعلق بتاريخ العرب وحضارتهم في جنوب الجزيرة العربية والتي نجدها منتشرة في مكتبات متنوعة عبر أنحاء العالم سواء في البلدان العربية بالذات كاليمن وعمان وحضرموت أو في البلدان الأوروبية وغيرها .

وقد رأينا من الصالح أن نعطي ولو فكرة عامة عن مختلف هاته المخطوطات المخزونة بباريس وأن نقدمها مع الاشارة الى طبيعتها ومحتواها وما الى ما يمكن استغلاله منها لدراسة فترات معينة من تاريخ جنوب الجزيرة العربية في العهد الاسلامي خاصة :

١ ـ فما هي اذن أنواع أو طبيعة هاته المخطوطات ؟

٢ ـ وما هو شكلها وأسلوب المؤرخين في تدوينها ؟

٣ ـ ما هي النواحي التي تتناولها بالبحث وكيف يمكن لنا استغلال محتواها ؟

٤ ـ من هم مؤلفوها وما هي شخصياتهم ؟

١ ـ نوعية المخطوطات :

لا شك أن المخطوطات التاريخية المشار اليها تمثل الشيء القليل من جملة المخطوطات المتعلقة بتاريخ كامل الجزيرة العربية وهذا لسببين :

أولا : من ناحية الكم فلا يبلغ عددها أكثر من ٤٠ أو ٥٠ مخطوطة بينما نجد المائات بل الآلاف من مثل هاته المخطوطات موزعة في أماكن مختلفة من العالم (كما أشرنا الى ذلك منذ قليل) ٠

ثانيا : من ناحية المحتوى فأغلب هاته المؤلفات تهم تاريخ اليمن ، خاصة في الفترة الأخيرة من القرون الوسطى ٠

ومهما يكن من أمر فيمكن لنا حصر هاته المصادر عن تاريخ جنوب الجزيرة في ٥ أنواع :

أ) المؤلفات العامة التي تهم التاريخ اليمني العام أو بالأحرى تاريخ الدول اليمانية التي تداولت الحكم منذ القرن الثالث الهجري (القرن التاسع الميلادي) ونذكر من جملتها حسب الترتيب الزمني :

ـ « بهجة الزمن في تاريخ اليمن » لابن عبد المجيد (٥٩٧٧)

وقد حققه بالقاهرة سنة ١٩٦٥ السيد مصطفى حجازي ·

ـ « الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الاسلام » لأبي حسن الخزرجي (٨٣٢١ﻫ) وما زال مخطوطا · ونحن بصدد تحقيق قسم من هذا الكتاب ·

ـ « قرة العيون في أخبار اليمن الميمون » لابن الديبع (٨٢١ﻫ ـ ٨٥٠ﻫ) ويقوم بتحقيقه ونشره القاضي محمد بن علي الأكوع وقد طبع أخيرا بالقاهرة سنة ١٩٧٧ ·

ب) المؤلفات التي تهتم بتاريخ معين لبعض الدول اليمانية نذكر منها ما يلي :

ـ « تاريخ بني رسول » لمؤلف مجهول (٩٠٦ﻫ) ، وقد حققه وطبعه بطوكيو سنة ١٩٧٦ المؤرخ الياباني Hikoichi - Yajima

ـ « مطالع النيران في تاريخ اليمن » وهو تاريخ للعثمانيين في اليمن في القرن العاشر الهجري (١٠٦٥ﻫ) لمؤلف يسمى أحمد بن يوسف بن محمد فيروز ولا نعرف تاريخ وفاته ·

ج) مؤلفات أكثر دقة لأنها خاصة بمدن معينة مثلا :

ـ « تاريخ صنعا اليمن » للرازي (٤٢٨ﻫ ـ ١٠٤٣ﻫ) وقد وقع تحقيقه ونشره بدمشق سنة ١٩٧٤م من طرف السيدين عبد الجبار زكار وحسين عبد الله العمري ·

ـ « بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد » لابن الديبع (٨٩٧ﻫ ـ ٩٦٠ﻫ) وقد نشر قسم منه المستشرق Johansen ولكنه يحتاج الى نشرة أخرى أكثر دقة ·

ـ « تاريخ ثغر عدن » لأبي مخرمة (٣٦٩ﻫ ـ ٢٦٠ﻫ) وقد حققه ونشره سنة ١٩٣٦ المستشرق O. Lofgreu بليدن

ونضيف الى هذا النوع من المؤلفات أرجوزة عن زبيد عنوانها « أحسن السلوك في نظم من ولي زبيد من الملوك » لابن الديبع (٥٨٣٢) وسنقوم بنشرها في « حوليات كلية الآداب بتونس » ٠

د) كتب الطبقات أو بالأحرى كتب التراجم ولنا منها :

ـ « كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك » للجندي (٢١٢٧) ونضيف اليه كتابا للأشرف الرسولي عنوانه : « كتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب » (٦٠٦٠) وقد حققه Zetterstein ونشره بدمشق سنة ١٩٤٩ ٠

هـ) خامسا : هناك مجموعة أخرى من المؤلفات العامة وجدنا فيها بعض الفصول الخاصة بتاريخ جنوب الجزيرة وشرقيها مثل :

ـ « مرآة الجنان » لليافعي (١٥٩٢) ٠

ـ « غربال الزمان » للعامري (١٥٩٣) ٠

ـ « أخبار الدول » للقرماني (٥٩٨٠) ٠

ـ « تاريخ ينسب الى مسلم اللحجي » (٥٩٨٢٠) ٠

(وقد أثبت المستشرق Madelung أنه يكون الجزء الرابع من كتاب « روضة الأخبار » الحاجوري) (٧ ـ ١٣) ٠

وقد وجدنا كذلك مخطوطة فيها مجموعة كتب تهم تاريخ اليمن وهي من تأليف عز الدين محمد بن يحيى بن الحسين بن عبد الله الحسيني (٦١٢٨) وفيها :

ـ مآثر الأبرار في تفصيل مجملات جواهر الأخبار ٠

ـ اللواحق النادية للحدائق الوردية ٠

ثم قصيدة « البسمات الصغرى » من تأليف بدر الدين محمد

ابن علي بن يوسف بن علي بن الرهيف الفريد . وهي قصيدة مهداة للامام الزيدي عز الدين بن الحسن (١٤٩٤ ـ ١٤٧٤ / ٩٠٠ ـ ٨٧٩) وفيها عرضا ملخصا لتاريخ اليمن حتى سنة (١٥٠٨ / ٩١٤) .

ـ « ملحق للبسمة » لسرم الدين داود بن الهادي بن آحمد بن المهدي بن عز الدين بن الحسن بن علي بن المؤيد بن جبرائيل .

كما توجد نسخة مخطوطة لكتاب ابن المجاور : « تاريخ المستبصر » (٦٠٢١) الذي حققه Lofgren ونشره في ليدن سنة ٥٤ ـ ١٩٥١ .

ومخطوطة عنوانها « فتوح اليمن » لأبي الحسن علي بن أحمد بن عبد الله البكري (١٨١٦) وهي عبارة عن أسطورة تاريخية لفتح اليمن من طرف علي بن أبي طالب .

وأخيرا لا بد لنا أن نشير الى نوع أخير من المؤلفات يقع ضمن « مجموعة رسائل » متبادلة بين السلاطين في مصر وفي نواحي أخرى من العالم الاسلامي خاصة في جنوب الجزيرة العربية (٤٤٤٠) ويقوم الدكتور أحمد دراج بنشر كل هاته المجموعة التي تشتمل على ما يقارب المائة رسالة ـ وطبعا هناك مخطوطات أخرى تهم مثلا تاريخ عمان : تاريخ عمان (٥١٢٦) ـ الفتح المبين (٤٨٥٣) .

٢ ـ طريقة تدوين هاته المؤلفات :

ما هو الأسلوب الذي اتبعه المؤلفون في وضع كتبهم التي كنا بصدد ذكرها وتقديمها ؟ .

اذا ألقينا نظرة ملية على كل هاته المؤلفات التاريخية التي طبع البعض منها وما زالت البقية مخطوطة ـ (ونتمنى آن تحقق

وتنشر في أقرب الآجال لكي يتمكن المهتمون بتاريخ الجزيرة العربية عامة وتاريخ اليمن خاصة من استغلالها) ـ لوجدنا أنها دونت حسب طرق مختلفة وأساليب متنوعة ـ وفيما يلي نذكر بعض أمثلة لذلك :

أ) ـ أولا : الأسلوب الكلاسيكي المعهود الذي نجده في كتب التاريخ العامة وفي العديد من البلدان الاسلامية منذ القرن الثاني والثالث (مثلا : تاريخ الرسل والملوك للطبري ـ تاريخ خليفة بن خياط ...) : وهو أسلوب الحوليات (Annales) الذي يعتمد على ذكر الأحداث والتعليق عليها سنة بعد سنة . ونذكر من بين المخطوطات الموضوعة على هذا المنوال كتابه اليافعي « مرآة الجنان وعبرة اليقظان في معرفة حوادث الزمان وتقلب أحوال الانسان » : وهو عبارة عن تاريخ عام لمدة طويلة من الزمن تمتد من السنة الأولى للهجرة حتى نهاية القرن الرابع (٤٠٠ ـ ١٠٠٩) بالنسبة للجزء الأول ومن سنة (٤٠٠ ـ ١٠٠٩) الى سنة (٧٥٠ ـ ١٣٤٩) بالنسبة للجزء الثاني .

نذكر كذلك كتاب العامري (١٨٩٧ ـ ١٤٩١) « غربال الزمان في وفيات الأعيان » وهو مختصر لتاريخ اليافعي يؤرخ لنفس الفترة الزمنية .

ورغم أن هذين الكتابين لا يهمان تاريخ الجزيرة العربية بصفة مباشرة فنجد فيهما أشياء تهم خاصة الجانب السياسي والحزبي لذلك التاريخ .

ولعل أحسن مؤلف يماني يتبع هذا الأسلوب هو يحيى بن الحسين صاحب كتاب « غاية اليماني في أخبار القطر اليماني » (١٦٨٩ ـ ١٦٢٥ / ١١٠٠ ـ ١٠٣٥) .

ب) ثانيا : الطريقة التي اعتمدها بعض المؤرخين للتدوين

لا حسب السنين بل حسب الدول والشخصيات ولعل هذا الأسلوب هو الذي أصبح رائجا في جنوب الجزيرة العربية منذ القرن الثالث الهجري أي في عهد الدول المستقلة عن النظام المركزي (في بغداد) ٠

ومن جملة المؤلفات المدونة على هذا المنوال نذكر خاصة كتاب الجندي « السلوك في طبقات العلماء والملوك » وهو عبارة عن مؤلف يدرس فيه صاحبه تاريخ اليمن منذ بداية الاسلام حتى سنة (٧٢٣ ـ ١٣٢٣) وينقسم هذا الكتاب الى عدة أقسام٠ ففي القسم الأول نجد الجندي يذكر لنا الرسول وأهم العلماء والفقهاء الذين عاصروه ودخلوا اليمن في أيامه ثم يأتي لذكر طبقات العلماء والفقهاء في عهد الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس الى أن يصل بنا المؤلف الى سنة (٧٢٠ تقريبا ـ ١٣٢٠) ٠

والى جانب هذا الكتاب يمكن لنا أن نذكر ٣ أو ٤ أمثلة لكتب تاريخية نسجت على هاته الطريقة :

ـ كتاب ابن عبد المجيد : « بهجة الزمن في تاريخ اليمن » وهو كتاب يحتوي على ما يقارب العشرين فصلا يذكر فيه صاحبه بعض المعلومات عن اليمن وفضله قبل أن يأتي الى ذكر ولاة النبي (صلعم) ثم ولاة الراشدين والأمويين والعباسيين ـ وقد ركز اهتمامه بعد ذلك لدراسة الدول المستقلة التي قامت باليمن منذ القرن الثالث الهجري (ونذكر منها دولة بني زياد ـ دولة بني نجاح ـ ودولة بني زريع وبني مهدي الى غير ذلك) وأخيرا نجد دراسة أكثر تفصيلا للدولة الرسولية التي عاصرها ابن عبد المجيد ، والملاحظ أن هذا القسم الخاص بالرسوليين يساوي ما يقارب نصف الكتاب ٠

ـ كتاب الخزرجي : « الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملوك الاسلام » وهو كتاب مبني على نفس الأسلوب بحيث يبتديء المؤلف بذكر اليمن ومن ملك صنعا وعدن وفيه ١٠ فصول الى أن يصل الى باب آخر فيه ١٢ فصلا وهو عبارة عن دراسة خاصة لزبيد وأمرائها وملوكها ووزرائها ـ ومما تجدر الاشارة اليه أن هذا الكتاب المعروف « بتاريخ الخزرجي » لا يحتوي الا على البابين الرابع والخامس ولا نعرف شيئا عن الأبواب الثلاثة الأولى له ٠

ـ كتاب ابن الديبع : « قرة العيون في أخبار اليمن الميمون » وهو يشتمل على ثلاثة أبواب وكل باب ينقسم الى عدة فصول وقد درس فيه المؤلف أولا : اليمن من بداية الاسلام حتى القرن الثالث لهجري ٠ وثانيا : الدول المستقلة منذ القرن الثالث حتى القرن العاشر ٠ وقد خصص الجزء الأكبر منه لدراسة تاريخ زبيد في عهد بني رسول وبني ظاهر ٠

من الكتب الأخرى التي دونت على هاته الطريقة نذكر أيضا كتابا آخر لابن الديبع عن زبيد : « بغية المستفيد » وهو دراسة عامة لتاريخ هاته المدينة منذ تأسيسها سنة (٢٠٤ ـ ٨١٩) حتى سنة (٩٠١ ـ ١٤٩٥) ـ ثم كتاب الرازي « تاريخ مدينة صنعا اليمن » وهو من أقدم الكتب نظرا لأن مؤلفه عاش في القرن الخامس وتوفي بعد سنة (٥٠٠ ـ ١١٠٦) ويصل فيه الرازي الى سنة (٤٦٠ ـ ١٠٦٧) وقد ذكر لنا المؤلف في المقدمة أن هذا الكتاب يناسب الجزء الثاني من تاريخه العام ولا ندري أين هو الجزء الأول وما هو محتواه ـ ثم كتاب أبي مخرمة : « تاريخ ثغر عدن » ٠

ج) الأسلوب الثالث هو تدوين التاريخ شعرا عن طريق

القصائد والأراجيز ـ ونذكر في هذا المضمار أرجوزة ابن الديبع « أحسن السلوك في نظم من ولي زبيد من الملوك » وتقع هاته الأرجوزة في ١١٩ بيت ـ وهي عبارة عن تاريخ موجز جدا لمدينة زبيد منذ تأسيسها الى عهد الملك الطاهري عامر بن عبد الوهاب وقد وجدنا كذلك ضمن المخطوطات المحفوظات في مكتبة باريس قصيدة أخرى تسمى « البسمات الصغرى » وفيها ذكر لتاريخ ملوك اليمن حتى سنة (٩١٤ ـ ١٥٠٨) وملحق لهاته القصيدة ٠

د) رابعا : أما بقية المؤلفات المشار اليها سابقا فلا تخضع لأسلوب آخر معين ما عدا كتاب الأشرف الرسولي « طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب » الذي يمكن لنا أن نضعه ضمن الكتب التي درس فيها أصحابها الشخصيات وهو مؤلف جاء على منوال كتب الأنساب المعهودة مثل « جمهرة أنساب العرب » لابن حزم أو « نهاية الارب في معرفة أنساب العرب » للقلقشندي وهو مؤلف مفيد جدا لمعرفة الأنساب في جنوب الجزيرة العربية ٠

٣ ـ ما هي الجوانب التي تتناولها هاته المؤلفات بالدرس :

الملاحظة الأولى التي يمكن لنا أن نشير اليها في هذا المجال هو أن أغلب هاته الكتب تهم جانبا واحدا ألا وهو الجانب السياسي والحربي ـ ولا نجد فيها الا بعض اشارات نادرة للجوانب الأخرى التي لا ينبغي علينا أن نتجاهلها : أعني الجانب الاجتماعي والاقتصادي من ناحية والجانب الثقافي والديني من ناحية أخرى ٠

ثم ان جل هاته المؤلفات تعطينا معلومات أكثر دقة عن الدول المتأخرة التي قامت في جنوب الجزيرة العربية ٠

وهذا يعني أن دراسة تاريخ الجزيرة في القرون الأولى للاسلام صعبة جدا نظرا لأن كل المؤلفين الذين ذكرناهم في سياق الحديث عاشوا في القرون الوسطى الأخيرة (القرن السابع والثامن والتاسع من الهجرة) • وأقدم كتاب في هاته المجموعة هو كتاب الرازي ـ تاريخ صنعا اليمن ـ بحيث أن كل الأحداث السياسية والحربية المنقولة والمدونة في هاته الكتب تهم الدول التي عاصرها المؤلفون وخاصة منها دولة الرسوليين ودولة بني طاهر فيما يخص اليمن ـ أو الفترة التركية فيما يخص البلدان الاخرى كعمان مثلا •

بينما لا نجد الا معلومات عامة تكون في أكثر الأحيان مجرد سرد للأحداث وذكر لأسماء الولاة والامراء والذين حكموا جنوب الجزيرة العربية أثناء القرون الثلاثة الأولى للهجرة (أي عندما كانت الجهة تحت ظل الخلافة الاسلامية وتحكم عن طريق ولاة مبعوثين من طرف النظام المركزي) •

ويرجع كل هذا في الحقيقة الى عدم وجود ممارسة للكتابة التاريخية من طرف المؤرخين اليمانيين وغيرهم قبل القرنين الرابع والخامس للهجرة •

وهنا نقف برهة زمنية لنتعرض بايجاز لمصادر هؤلاء المؤلفين ومراجعهم التي اعتمدوا عليها لتصنيف ووضع مؤلفاتهم التاريخية ـ ذلك لأن تلك المصادر من شأنها أن تعطينا فكرة عن مستوى الكتابة التاريخية في الجزيرة العربية بصفة عامة •

فمما لا شك فيه أن أغلب هؤلاء المؤلفين والمؤرخين قد اعتمدوا في وضع كتبهم على كتب التاريخ القديمة التي كانت معروفة آنذاك خاصة منها تآليف الطبري (تاريخ الرسل

والملوك) واليعقوبي وغيرهم • بحيث يمكن اعتبار المعلومات التي يفيدوننا بها عن الفترات الأولى للاسلام في جنوب الجزيرة العربيـــة بصفـــة عامـــة معلومـــات ثانوية (De Seconde Main) ثم انها شحيحة من ناحية الكم وواهية في بعض الأحيان من ناحية الكيف •

هنالك أيضا مراجع ومصادر أخرى اعتمدوا عليهـــا وهي طبعا كتب الفقه والدين والحديث • ومن الجدير بالذكـــر أن واضعي الكتب المشار اليها قد يتعرضون في مقدمات تآليفهم الى أهم الكتب التي استعملوها أو على الأقل نقلوا عليهـــا بعض الأحداث المعنية وبعض الاقوال الرائجة عن بلدانهم وأوطانهم وسنرجع الى ذلك عندما نتحدث عن ابن الديبع والخزرجي •

وكيف يمكن لنا اذن استغلال هاته المؤلفات بصفة موضوعية ؟

من المعلوم أن الباحث عندما يطلع على مؤلف ما يجب عليه أن لا يأخذ بصفة قطعية كل ما يجده مدونا بل من الواجب عليه أن يقارن ذلك بما يجده في الكتب الأخرى وفي المؤلفات التاريخية الأخرى بصفة أدق وذلك لكي يتسنى له ضبط الحقيقة واظهار مدى تحيز المؤرخ الفلاني لدى شق معين أو مدى تجاهله لبعض النقاط دون الأخرى وأسباب ذلك •

وهذا طبعا يدخل في نطاق البحث عن الحقائق التاريخيـــة التي ربما لا نجدها مسرودة وبوضوح في كل المؤلفات • ثم ان الباحث مطالب كذلك بمعرفة الوسط الذي عاش فيه كل مؤلف لكي يلم بشخصية المؤلفين ويضبط كل ما من شأنه أن يرشده عن البيئة التي نشأ فيها المؤلف ووضع فيها تآليفه •

ولهذا السبب رأينا من الصالح أن نتعرض بايجاز الى هذه النقطة ·

٤ ـ شخصية مؤلفي المخطوطات المذكورة أعلاه :

ليس في نيتنا أن ندرس شخصية كل المؤلفين والمؤرخين الذين ذكرنا أسماءهم وعناوين مؤلفاتهم في سياق الحديث ولكننا سنقتصر على مثال واحد أو مثالين لكي نبرز العلاقة بين المؤلف والتأليف من ناحية وبين ما يقال ويسرد من أحداث والحقيقة التاريخية كما يمكن لنا ضبطها بعد بحث وتدقيق ومقارنات عديدة من ناحية أخرى ·

أ) أولا : أبو الحسن الخزرجي :

هو موفق الدين أبو الحسن بن أبي بكر ابن الحسن ابن علي ابن وهاس الخزرجي عاش في القرن الثامن وتوفي سنة (٨١٢ ـ ١٤١٠) وهو من مواليد زبيد باليمن ومن كبار مؤرخي اليمن ·

وقد خلف لنا هذا المؤرخ العديد من المؤلفات التاريخية عن بلده نذكر من جملتها :

ـ « المسجد المسبوك والجوهر المحبوك في أخبار الخلفاء والملوك » وهو عبارة عن تاريخ عام مرتب على السنوات يحتوي على قسمين ذكر فيه الخزرجي سيرة الرسول كما ذكر الخلفاء الراشدين وخلفاء بني أمية وبني العباس (القسم الأول) ثم تعرض بعد ذلك لذكر ملوك مصر والشام وافريقيا والقيروان والأندلس والمغرب وصنعاء وعدن وزبيد ·· وقد اعتمد عليه ابن الديبع عندما وضع كتابه « قرة العيون » ·

ـ « الكفاية والاعلام فيمن ولي اليمن وسكنها من ملـوك الاسلام » الذي يعرف بتاريخ الخزرجي ولنا منه الباب الرابع والخامس اللذين يغطيان تاريخ اليمن من العهد النبوي الى القرن التاسع .

ثم ان الخزرجي شهر كذلك بكتابه « العقود اللؤلوئية في تاريخ الدولة الرسولية » الـذي ترجمه الى الانجليزية العالم (Nicholson) سنة ١٩٠٦ ونشر في القاهرة بالعربية سنـة ١٩١١ في ٣ أجزاء .

ومما تجدر الاشارة اليه أن الخزرجي اعتمد في وضع كتبه على عدة مؤرخين وعلماء سبقوه نذكر من بينهم ابـن عبـد المجيد ـ الرازي ـ الجندي ـ الأزرقي صاحب أخبار مكـة ـ الهمداني البيهقي صاحب دلائل النبوة الى غير ذلك .

ويعد الخزرجي مؤرخ الدولة الرسولية التي عاصرها والتي حكمت قسما من اليمن من سنـة (٦٢٦ ـ ١٢٢٩) الى سنـة (٨٥٨ ـ ١٤٥٤) .

ب) ثانيا ـ ابن الديبع :

هو وجيه الدين عبد الرحمان بن علي بن محمد بن عمـر الشيباني المعروف بابن الديبع وهو من مواليد زبيد ولد سنة (٨٦٦ ـ ١٤٦١) وتوفي سنة (٩٤١ ـ ١٥٣٧) ومن حسن الحظ فقد خلف لنا ابن الديبع في خاتمة كتابه « بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد » ترجمة ذاتية من شأنها أن تطلعنا على بعض جوانب شخصيته . وجاء على ضوء هاته الترجمة أن مؤلفنا نشأ مدة

هامة من حياته في زبيد وتربى أولا في حضن جده لأمه وذلك لأنه فقد أباه في الهند ـ [ويعلمنا أنه لم يره قط] ـ وسنه آنذاك لا تتجاوز العاشرة (٨٧٦ ـ ١٤٧٣) · ثم نجده في حضن خاله الذي اهتم بتربيته بعد موت جده ·

وقد ذكر لنا ابن الديبع في ترجمته أنه أخذ العلم عن شيوخ وعلماء متعددين نذكر من بينهم الشرجي والسخاوي ودرس عنهم علوم متنوعة مثل الفقه والقرآن والحديث والحساب الى غير ذلك ·

وقد أداه اطلاعه وتعلمه الى التنقل خارج زبيد اذ أنه زار خاصة الحجاز حيث أدى واجب الحج ثلاثة مرات على الأقل سنة (٨٨٣ ـ ١٤٧٩) و (٨٨٥ ـ ١٤٨١) و (٨٩٧ ـ ١٤٩١) ، كما أنه زار كذلك بيت الفقيه ابن عجيل حيث تمكن من الاتصال ببعض الفقهاء وأخذ عنهم علوم الفقه والدين ·

ومن الأشياء الهامة التي ذكرها لنا ابن الديبع في ترجمته انه أقام مدة زمنية في بلاط السلطان الطاهري عامر بن عبد الوهاب في مدينة المقرانة وقد استقبل خير الاستقبال وأكرم من طرف هذا الأخير الذي عين لنا في آخر اقامته قراءة الحديث في جامع زبيد ·

وفيما يتعلق بآثاره العلمية فقد خلف لنا ابن الديبع العديد من المؤلفات التاريخية والدينية وصلنا البعض منها بينما لم نعثر على البقية ·

واذا اطلعنا بدقة على تصانيفه التاريخية لرأينا آن ابن

الديبع أرخ خاصة لمواطنه زبيد مما يجعلنا نعتبره بحق « أنموذج المؤرخ المحلي » لكن هذا لا يعني أن مؤلفاته لا تهم جنوب وشرق الجزيرة العربية فنجد فيها بالعكس بعض اشارات وتلميحات من شأنها أن تعيننا على تكوين فكرة ولو عامة على تلك البلدان ·

ومن ناحية أخرى فابن الديبع بقطع النظر عن مؤلفاته فهو شاهد عيان ازاء قضيتين هامتين آنذاك في القرن العاشر ·

أولا : مشكلة دخول الجراكسة الى اليمن في آخر أيام بني طاهر وقضائهم على الدولة الطاهرية التي عاش في ظل آخر سلطان لها · وينبغي للمؤرخين المهتمين بتاريخ هاته الفترة أن يعتمدوا على ما قاله ابن الديبع حول هذا الحدث الهام ·

ثانيا : عاصر كذلك ابن الديبع الدولة الزيدية التي كانت تحكم قسما هاما من اليمن منذ سنة (٢٨٤ ـ ٩٥٨) ومن المعلوم أن موقفه ازاء الزيديين لمن الأهمية بمكان خاصة وأنه كان شافعي المذهب بينما كان الزيديون شيعة ثم انه زبيدي منحاز نوعا ما الى النظام الطاهري الذي يزعم أنه يمت بصلة الى الأمويين ·

بقي لنا قبل أن نتم الكلام حول ابن الديبع أن نشير ولو بايجاز الى مراجعه التاريخية التي اعتمد عليها لوضع مؤلفاته ـ فمن جملة المؤلفين الذين ذكرهم لنا في مقدمة تآليفه نشير الى الجندي ـ ابن عبد المجيد ـ الخزرجي ـ عمارة اليمني ـ ابن سعرة ـ الأهدل ـ ابن المجاور ـ البيهقي ـ الشريف ادريس الى غير ذلك ـ وهذا يعني أن مؤلفاته التاريخية يمكن لنا أن نأخذها بعين الاعتبار الى حد ما خاصة فيما يخص القرنين التاسع والعاشر

اللذين أعطانا عنهما أخبارا أكثر تفصيلا ودقة من القرون الأخرى ·

وعلى العموم يمكن القول أن ابن الديبع والخزرجي اللذين أخذناهما على سبيل المثال في حديثنا عن شخصية المؤرخين بالرغم من أهمية المؤلفات التي خلفاها لنا فلا ننسى أنهما ينتميان الى « طبقة » معينة ألا وهي الطبقة الأرستقراطية ـ ونفس الملاحظة تتعلق بعدة مؤلفين ومؤرخين آخرين ـ ثم ان لهما نزعات شخصية ومواقف طبقية لا ينبغي علينا أن نتجاهلها خاصة اذا أردنا دراسة بعض قضايا مثل « الحركات الشعبية » أو الحركات الثورية التي قامت في جنوب الجزيرة منذ القرن الأول والثاني ونعني بالخصوص الخوارج ـ القرامطة ـ العلويون ·

كذلك ان مواقفهما السياسية والدينية ـ وهذا يتعلق أيضا ببقية المؤلفين المذكورين آنفا ـ من الواجب على الباحث أن يدققها اذا أراد اظهار الحقيقة التاريخية غير المشوهة ·



ومهما يكن من أمر فان معرفة كل المخطوطات التي كنا بصدد تقديمها والتعليق على محتواها وعلى مؤلفيها من شأنها أن تدعم معرفتنا لأطوار معينة من تاريخ جنوب الجزيرة العربية في العهد الاسلامي ـ كما تمكننا من سد بعض الفراغ في تاريخنا وحضارتنا بصفة عامة ·

المراجع والمصادر

أولا المراجع والمصادر العربية

ــ ايمن فؤاد سيد : مصادر تاريخ اليمن في العصر الاسلامي القاهرة ١٩٧٤ .

ــ عبد العزيز الدوري : بحث في نشأة علم التاريخ عند العرب بيروت ١٩٦٠ .

ــ عمر رضا كحالة : معجم المؤلفين (١٥) جزء دمشق ١٩٥٧ ــ ١٩٦١ .

ــ الزركلي : الاعلام خمسة عشرة جزء القاهرة ١٩٥٤ ــ ١٩٥٩ .

ــ حاجي خليفة : كشف الظنون / جزءان .

ــ اسماعيل باشا : هدية العارفين جزءان استانبول ١٩٥١ ــ ١٩٥٥ .

ــ عبد الله محمد الحبشي : مراجع تاريخ اليمن دمشق ١٩٧٢ .

ــ احمد حسن شرف الدين : تاريخ الفكر الاسلامي في اليمن القاهرة ١٩٦٨ .

ــ حسن سليمان محمود تاريخ اليمن السياسي في العصر الاسلامي بغداد ١٩٦٩ .

ــ القاضي اسماعيل بن علي الاكوع : اضواء على مؤلفات الخزرجي. مجلة المؤرخ العربي عدد ٤ .

ــ ابو مخرمة : تاريخ ثغر عدن ليدن ١٩٣٦ انظر كذلك طبعة بغداد بالاوفست .

ــ ابن المجاور : صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز ليدن ١٩٥١ .

ــ عمار اليمني : « المفيد في اخبار صنعاء زبيد » انظر طبعة القاهرة ١٩٦٧ و ١٩٧٧ .

ـــ ابن الديبع : ـــ « بغية المستفيد في اخبار مدينة زبيد » ـــ انظر النسختين المخطوطتين بمكتبة باريس تحت رقمي ٥٨٩٧ ، ٦٠٦٩ .

ـــ « احسن السلوك في نظمي من ولى زبيب من الملوك » ـــ انظر المخطوطتين رقم ٥٨٣٢ ، ٦٠٦٩ بباريس .

ـــ « قرة العيون في اخبار اليمن الميمون » . انظر المخطوطتين رقم ٦٠٥٨ ، ٥٨٢١ بمكتبة باريس .

ـــ ابن عبد المجيد : « بهجة الزمن في تاريخ اليمن » . انظر مخطوطة باريس رقم ٥٩٧٧ .

ـــ الرازي : « تاريخ صنعاء اليمن » . راجع مخطوطتي باريس رقم ١٦٤٣ ، ٥٨٢٤ .

ـــ الجندي : « كتاب السلوك في طبقات العلماء والملوك » ـــ مخطوطة باريس رقم ٢١٢٧ .

ـــ الاشرف الرسولي : « كتاب طرفة الاصحاب في معرفة الانساب » دمشـــق ١٩٤٩ .

ـــ يحيى بن الحسين : « غاية الاماني في اخبار القطر اليماني » . جزءان القاهرة ١٩٦٨ . تحقيق الدكتور سعيد عبد الفتاح عاشور .

ثانيا المصادر الاجنبية :

DE SLANE; Catalogue des manuscrits arabes de la B.N. Paris 1883.

E. BLOCHET: Catalogue des manuscrits arabes des nouvelles acquisicions Paris, 1929.

Supplement du catalogue des manuscrits arabes.

BROCKELMANN: G. A. L. Leiden - 2 Vol. I (1943) II (1949). Supplement. I (1937) II (1938) - III (1942).

S. LANE. POOLE: Mohammaden dynasties. Paris, 1925.

Encyclopedie de l'Islam. Voir les articles Yemen et Zabid (A.E) Ibn al Dayba' etc... (N.E.).

حروب الفجار : أسبابها ونتائجها

عبد الجبار منسي العبيدي
كلية التربية ـ فرع التاريخ
جامعة بغداد



الفجار بكسر الفاء، بمعنى المفاجرة ، كالقتال والمقاتلة وذلك أنه كان قتالا في الشهر الحرام ، ففجروا فيه جميعا فسمي الفجار (١) • والتسمية جاءت من وقوع هذه الحروب في الشهور التي يحرمون فيها سفك الدماء وهي أربعة : رجب وذو القعدة وذو الحجة والمحرم (٢) • وهي فجاران الأول ثلاثة أيام وهي ليست حربا بالمعنى المعروف لهذه الكلمة ، انما كانت مناوشات ومهاترات وقعت لأسباب عرفية تافهة وبسيطة انتهت اما

(١) ابن هشام . السيرة ، مجلد ١ ، ص ١٨٤ . السهيلي : الروض الانف ، ج١ ، ص ٢١١ . عبد الرحمن الوكيل .

(٢) اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ١١٠ . الازرقي : اخبار مكة ، ص ١٩٢ . السهيلي : الروض الانف ، ج١ ، ص ٦٣ ــ ٦٤ .

بالمصالحة والتراجع أو باحتمال دماء القتلى (١) .

ففي اليوم الأول ، وقعت الخصومة بسبب تطاول بدر بن معشر الغفاري وهو من كنانة على الناس بأن جلس بعكاظ في الموسم والعرب مجتمعة فيه فمد رجله وقال : « أنا أعز العرب فمن زعم أنه أعز مني فليضربها بالسيف » . ونتيجة لهذا التحدي وثب عليه رجل من هوازن اسمه الأحمر بن هوزان فضربه بالسيف على ركبته فقطعها ، فتحاور الحيان أهل الضارب والمضروب حتى كاد أن يكون بينهما الدماء ، لكنهم تراجعوا بعد أن عرفوا أن المشكلة بسيطة ولا تستحق الخصومة والقتال (٢) ، حتى ان ابن الأثير لم ير في ذكره أمرا يستحق الذكر (٣) .

وفي اليوم الثاني ، وقعت الخصومة والقتال بسبب عبث شباب من قريش وكنانة بامرأة من بني عامر بن صعصعة كانت جميلة ووسيمة وعليها برقع ، فأرادوا كشف برقعها فامتنعت فثارت ونادت الى عامر ونادى الشباب قومهم ، فالتحموا في قتال عاطفي لا يستدعي ذلك ، فوقعت بينهم دماء يسيرة انتهت بتوسط حرب بن أمية والحارث بن أمية باحتمال دماء القوم ودفع الدية (٤) .

---

(١) ابو الفضل ابراهيم : أيام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٢ ، جواد علي : المفصل في تاريخ العرب ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٠ .
(٢) الاصفهاني : كتاب الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٦١ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص ٢٥١ .
أبو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٠ — ٣٨١ .
(٣) ابن الاثير : الكامل ، مجلد ١ ، ص ٥٨٨ .
(٤) الاصفهاني : الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٦٢ .
ابو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٤ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨١ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص ٢٥٢ .

أما اليوم الثالث فوقع بسبب رجل من كنانة كان عليه دين لرجل من بني هوازن ولم يعطه شيئاً منه ، ولما لم يجد بداً من تحصيل هذا الدين جاء بقرد الى سوق عكاظ ونادى : من يبيعني بمثل هذا القرد بما لي على فلان بن فلانة الكناني ، فأغاظ الأمر رجلا من كنانة فضرب القرد بالسيف وقتله فاشتبك الطرفان ، كنانة وهوازن حتى تحاجزوا ولم يقع بينهما قتلى فأصلح عبد الله بن جداعان ، أحد أثرياء مكة بينهما (١) ·

أما الفجار الثاني فخمسة أيام وقعت في أربع سنين وكانت بعد الفيل بعشرين سنة ، وبعد موت عبد المطلب باثنتي عشرة سنة ، وانتهت سنة ٥٨٩م (٢) ·وتذكر المصادر أن الرسول (ص) حضر يوم عكاظ مع أعمامه وكان يناولهم النبل ، قال ابن هشام : قال رسول الله (ص) كنت أنبل على أعمامي ، أي أرد عليهم نبل عدوهم اذا رموا بها (٣) · وقد اختلفت المصادر في تحديد عمر الرسول وقت وقوع هذه الحرب ، فبينما يذكر ابن هشام أن عمره كان ١٤ ــ ١٥ سنة ، يخالفه اليعقوبي فيذكر أن عمره كان بين ١٧ ــ ٢٠ سنة ، أما صاحب الأغاني فيؤكد أن عمره كان أربع عشرة سنة (٤) ·

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، مجلد ١ ، ص ٥٨٨ ــ ٥٨٩ .
الاصفهاني : كتاب الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٦٢ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨١ .
ابو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٥ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٥ ، ص ٢٥٢ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، مجلد ١ ، ص ٥٨٩ .
ابو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٢ .
الاصفهاني : الاغاني ، مجلد ٢٢ ، ص ٦٣ .
(٣) ابن هشام : السيرة ، المجلد ١ ، ص ١٨٦ .
(٤) ابن هشام : السيرة ، المجلد ١ ، ص ١٨٤ ــ ١٨٧ .
اليعقوبي : تاريخ اليعقوبي ، ج٢ ، ص ١٥ .
الاصفهاني : الاغاني ، مجلد ٢٢ ، ص ٦٣ .

والأرجح أن هذه الحروب بدأت والرسول عمره ١٤ سنة وانتهت وهو في التاسعة عشرة أو العشرين ٠

كان الذي هاج هذه الحروب رجلا خليعا سكيرا فاسقا هو البراض بن قيس بن رافع الكناني (١) ٠ أتعب قومه فخلعوه وتبرأوا منه ، وصار يتنقل من قبيلة الى أخرى يطلب الحماية والجوار ، لكن الجميع لفظوه وتعبوا منه فذهب الى مكة مستجيرا بحرب بن أمية ، فحالفه وأحسن جواره ، ولربما أن اجارته من قبل حرب بن أمية كانت فيها مصلحة له لاثارة الخلافات مع مجموعة قبائل قيس عيلان لانتزاع السيطرة منهم على طريق العراق التجاري مع الحجاز ٠ لكنه شرب وعاد سيرته الأولى فخلعه حرب فخرج من مكة وذهب الى الحيرة عارضا على النعمان ابن المنذر حمايةلطيمته التي كان يرسلها كل عام الى عكاظ (٢) ٠ وعندما سمع بذلك عروة الرحال وهو يومئذ رجل هوازن (٣)، احتقره وطلب من النعمان أن يجير هو لطيمته فقبل النعمان ، لكن البراض تعقبه وغافله وقتله واستاق اللطيمة الى مكة ولما بلغ هوازن وكنانة مقتل عروة هاج الطرفان واشتبكا في قتال استمر في أربع سنين ، وكانت أيامه خمسة هي : يوم نخلة ، وشمطة والعبلاء وعكاظ والحريرة ، انتهت هذه الحرب بالصلح وعودة العلاقات بين كنانة وقيس عيلان كما كانت في السابق (٤) ٠

ولا بد لنا من استعراض هذه الأيام الخمسة لنبين دور ثقيف

---

(١) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٢٨٦ ، تحقيق : عبد السلام هارون .
أبو الفضل : ايام العرب ، ص ٣٢٦ .
(٢) ابن الاثير : الكامل ، مجلد ١ ، ص ٥٩٠ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨١ — ٣٨٢ .
(٣) ابن حزم : الجمهرة ، ص ٢٨٦ .
(٤) ابن الاثير : الكامل ، مجلد ١ ، ص ٥٩٠ — ٥٩٥ .
ابو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٦ ، ٣٣١ ، ٣٣٣ ، ٣٣٤ ، ٣٣٧ .
الاصفهاني : الاغاني ج ٢٢ ، ص ٦٤ — ٧٩ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج ٥ ، ص ٢٥٦ — ٢٥٨ .

في هذه الحروب وسبب اشتراكها فيها ·

فقد سمي اليوم الأول « يوم نخلة » نسبةً الى موقع نخلة الذي وقع فيه القتال ، وهو موضع على ليلة من مكة فيها نخل وكروم (١) · وقعت هذه الحرب بعد سماع هوازن بمقتل عروة الرحال من قبل البراض بن قيس ، وكان نتيجة القتال آن دخلت قريش الحرم بعد أن أدركت هزيمتها حتى تأمن به ، واعتبر هذا اليوم من أيام قيس عيلان على كنانة وقريش (٢) ·

أما اليوم الثاني فهو يوم شمطة وهو نسبة الى موضع قريب من عكاظ (٣) · وترأس المقاتلين سادات ذلك الوقت المعروفون · فعلى كنانة كلها « حرب بن أمية » ومعه عبد الله بن جدعان وهشام بن المغيرة (٤) ، وعلى هوازن وسليم كلها مسعود بن معتب الثقفي واشتركت معهم قبائل أخرى مثل : بنو نصر وبنو جشم وفهم وعدوان وكلها من مجموعة قبائل قيس عيلان (٥) · وبسبب تجاور منازل هذه القبائل · فبنو نصر كانوا يسكنون وادي لية شرقي الطائف (٦) ، وجشم مواطنهم بين تهامة ونجد (٧) وعدوان كانت منازلهم شرق الطائف (٨) ، وسليم كانت منازلهم في عالية نجد (٩) · هذا التجاور خلق لهذه القبائل

---

(١) البكري : معجم ما استعجم ، المجلد الثالث ، ص ١٣٠٤ — ١٣٠٥ تحقيق مصطفى السقا .

(٢) ابن الاثير : الكامل في التاريخ ، ص ٥٩٢ — ٥٩٣ .

جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٢ .

ابو الفضل ابراهيم : أيام العرب في الجاهلية ، ص ٣٢٩ — ٣٣٠ .

(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٣ ، ص ٣٦٣ .

(٤) ابن الاثير : الكامل ، المجلد الاول ، ص ٥٩٣ .

(٥) ابن الاثير : الكامل ، المجلد الاول ، ص ٥٩٣ .

جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٢ .

(٦) عمر رضا كحالة : معجم قبائل العرب ، مجلد ٣ ، ص ١١٨١ .

(٧) نفس المصدر ، ج١ ، ص ١٨٩ .

(٨) نفس المصدر ، ج٢ ص ٧٦٢ .

(٩) نفس المصدر ، ج٢ ، ص ٥٤٣ .

تشابها في المصلحة ، لا سيما وأن طريق العراق التجاري كان يمر بأراضي قيس عيلان . وكانت الدائرة في أول النهار لكنانة على هوازن ، لكن صمود هوازن قلب موازين المعركة لصالحها فانكشفت كنانة ، واستمر القتال فيها ، ولم يقتل من قريش أحد ، فكان هذا اليوم لهوازن على كنانة وقريش (١) .

واليوم الثالث ، هو يوم العبلاء ، والعبلاء علم على صخرة بيضاء الى جنب عكاظ (٢) . ولقد عادت هوازن وكنانة الى الحرب ، فجمع القوم بعضهم الى بعض والتقوا على قرن الحول بالعبلاء ، وهو موضع قريب من عكاظ والرؤساء يومئذ على ما كانوا عليه يوم شمطة وفيه انهزمت كنانة (٣) . وفي هذا اليوم قتل العوام بن خويلد والد الزبير بن العوام . قتله مرة بن معتب الثقفي ، وفي ذلك يقول رجل من ثقيف (٤) :

منا الذي ترك العوام مجندلا تنتاب الطير لحما بين أحجار

أما اليوم الرابع من أيامهم فكان يوم عكاظ وهو يوم استعداد كنانة للانتقام من هوازن على اثر هزيمتها في العبلاء ، فالتقوا في هذا الموضع ، وكان الرؤساء بحالهم ، وحمل عبد الله ابن جدعان يومئذ ألف رجل من كنانة على ألف بعير وخافت قريش أن يجري عليها ما جرى يوم العبلاء من هزيمة ، فقيد

---

(١) ابن الاثير : الكامل ، المجلد الاول ، ص ٥٩٣ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٢ .
أبو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣١ — ٣٣٢ .
(٢) الاصفهاني : كتاب الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٧١ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٣ .
أبو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٣ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٦ ، ص ١٠٧ .
(٣) الاصفهاني : الاغاني ، ج ٢٢ ، ص ٧١ .
جواد علي : المفصل ، ج٥ ، ص ٣٨٣ .
ابو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٣ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٦ ، ص ١٠٧ .
(٤) أبو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٣ .

حرب وسفيان وأبو سفيان بنو أمية بن عبد شمس أنفسهم وقالوا لا نبرح مكاننا هذا حتى نموت (١) . وقد اشتركت في هذه الحرب سائر بطون كنانة والأحابيش وهم بنو الحارث بن عبد مناة وعليهم الحليس بن يزيد وسفيان بن عوف ، وكذلك سائر بطون قيس عيلان مثل هوازن وثقيف ونصر وفهم وعدوان وسليم ، وكانت حربا ضروسا انتهت بهزيمة مجموعة قبائل قيس عيلان وانتصار كنانة عليها ، وقد اشترك من ثقيف مسعود ابن معتب الثقفي الذي أخرج معه أولاده عروة ولوحة ونويرة والأسود فكانوا يدورون وهم غلمان في قبائل قيس يأخذون بأيديهم الى خباء أمهم ، ذلك الخباء الذي ضربه مسعود بن معتب لتدخله قريش وتأمن على روحها وهو نوع من الاستعلاء والاستصغار بقوة قريش ، وكانت امرأة مسعود هي سبيعة بنت عبد شمس بن عبد مناف ، لكن هذا الخباء كان لقيس بعد هزيمتها ، فقيل لذلك الموضع مدار قيس استهزاء بها (٢) .

أما اليوم الخامس فهو يوم الحريرة ، والحريرة موقع بين الأبواء ومكة قرب نخلة (٣) . والرؤساء بحالهم ما عدا بلعاء ابن قيس فانه قد مات فحل محله أخوه جثامة بن قيس ، وبعد قتال بينهم اتفقوا على الصلح وتسوية الديات وانصرف الناس عن الحرب (٤) . ومن قتلى هذه الحرب العوام بن خويلد

---

(١) الاصفهاني : الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٧٣ — ٧٤ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٣ .
أبو الفضل : ايام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .
(٢) نفس المصادر والصفحات .
(٣) ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٢ ، ص ٢٥٠ .
جواد علي : المفصل ، مجلد ٥ ، ص ٣٨٥.
ابو الفضل : أيام العرب في الجاهلية ، ص ٣٣٧ .
الاصفهاني : الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٧٨ — ٧٩ .
(٤) نفس المصادر السابقة .
بلعاء بن قيس هو من بني الشداخ بن عوف بن كعب بن عامر بن ليث بن بكر ابن عبد مناة بن كنانة ، وجثامة بن قيس اخوه ، وكان شاعرا وفارسا كبيرا . انظر ابن حزم : الجمهرة ، ص ١٨٠ — ١٨١ .

وحزام بن خويلد وأحيحة بن أحيحة ومعمر بن حبيب ، ومن قتلى قيس الصمة وهو أبو دريد بن الصمة رجل هوازن المعروف الذي قتل في حنين (١) .

وخلاصة القول ان حرب الفجار الأولى كانت مناوشات ومهاترات ، وقعت لأسباب عرفية تافهة وبسيطة وانتهت بالمصالحة والتراجع أو باحتمال دماء القتلى كما بينا سابقا . فان الحرب الثانية لم تحدث لأسباب عرفية بسيطة كما هو معروف ، وانما لعبت عوامل المنافسة للسيطرة على الطرق التجارية دورا بارزا فيها ، لكن هذه المنافسة أخذت طابع الحرب القبلية بسبب مقتل البراض بن قيس الكناني لعروة الرحال رجل هوازن آنذاك ، ولأن العادات والتقاليد والعرف عند العرب في العصر الجاهلي أن الثأر لا يكون من شخص القاتل الا اذا كان من نفس المكانة وعلى نفس القدر من المكانة والمستوى من المقتول . فالبراض رجل خليع وسكير وفاسق . والخليع في نظر القبيلة فرد منفصل عنها لا تربطه بها آية رابطة ، فكيف تحدث مثل هذه الحرب من أجله ؟ . ان العرف والعصبية القبلية كانتا السبب المباشر لقيام مثل هذه الحرب .

ويذكر الدكتور أحمد الشريف (٢) أن الأخذ بالثأر كان أمرا مفروضا على القبيلة ، مهما كلف ذلك من جهد ومال . ولم يفرقوا بين القتل الخطأ والقتل العمد وأنهم كانوا يعالجون القتل بالقتل ، حتى صار الأخذ بالثأر عقيدة ثابتة ، والغرض منه حماية القبيلة ، فالقبيلة اذا لم تأخذ بثأرها تسقط بين القبائل .

وخلاصة القول أن هذه الحرب دفعت اليها العصبية القبلية

---

(١) الاصفهاني : الاغاني ، ج٢٢ ، ص ٧٨ .
الواقدي : المغازي ، ج٣ ، ص ٩١٥ .
(٢) انظر احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ٣٤ وما بعدها .

وطلب الثأر والمصلحة وغير ذلك من الأسباب التي كانت الحرب تقوم بسببها بين قبائل شبه الجزيرة العربية . هذا بالاضافة الى العوامل الاقتصادية .

وأغلب الظن أن هذه الطريق ـ طريق العراق والحجاز ـ كانت تحت سيطرة قيس عيلان وبعد أن أنشأ قصي بن كلاب قوة قريش واستولى على مكة وأقام خلفه عبد مناف ثم هاشم واخوته تنظيم تجارة مكة مع الشام والعراق واليمن وبقية أجزاء الوسط والشمال في شبه جزيرة العرب ، شعرت قيس عيلان بالطمع في الاستيلاء على طريق العراق الذي يخترق أراضيها (١) ، وبخاصة أن التجارة مع العراق تأتي بمكاسب وفيرة ، ولقد كان أبناء عبد مناف هم أصحاب الفضل في تنظيم هذه التجارة ووضع الترتيبات اللازمة مع القبائل التي تمر طرق التجارة في أراضيها ثم مع حكام فلسطين وجنوب الشام من ناحية وبلاد الحيرة والعراق من ناحية أخرى (٢) . ولقد قام هاشم واخوته أبناء عبد مناف بتنظيم هذه التجارة تنظيما كاملا وذلك بالسياسة الماهرة التي رسموها للوصول الى هذه الغاية (٣) والتي تتلخص في :

أولا ـ تحويل مكة الى أكبر مركز للتجارة في شبه جزيرة العرب ، مستندا في ذلك الى المركز الجغرافي الممتاز لمكة في منتصف الطريق التجاري الهام بين اليمن والشام (٤) . هذا الطريق

---

(١) ابن خرداذبه : المسالك والممالك ، ص ١٩٠ .
جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٣٨ وما بعدها .
(٢) ابن هشام : السيرة ، المجلد الاول ، ص ١٣٦ ـ ١٣٧ . تحقيق : مصطفى السقا .
أحمد الشريف . مكة والمدينة ، ص ١٣٦ ، ١٥٦ ـ ١٥٧ .
(٣) جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٣٨ وما بعدها .
(٤) ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١٨٧ ، كلمة مكة .
أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ٩٥ .

الذي استطاع أولاد عبد مناف ترتيب وتنظيم القوافل التجارية فيه ، فأصبحت لها رحلتان هما رحلة الصيف الى الشمال ،ورحلة الشتاء الى اليمن . وقد ذكر القرآن الكريم خبر هاتين الرحلتين في معرض تعداد فضل الله على قريش (١) . قال تعالى : « لايلف قريش الفهم رحلة الشتاء والصيف ، فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف » (٢) . وقد كان تجار مكة يحملون بضائع هذا الطريق الى الشام والجنوب بعد خروجهم من مكة ، وقد اعتمد كل من الروم والفرس على هذا الطريق (٣) .

وكذلك الى المركز الديني الممتاز لمكة في شبه الجزيرة كلها ، فوجود الكعبة كان يجتذب اليها الحجاج من كافة نواحي شبه الجزيرة ، حيث ان الحج الى الكعبة فرض الهي قديم ومعترف به ، وان الناس يحجون الى البيت جميعا ، وقد نظم عبد المطلب ابن هاشم هذه الناحية الدينية تنظيما كبيرا ، وكان بنو عبد مناف يرون لأنفسهم حق الحرمة والميزة على العرب بسبب اختصاصهم بحماية وادارة البيت الحرام ومنه اكتسبت قريش بين قبائل العرب منزلة خاصة وتقاسمت البطون الكبرى من قريش المسؤوليات الهامة في مكة كالسقايةوالرفادة والسدانة(٤) وظلت هذه الوظائف متوارثة فيها حتى ظهور الاسلام ، لذا كانت

---

(١) احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ٢٠٥ .

(٢) القرآن الكريم : سورة قريش رقم ١٠٦ ، الايات من ١ — ٤ .

(٣) أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ٢٠٦ .

(٤) ابن هشام : السيرة ، المجلد الاول ، ص ١٣٧ ، ٨٥ .
ابن عبد ربه : العقد الفريد ، ج٣ ، ص ٣١٣ ، ٣١٥ .
احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٢١ .
أحمد كمال : الطريق الى المدائن ، ص ١٨٩ .

قريش تعتبر نفسها هم أهل البيت وأولياؤه(١)٠كما قال تعالى : « وما لهم ألا يعذبهم الله وهم يصدون عن المسجد الحرام وما كانوا أولياءه ، ان أولياؤه الا المتقون ولكن أكثرهم لا يعلمون » (٢) ٠

ثم اعتماد الكثير من قبائل وسط الجزيرة على مكة في كل ما كانوا يحتاجون اليه من بضائع ومصنوعات ، لأن مكة اختصت بالتجارة لأنها تقع في واد غير ذي زرع وأنها تعتمد في حياتها على ما يجلب اليها من الخارج وما يستطيع أهلها أن يحققوه لأنفسهم من منافع عن طريق البيع والشراء ، لذا اختصت مكة بالتجارة ووضع أهلها القوانين لتنظيم الحياة عندهم وتوفير الأمن وحفظ الحقوق وحماية ما يفد اليها من الأذى (٣) ٠

ثانيا ــ عقد اتفاقات مع كل القبائل التي تمر طرق التجارة في منازلها على أساس أن تسمح هذه القبائل بمرور قوافل التجارة المكية تحت خفارة تلك القبائل ، مقابل أن يقوم رؤساء القوافل المكية بكل العمليات التجارية اللازمة لهذه القبائل(٤)٠

ثالثا ــ عقد الاتفاقيات مع حكام الحيرة وجنوب الشام

---

(١)ابن هشام : السيرة ، المجلد ١ ، ص ١٢٤ ــ ١٢٥ .
ياقوت : معجم البلدان ، مجلد ٥ ، ص ١٨٢ ، وما بعدها .
احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٣٤ ــ ١٣٥ ، ١٨٦ .

(٢) القرآن الكريم ، سورة الانفال ، آية رقم ٣٤ .

(٣)جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٧١ .
أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٢٥ ــ ١٢٦ ، ١٨٦ ــ ١٨٧ .

(٤)جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٧١ .
احمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٣٦ ــ ١٣٧ .

وفلسطين واليمن والحبشة ، لضمان دخول القوافل المكية الى هذه البلاد والقيام بالعمليات التجارية فيها ، وقد رحبت هذه البلاد بذلك لأنها كانت بحاجة الى المتاجرة أو البضائع التي كانت قوافل قريش تأتي بها اليمن وجنوب الجزيرة العربية (١) وبطبيعة الحال ، انضمت الى شبكة الاتفاقات قبائل أخرى كثيرة لم تكن تمر بمنازلها طرق تجارية وذلك للاستفادة من الخدمات التي تقدمها للقوافل المكية ، ومعنى ذلك أن سياسة أبناء عبد مناف جعلت مكة مركز التجارة العربية كلها ، مما زاد في ثراء أهلها وجعل قريشا زعيمة مجموعة قبائل كنانة وهي فرع من الياس بن مضر (٢) • ومن الطبيعي في هذه الحالة أن تطمع قيس عيلان في أن تحل محل قريش في ذلك المركز ، لذا تصدت لها قريش بزعامة كبار بيوتها وبخاصة بني أمية ، وقد انجلت حرب الفجار الثانية عن تثبيت مركز مكة وقريش كقاعدة للتجارة العربية قبل الاسلام ، وتحول مكة الى أغنى بلاد شبه الجزيرة ، ونتيجة لذلك أصبحت قريش أقوى وأهم قبائل العرب في وسط وشمال وغرب شبه الجزيرة كلها (٣) • زد على ذلك

---

(١) جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٧١ .
أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٥٥ ــ ١٥٩ .
كانت هناك علاقات تجارية مباشرة بين مكة والحبشة وكان ميناء الجار ــ على البحر الاحمر يعتبر ميناؤهم الخاص وكانت منه تخرج السفن الذاهبة الى الحبشة والعائدة منها الى مكة .

انظر ياقوت : معجم البلدان ، المجلد ٢ ، ص ٩٢ ــ ٩٣ ، كلمة جار .

(٢) ابن حزم : الجمهرة ، ص ١٠ .

(٣) جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ٧١ ، ١٥٣ .

أحمد الشريف : مكة والمدينة ، ص ١٥٠ .

سعيد الافغاني : أسواق العرب ، ص ٢٥ .

أن أهل مكة لم يدعوا الفرصة لأهل الطائف أن ينغصوا عيشهم مرة أخرى حين تمكنوا من التغلغل الى الطائف ، ومن بسط سلطانهم عليها ، وأقاموا بها أعمالا اقتصادية خاصة ومشتركة وبذلك حولوا هذه المدينة (الطائف) الى مكان صار في حكم التابع لسادات قريش (١) .



(١) دائرة المعارف الاسلامية : مجلد ١٥ ، ص ٥٥ — ٥٦ ، ترجمة : عبد الحميد يونس .

جواد علي : المفصل ، ج٤ ، ص ١٥٣ .

من تأريخ الترجمة عند العرب

الدكتور
نافع توفيق العبود
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

نبذة تاريخية :

مرت الترجمة بدورين أحدهما أسطوري يتصل بالمحاولات الأولى التي قيل أنها جرت في زمن الأمويين ، حيث بدأ العرب وقتذاك يأخذون بالتدريج عن الأمم الاخرى شفاها وبصورة مجملة أول الأمر ، ثم بالترجمة المنظمة التي قام بها الأمير الاموي خالد بن يزيد بن معاوية (ت ٨٥هـ ـ ٨٠٤م) (١) ، الذي « أمر جماعة من الفلاسفة اليونانيين ممن كان ينزل مدينة مصر ... بنقل الكتب في الصنعة (الكيمياء) من اللسان اليوناني والقبطي الى العربي ، وهذا أول نقل في الاسلام من لغة الى لغة أخرى » (٢) .

نستنتج من هذا ان خالد بن يزيد قد قام بالتنقيب عند كتب الحكمة والكيمياء وعلوم الأقدمين ، وأمر المترجمين أن يترجموها ، ولم يصل الى أيدينا أي مصنف من المصنفات التي ترجمت في عهده ، ويبدو أن عمله في هذا الميدان لم يكن ذا أثر كبير ، اذ لم يعقبه أية حركة أخرى بعده ، وانما هي أخبار

تروى عن خالد اذا صحت الرواية (٣) ٠

ومن الأمور التي يمكن الاشارة اليها في زمن الأمويين ، هي نقل الدواوين الى العربية ، ففي عهد عبد الملك بن مروان وعامله على العراق الحجاج بن يوسف الثقفي ، عربت الدواوين في العراق والشام من الفارسية واليونانية الى العربية ٠

أما الآخر فهو تاريخي ، تدعمه أدلة مادية ، وكان ذلك زمن العباسيين حين انتظمت الترجمة وحظيت بتشجيع الخلفاء وذوي البيوتات العلمية ، فترجمت كتب الطب والفلك والرياضيات والفلسفة والمنطق ، على أيدي علماء من العرب والفرس والسريان والهنود ٠ ولما حل القرن الرابع الهجري اتسعت الترجمة فشملت مختلف الآداب التي نقلت في الغالب من أدب الفرس ، لقيام بعض رجالهم وبخاصة الشعوبية والزنادقة منهم بمباراة العرب ومنافستهم وبنشر أمجادهم وآدابهم التي قضى عليها الاسلام مثل آيين نامة (أي نظم الفرس وتقاليدهم وأعرافهم) وكتاب آفستا وكتاب مزدك وكتاب هزار فسانة ٠٠٠ الخ ٠

أسباب الترجمة :

يمكن أن نجمل الأسباب التي دعت العرب الى نقل علوم وآداب الأمم الأخرى بما يأتي :

١ ــ رغبة بعض الخلفاء العباسيين في العلوم كالمنصور والرشيد والمأمون ، فقد أظهر الأول عناية بالترجمة فنقلت له بعض كتب بقراط وجالينوس في الطب (٤) ، وممن نقل له هو جورجس الذي يعتبر أول من ابتدأ في نقل الكتب الطبية (٥) ٠

وقد زادت ترجمة الكتب في عهد الرشيد بعد أن وقع في حوزته بعض المدن الرومية حيث أمر بترجمة ما عثر عليه المسلمون من كتب اليونان ، كما نشطت الترجمة بفضل تشجيع البرامكة الذين اهتموا بعلوم الاغريق اهتماما كبيرا وبذلوا مساع كبيرة لأن يدخلوا الى العرب المعارف المستقاة من المصادر الاغريقية التي كانوا على صلة وثيقة بها مذ كانوا سابقا في مرو ، ونيسابور (٦) ٠

أما في عهد المأمون فقد قويت حركة النقل والترجمة من اللغات الأجنبية وبخاصة العلوم اليونانية (٧) ، حيث أرسل المبعوث الى القسطنطينية لاحضار المصنفات الفريدة في الفلسفة والهندسة والموسيقى والطب ٠ روى ابن النديم ان المأمون « كان بينه وبين ملوك الروم مراسلات ، وقد استظهر عليه المأمون فكتب (اليه) يسأله الاذن في ما يختار من العلوم القديمة المخزونة المدخرة ببلد الروم ، فأجاب الى ذلك بعد امتناع ، فأخرج المأمون لذلك جماعة منهم الحجاج بن مطر وابن البطريق وسلما صاحب بيت الحكمة وغيرهم ، فأخذوا مما وجدوا ما اختاروا فلما حملوه اليه أمرهم بنقله فنقل » (٨) ٠

وهكذا نجد المأمون يحذو حذو والده في تشجيع العلم والأدب، وقد أنشأ في بغداد مدرسة للعلم والترجمة تزخر بمختلف الكتب والمصنفات العلمية والأدبية والفلسفية (٩) ٠

٢ ــ الجدل الديني والمناظرات : ذلك ان المسلمين بدأوا في العصر الأموي يعقدون الحلقات والمجالس في المساجد الجامعة ، ويكثرون من المناقشة والمجادلة في القضاء والقدر ، وفيما اذا كان الانسان مسيرا أو مخيرا ، فانقسموا الى فئتين ، كل فئة تناصر أحد الرأيين ولذلك احتاجوا في العصر العباسي الى معرفة

مـا عنـد الأمـم الاخرى ممـا يفيدهم في تلـك المجـادلات والمناظرات (١٠) ٠

وقد أسهم بعض الخلفاء في تلك المناظرات ، فكان المأمون يجلس للمناظرة مع المتعلمين « من أول النهار الى آخره يتناظرون بين يديه فيرشدهم ويمدهم بالأموال والكتب ويتفقدهم اذا غابوا عنه ويزورهم في بيوتهم مع كثرة العطاء والرغبـة في حسـن الثناء » (١١) ٠

ولعل من الطريف هنا أن نشير الى وصف لأحد مجالسـه في المناظرة نقله المسعودي عن يحيى بن أكثم : « فاذا أحضر الفقهاء ومن يناظره (المأمون) من سائر أهل المقالات أدخلوا حجـرة مفروشة ، وقيل لهم انزعوا أخفافكم ، ثم أحضرت الموائد وقيل لهم : أصيبوا من الطعام والشراب وجددوا الوضوء ، ومن خفه ضيق فلينزعه ، ومن ثقلت قلنسوته عليه فليضعها ، فاذا فرغوا أتوا بالمجامر فبخروا وطيبوا ثم خرجوا فاستدناهم حتى يدنوا منه ويناظرهم أحسن مناظرة وأنصفها ، وأبعدها مـن مناظرة المتجبرين ، فلا يزالون كذلك الى أن تزول الشمس ، ثم تنصب الموائد الثانية فيطعمون وينصرفون » (١٢) ٠

ووصف القاضي أبو القاسم أحمد بن صاعد الأندلسي ، ما كانت عليه حال الترجمة ونشاطهـا في عصر المأمون قائـلا : « ٠٠٠ تمم ما بدأ به المنصور فأقبل على طلب العلم في مواضعه واستخراجه من معادنه بفضل همته الشريفة وقوة نفسه الفاضلة فداخل ملوك الروم وأتحفهم بالهدايا الخطيرة وسألتهـم صلته بما لديهم من كتب الفلاسفة فبعثوا اليه بما حضرهم من كتب أفلاطـون وأرسطاليس وأبقـراط وجالينـوس وأقليـدس

وبطليموس وغيرهم من الفلاسفة ، فاستخار لها خيرة التراجمة وكلفهم احكام ترجمتها ، فترجمت له على غاية ما أمكن ، ثم حض الناس على قرائتها ورغبهم في تعلمها ، فنفقت سوق العلم في زمانه ، وقامت دولة الحكمة في عصره ، وتنافس أولو النباهة في العلوم لما كانوا يرون من أخطائه لمنتحليها واختصاصه لمتقلديها ، فكان يخلو بهم ويأنس بمناظرتهم ويلتذ بمذاكرتهم فينالون عنده المنزلة الرفيعة والمراتب السنية ، وكذلك كانت سيرته مع سائر العلماء والفقهاء والمحدثين والمتكلمين وأهل اللغة والأخبار والمعرفة بالشعر والنسب ، فاتقن جماعة من ذوي الفنون والتعلم في أيامه كثيرا من أجزاء الفلسفة ، وسنوا لمن بعدهم منهاج الطلب ومهدوا أصول الأدب ، حتى كادت الدولة العباسية تضاهي الدولة الرومية أيام اكتمالها وزمان اجتماع شملها » (١٣) .

ويضيف الكازروني عند ذكره خلافة المأمون والاشادة بتشجيعه للترجمة بقوله : « أخذ من جميع العلوم بقسط واستخرج من الروم كثيرا من كتب الطب وترجمت له، واستخرج كتاب اقليدس وترجم له ، وعقد المجالس للمناظرة بين أهل العلم في الأديان والمقالات » (١٤) .

٣ ـ معرفة الفلسفة والمنطق اليونانيين : لقد أدى الجدل والمناظرات بين المسلمين واليهود والنصارى الى أن يرى المسلمون أن اليهود والنصارى يجادلونهم بالفلسفة والمنطق اليونانيين فاضطروا الى دراستهما لاتخاذهما وسيلة للدفاع عن الدين الاسلامي ، هذا من ناحية ، ومن ناحية أخرى فان النزاع على المسائل الطارئة على الجماعة الاسلامية بسبب الخلافة قد أدى الى ظهور فرق اسلامية مختلفة ، فالخوارج الذين ثاروا على الامام علي (رض) ذهبوا في تعصبهم الى حد تكفير كل مسلم

يقترف احدى الكبائر ، ولقد عارضهم في ذلك المرجئة الذين قالوا بعدم جواز تكفير المسلم وتركوا الحكم في مصير صاحب الكبيرة في العالم الاخر لله وحده ... وقد ذهب المعتزلة الى آن المسلم صاحب الكبيرة ليس بالمؤمن وليس بالكافر ولكنه في منزلة بين المنزلتين (١٥) . يضاف الى ذلك فان نظرة المعتزلة في صفات الله جعلهم لم يكن لهم معدى عن اصطناع الطريقة التقليدية المتبعة في الفلسفة اليونانية على الرغم من رفضهم القاطع لنزعة هذه الفلسفة بطبيعة الحال ، وبينما كان ممثلو السنة الخالصة يعتبرون كلمة الله « القرآن » أزلية كالله نفسه ، انتهى التفكير الاعتزالي فيما يتعلق بالصفات الالهية الى الفكرة القائلة ان القرآن ليس أزليا بل مخلوق . ولقد وفق المعتزلة الى أن يثيروا شوق الخليفة المأمون الى هذه العقيدة حتى أعلنها عقيدة الدولة الرسمية وأمر بامتحان جميع الذين يرفضون القول بها (١٦) . وقد شغل المعتزلة وأولعوا بالمناظرة والجدل لأن مذهبهم كله يقوم على الجدل ، وأكثر من هذا فانهم كانوا ينظرون الى من يسمون بالفلاسفة بعين التصغير (١٧) .

٤ ـ التدوين بالعربية : لقد نجم عن اعتناق الأمم الاجنبية للاسلام وانضوائها تحت لوائه ، ان صارت تلك الأمم تدون علومها وآدابها باللغة العربية التي تعلمتها بسبب الدين ، أو تقربا من العرب الفاتحين للاستفادة من الوظائف والمناصب (١٨) .

٥ ـ بعد الفتوحات الاسلامية العربية ، واجه العرب أمما ذات حضارة راسخة ، فكان لهم النفوذ السياسي وصاروا فخورين بأنفسهم ، فقابلهم الفرس مثلا بمظاهر غرور أقوى من فخرهم ، ونعتوا العرب بأشباه المتوحشين في الصحراء ، حديثي النعمة الذين ليس لهم تاريخ يعتز به وليس لهم علم ، وعرفت هذه المجاهرة في عداوة العرب المعبر عنها بصراحة ووضوح بـ

« الشعوبية » ، وهي عبارة عن شعور منظم جريء في كراهية العرب . وكان ابن المقفع (ت حوالي ١٤٣هـ) أنموذجا مثاليا لذلك العصر ، فترجم من الفهلوية أي الفارسية القديمة الى العربية كتاب (كليلة ودمنة) و (خداي نامة) أيضا وهو تاريخ سير ملوك فارس وأطلق عليه في الترجمة (سير ملوك العجم) (١٩) .

٦ ـ ومن الجدير بالذكر أن العناية بالترجمة لم تكن مقصورة على الخلفاء أو الوزراء بل عني جماعة من ذوي اليسار في العصر العباسي بنقل الكثير من الكتب الى العربية ، ومن هؤلاء على سبيل المثال : محمد وأحمد والحسن أبناء ابن شاكر المنجم ، الذين أنفقوا الأموال العظيمة في الحصول على العلوم القديمة وبذلوا « فيها الرغائب وأتعبوا نفوسهم فيها ، وأنفذوا الى بلاد الروم من أخرجها اليهم ، فأحضروا النقلة من الأصقاع والأماكن بالبذل السني فأظهروا عجائب الحكمة » (٢٠) وشيرشوع بن قطرب ، من أهل جنديسابور ، الذي كان يبر النقلة ويهدي اليهم ، ويتقرب الى تحصيل الكتب منهم بما يمكنه من المال (٢١) كما كان ثادرس الاسقف أحد أساقفة الكرخ ببغداد حريصا على طلب الكتب متقربا الى قلوب نقلتها ، فحصل منها شيئا كثيرا ، وصنف له قوم من الأطباء النصارى كتبا لها قدر وجعلوها باسمه (٢٢) ، وكذلك اشتهر أحمد بن محمد المعروف بابن المدبر الكاتب ، الذي كان يصل الى النقلة من ماله وافضاله شيء كثير جدا (٢٣) . وكان هناك أيضا ابراهيم بن محمد بن موسى الكاتب « حريصا على نقل كتب اليونانيين الى لغة العرب ، مشتملا على أهل العلم والفضل وعلى النقلة خاصة » (٢٤) .

« تصنيف المترجمين » :

عقد ابن أبي اصيبعة في كتابه « عيون الأنباء » بابا في « النقلة الذين نقلوا كتب الطب وغيره من اللسان اليوناني الى اللسان العربي » • وعند تحليلنا لقائمة الأسماء التي أوردها في هذا الباب ، وجدنا أنه صنف المترجمين الى درجات أو مستويات متباينة بحسب اتقانهم للترجمة ، فقد اعتبر حنينا بن اسحاق من المجودين في النقل وقال عنه : « كان عالما باللغات الأربع غريبها ومستعملها : العربية والسريانية واليونانية والفارسية ونقله في غاية الجودة » (٢٥) ، كما كان ابنه اسحاق ابن حنين عالما باللغات التي يعرفها أبوه • وهو يلحق به في النقل، ومثلهما كان حبيش الأعسم ناقلا مجودا (٢٦) • وكان هناك عيسى بن يحيى بن ابراهيم تلميذا لحنين بن اسحاق وقد أثنى عليه حنين ورضي نقله وقلده فيه • وكان اصطفن بن يسيل يقارب حنين في النقل ، الا أن عبارة حنين أفصح وأجلى (٢٧) •

ومن بين المترجمين الآخرين من كان متوسط الحال في الترجمة ، فمثلا كان أيوب المعروف بالأبرش قليل النقل متوسطه ، وما نقله في آخر عمره يضاهي نقل حنين (٢٨) ، ومثله كان ابن شهدي الكرخي الذي نقل من السرياني الى العربي (٢٩) ، والحجاج بن مطر الذي نقل للمأمون كتاب اقليدس ، وكذلك سرجس الراسي (من أهل مدينة رأس العين) (٣٠) الذي كان متوسطا في النقل ، وكان حنين بن اسحاق يصلح نقله فما وجد باصلاح حنين فهو الجيد (٣١) • ومن متوسطي النقل الينا ثابت الناقل الذي نقل الكيوسين لجالينوس • وأبو يوسف الكاتب الذي نقل عدة كتب من كتب بقراط (٣٢) •

والى جانب هؤلاء المترجمين المذكورين ، كان هناك تراجمة آخرون لم يتقنوا الترجمة في رأي ابن أبي اصيبعة ، نذكر منهم على سبيل المثال : فثيون الترجمان الذي كان « كثير اللحن ولم يكن يعرف علم العربية أصلا » (٣٣) ، وأبو نصل ناري بن أيوب الذي لم يكن « يعتد بنقله » (٣٤) ، وحيرون بن رابطة الذي ليس له شهرة بجودة النقل (٣٥) ٠

ونستنتج من قائمة ابن أبي اصيبعة أيضا ان بعض النقلة تتلمذوا على بعض المترجمين المشهورين ، فقد تتلمذ حبيش الأعسم وعيسى بن يحيى بن ابراهيم على حنين بن اسحاق (٣٦) ٠

والى جانب ذلك نجد أن بعض النقلة المشهورين اتخذوا لهم أعوانا ممن عرفوا بجودة النقل لمساعدتهم في الترجمة ٠ ومثال ذلك أن حنين بن اسحاق استعان بقسطا الرهاوي ، عندما كثرت عليه الكتب وضاق عليه الوقت ، ثم يصلحها بعد ذلك (٣٧) ٠

أهم مواضيع الترجمة

١ ـ النجوم : كان أبو جعفر المنصور ميالا الى التنجيم ، ومن الجائز أنه حاول أن يتخذ منه أداة لتصيد الأخبار ، اضافة الى أن العقلية السائدة آنذاك كانت تركن الى هذا العلم وجدوته في معرفة المستقبل ٠

ولعل مما يدل على اهتمام المنصور بالتنجيم ، أنه بعث الى ملك الروم أن يرسل اليه بكتب التعاليم مترجمة ، فبعث اليه بكتاب اقليدس وبعض كتب الطبيعيات ، فقرأها المسلمون واطلعوا على ما فيها وازدادوا حرصا على الظفر بما بقي منها (٣٨) ٠

وممن خدم المنصور في النجوم ابراهيم الفزاري المنجم وابنه محمد وعلي بن عيسى الاسطرلابي المنجم (٣٩) ، وقصده أيضا أصحابها من بلاد فارس والهند والروم ، وكان في جملتهم رجل من الهند قيم في حساب (السدهنتا) ، وعرض عليه كتابا في النجوم مع تعديل معمولة على مذاهب الهند ، فأمر المنصور أن ينقل هذا الكتاب الى العربية ، وأن يؤلف فيه كتاب يتخذه العرب أصلا في حركات الكواكب ، فتولى ذلك محمد بن ابراهيم الفزاري وعمل منه كتابا سماه المنجمون (السند هند الكبير) ، وظل أهل ذلك الزمان يعملون به الى أيام المأمون (٤٠) ٠

٢ ــ الطب : ومما اهتموا بنقله من العلوم الطبيعية في أيام المنصور ، الطب ٠ وكان المنصور قد استدعى الى بغداد جورجس ابن بختيشوع السرياني رئيس أطباء جنديسابور ، وكان هذا من الذكاء والفضل على جانب عظيم ، اضافة الى مهارته في الطب حيث ألف فيه مصنفات باللغة السريانية فضلا عن الفارسية والعربية واليونانية ، فلما رأى وثوق المنصور به نقل له كتبا طبية من اليونانية الى العربية غير ما ألفه في السريانية (٤١) ٠

هذا وان من يلقي نظرة في (عيون الأنباء) لابن أبي أصيبعة ، و (أخبار العلماء بأخبار الحكماء) للقفطي ، يقف على عدد لا يحصى من أسماء المترجمين لكتب الطب من مختلف اللغات السريانية واليونانية والفارسية الى اللغة العربية ٠

٣ ــ الفلسفة والمنطق : لم يقدم المسلمون على ترجمة الكتب الفلسفية الى العربية الا في أيام المأمون لسبب متصل بهذا الخليفة نفسه ، وذلك أنه لما أظهر ميلا الى الاعتزال وأخذ يناظر أصحاب الرأي والقياس ، فقد اهتم بالفلسفة وعلوم الأوائل وجره ذلك الى القول بخلق القرآن (٤٢) ٠ وقد تعلم

المأمون وطالع ما نقل من كتب القدماء الى أيامه ، فازداد رغبة في القياس والرجوع الى أحكام العقل ، وصرح بأقوال لم يكن بامكان المعتزلة التصريح بها خوفا من غضب الفقهاء ، وفي جملتها القول بخلق القرآن ، وعندئذ قامت قيامة الفقهاء وعظم ذلك على غير المعتزلة وهم أكثر عددا ، ولم يعد في وسع المأمون الرجوع عن قوله ، بل عمل على تأييده بالبرهان ، وجعل يعقد المجالس للمناظرة في هذا الموضوع ، وتأييدا لصحة الجدل أمر بنقل كتب الفلسفة والمنطق من اليونانية الى العربية واطلع هو عليها ، فقويت حجته وازداد تمسكا بالاعتزال (٤٣) ٠

ولم يقتصر المأمون على ذلك ، بل جعل الترجمة عامة لكل مؤلفات أرسطو في الفلسفة وغيرها ، وابتدأ بترجمة تلك الكتب فأقبل المعتزلة على تصفحها والتبحر فيها فاشتد ساعدهم بها ٠

وعلينا أن لا نبالغ بتأثير الأوامر التي صدرت في أيام المأمون بالبحث والحصول على مخطوطات وترجمتها الى العربية ، ونعني بتلك العلوم (علوم اليونان وفلسفتهم) ، حيث يذهب بارتولد الى القول بوجود علاقة بين العلم في العهد الاسلامي والعلم اليوناني الذي كان منتشرا في ايران قبل العهد الاسلامي ، ولو ان هذه المسألة لم تدرس بعد درسا وافيا (٤٤) ٠

أشهر المترجمين

كان التراجمة من ملل ونحل مختلفة ، فيهم المسلمون وفيهم النصارى من السريان واليعاقبة وفيهم الصابئة عبدة الكواكب ، ومنهم البراهمة والمجوس واليهود وغير ذلك (٤٥) ٠

وقد ذكرنا سابقا كيف أن المنصور والرشيد والمأمون عضدوا

العلماء الذين ترجموا المؤلفات العلمية عن اللغات اليونانية والسريانية والهندية • وبقي علينا أن نشير الى أشهر المترجمين الذين تألق نجمهم في هذا الميدان والذين ذكرهم المؤرخون •

لما كان المسلمون قد اهتموا بالفلك والرياضيات ، فقد ترجم الى العربية كتاب « السند هند » ويقال أن المترجم له هو ابراهيم الفزاري المنجم ويعقوب بن طارق • وهناك من يشك في ترجمة الفزاري لكتاب « السند هند » في خلافة المنصور وينسب الترجمة الى محمد بن موسى الخوارزمي (٤٦) الذي كان منقطعا الى خزانة كتب الحكمة للمأمون والذي يعول على زيجه الاول والثاني ويعرف بالسند هند (٤٧) •

ومن بين النقلة المشهورين : الحجاج بن يوسف بن مطر الحاسب الذي ترجم ببغداد كتاب « المجسطي » في الجغرافية ، وهناك من يقول أن الذي ترجمه هو سهل بن ربان الطبري من مرو ويقال عنه أنه ترجم الكتاب للرشيد ببغداد ، وهناك ثمة من يقول أن سهل بن ربان ترجم المجسطي وان الحجاج راجعه ، ثم راجع الترجمة بعد ذلك حنين بن اسحاق ثم ثابت بن قرة ، ثم محمد بن جابر بن سنان البتاني المتوفى سنة ٣١٧هـ ـ ٩٢٩م أما ترجمة الحجاج لاقليدس فقد راجعها قسطا بن لوقا في سنة ٣٠٠هـ / ٩١٢ ـ ٩١٣م (٤٨) •

ومن النقلة أيضا : أبو زكريا يوحنا بن ماسويه ، وكان هذا نصرانيا سريانيا في أيام الرشيد ، ولاه الرشيد ترجمة الكتب الطبية لما وجدها بأنقرة وعمورية وسائر بلاد الروم حين افتتحها المسلمون ، وقد وضعه أمينا على الترجمة ورتب له كتابا حذاقا يكتبون بين يديه ، وخدم الرشيد ، والامين والمأمون ومن بعدهم من الخلفاء الى أيام المتوكل (٤٩) •

ومن أشهر المترجمين الى العربية : حنين بن اسحاق العبادي (٥٠) المتوفى سنة ٢٦٤هـ ـ ٨٧٧م ، وقد نزل حنين في سنة ٢١١هـ ـ ٨٢٦م ولما يتجاوز السابعة عشرة من عمره الى ميدان الترجمة فأصبح فيما بعد زعيم المترجمين من العرب والسريان ٠

كان أصل حنين من الحيرة وكان أبوه نسطوريا درس على يوحنا بن ماسويه في جنديسابور وأصبح صيدليا عنده وتعلم اللغة الاغريقية ، واستقر في البصرة ثم توجه الى بغداد ورعاه أبناء موسى بن شاكر الثلاثة محمد وأحمد والحسن وقدموه الى الخليفة المأمون ٠ ولما كان المأمون يهتم بتشجيع حركة الترجمة ، فقد جعل حنين بن اسحاق على رأس بيت الحكمة ، وكان المأمون يعطيه من الذهب زنة ما ينقله من الكتب الى العربي مثلا بمثل ، وكانت الترجمة بالعربية والسريانية ، وكان حنين فصيحا في اللسان اليوناني وفي اللسان العربي ، وقد اختير للترجمة وائتمن عليها ، وكان المتخير له الخليفة المتوكل على الله ، وجعل له كتابا نحارير عالمين بالترجمة ، كانوا يترجمون ويتصفح ما ترجموا (٥١) ٠ وكان حنين عالما بالعربية والسريانية واليونانية والفارسية (٥٢) ٠

وقد دخل حنين الى بلاد الروم لأجل تحصيل كتب الحكمة وتوصل في تحصيلها غاية امكانه ، وأفاد من دخوله الى تلك الجهات في أحكامه اليونانية والحصول على نفائس هذا العلم ، وبعد عودته لازم بني موسى بن شاكر الذين شجعوه على النقل (٥٣) ٠

وقد ترجم حنين بن اسحاق من كتب جالينوس الى السريانية والعربية، كما ترجم من تآليف بقراط وأرسطو وشروحهما (٥٤) ٠

ومن بين الذين عملوا مع حنين ابنه اسحاق المتوفى سنة ٢٩٨هـ ـ ٩١٠م ، وكان في منزلة أبيه في الفضل وصحة النقل من اليونانية والسريانية ، وابن أخته حبيش الاعسم وعيسى ابن يحيى بن ابراهيم (٥٥) .

وبعد وفاة حنين قام تلامذته بترجمة معظم كتب بقراط وجالينوس الى العربية ، وخصوصا ابنه اسحاق الذي ترجم بقية كتب أرسطو وشراحه وأهم الكتب الرياضية والبصرية لاقليدس (٥٦) .

ويذكر المؤرخون من بين كبار المترجمين أبا يوسف يعقوب ابن اسحاق الكندي (المتوفى بعد سنة ٢٥٧هـ) المسمى بـ (فيلسوف العرب) (٥٧) ، وقد كان حقا أول مسلم اتقن علوم اليونان الى حد يدعو الى الدهشة . ولكن لا يعرف من تراجمه الا شيء قليل جدا هو في جغرافية بطليموس ، ولم تبق لنا أية ترجمة أتمها بنفسه ، حتى ان دوره كمترجم مجهول تماما ، ولكنه كتب في الغالب على التراجم السريانية لعلوم الأوائل قرابة ثلثمائة كتاب من تآليفه في الطب والفلسفة الأرسطالية والفيثاغورية والرياضيات والبصريات وفي الفلك وفي الآثار العلوية والموسيقى والسياسة المدنية والاخلاق وغيرها، وعن هذا الطريق فتح الطريق للعرب الى علوم الأوائل (٥٨) .

وذكر ابن النديم من تلاميذ الكندي : حسنويه ونفطويه وسلمويه وأحمد بن الطيب السرخسي وأبو زيد البلخي (٥٩) .

وقد عاصر الكندي مترجم آخر هو قسطا بن لوقا البعلبكي ، وهو فيلسوف شامي نصراني دخل الى بلاد الروم وحصل من تصانيفهم الكثير وعاد الى الشام ، ثم استدعي الى العراق ليترجم

من اليونانية الى العربية وكان معاصرا للكندي ، وكان لا يطعن عليه في الترجمة فصيحا في اللغة اليونانية جيد العبارة بالعربية (٦٠) ٠

ومن بين الذين اشتغلوا في الترجمة : عبد الله بن المقفع وماسرجيس يوسف القس وابنه عيسى وشهدي الكرخي وأبو بشر متي بن يونس وأبو زكريا يحيى بن عدي المنطقي وأبو علي بن اسحاق بن زرعة وموسى بن خالد وأبو عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقي الذي كان منقطعا الى الوزير علي بن عيسى ، وعلي بن يحيى المعروف بابن المنجم ومحمد بن عبد الملك الزيات (٦١) ، ويوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون الذي كان أمينا على الترجمة وتولى ترجمة كتب أرسطاليس خاصة وترجم من كتب بقراط مثل حنين وغيره (٦٢) ٠

ومن أشهر النقلة أيضا ثابت بن قرة بن هارون ـ ويقال زهرون (٦٣) ـ الحراني ، وكان ثابت هذا صيرفيا أول حياته في سوق حران ، ولما اتجه الى الفلسفة تقدم فيها تقدما مدهشا وأصبح خبيرا في ثلاث لغات هي الاغريقية والسريانية والعربية (٦٤) ٠ وقد قام بمراجعة وتصحيح الترجمات العربية في المؤلفات الرياضية والفلكية ، وكان غاية في علم الطب والفلسفة والهندسة (٦٥) ، وترجم عددا وافرا من الكتب من تأليف اقليدس وأبلونيوس وبيس ونيقوماخوس وأظولوقس وتادوسيوس وبطليموس الى العربية (٦٦) ، وفيما يلي أشهر ما صنفه ونقله وأصلحه :

كتابه في السكون بين حركتي الشريان مقالتان ، صنف هذا الكتاب سريانيا لأنه أومأ فيه الى الرد على الكندي ونقله الى العربية تلميذ له يعرف بعيسى بن أسيد النصراني وكتابه في

شرح السماع الطبيعي • وكتابه في مقطوع الاسطوانة وبسيطها• وكتابه في السبب الذي جعلت مياه البحر مالحة • وغير ذلك من الكتب (٦٧) •

ومن المترجمين المشهورين أيضا : سنان بن ثابت بن قرة الحراني ، وكان هذا طبيبا مقدما كأبيه اختص به الخليفة المقتدر بالله ، ثم خدم القاهر الذي اعتمد على وصفه وسكنت نفسه اليه ووثق به • ولكثرة اغتباط القاهر به دعاه الى الاسلام فامتنع • وقد نقل سنان الى العربية نواميس هرمس والسور والصلوات التي يصلي بها الصابئون • ومن اصلاحه وتهذيبه لما نقله من كتاب يوسف العش من السرياني الى العربي من كتاب أرشيميدس في المثلثات (٦٨) •

وهناك مترجمون كثيرون ذكرهم ابن النديم في فهرسه مع أهم الكتب التي ترجموها ، ومن هؤلاء مترجمين عرب وسريان وهنود وفرس (٦٩) •

وهناك مترجمون كثيرون ذكرهم ابن النديم في فهرسه مع أهم الكتب التي ترجموها ، ومن هؤلاء مترجمين عرب وسريان وهنود وفرس (٦٩) •

ولا بد أن نشير الى أن الترجمة عنيت بالمصطلحات الطبية والرياضية والفلكية لتكون الترجمة دقيقة ، وللوصول الى هذه الدقة كان لا بد من مراجعة الترجمات التي كان يقوم بها النقلة أو التي مر عليها بعض الزمن ، وهذا ما كان يقوم به المراجعون من النقلة كما ذكرنا ، وثمة أمرا آخر مهم وهو أن انتشار المعارف العلمية على نطاق واسع قد أدى الى وضع تعليقات ومؤلفات مهمة لكبار العلماء والنقلة ، ومثال ذلك أن ثابت بن

قرة قد أصلح عددا كثيرا من مترجمات اسحاق بن حنين الفلسفية والرياضية ، ويوجد حتى اليوم عدد من المخطوطات العربيـة وعليها التعليقات الخاصة بها تصحيحا لها (٧٠) ٠

« بيـت الحكمـة »

عندما ترجم العرب كتب الحكمة واجتمع عندهم عدد كبير منها ، رأى الخلفاء ومحبو العلم أن يجمعوا هذه الكتب في أماكن خاصة سميت « بيت الحكمة أو دار الحكمة أو خزانة الحكمة » وكلها بمعنى واحد يراد بها المحل الذي توضع به كتب الحكمة المختلفة ، وقد فعل الخلفاء هذا حبا بنشر العلوم والمعارف بين كافة الطبقات ، وليتيسر لكل فرد أن ينال قسطه من الثقافة ٠

ان أول بيت حكمة وقفنـا على أخبـاره هو الذي أسسـه العباسيون ببغداد واشتهر أمره في خلافة الرشيد ومن بعـده المأمون ٠

ان بيت الحكمة ببغداد فيما تدل عليه الأخبار التاريخيـة المختلفة ، يمكن وصفه بأنه كان بناية كبيرة فيها عـدد من القاعات والحجرات الواسعة موزعـة في أقسام الدار وتضـم مجموعة من خزائن الكتب ، في كل خزانة مجموعة من الأسفار العلمية الخاصة التي تنسب في الغالب الى مؤسسها كخزانـة الرشيد وخزانة المأمون (٧١) ٠

وكان في بيت الحكمة تراجمة يقومون بترجمة الكتب المختلفة الى العربية ونساخون يشتغلون بنسخ الكتب التي تترجم والتي تؤلف للخزانة ولها مجلدون يجلدون الكتب ويعنون بزخرفتهـا وتزويقها ٠ وكان يدير بيت الحكمة مديرون وأمنـاء علـى

الترجمة ومعهم كتاب حذاق ، كما كـان يشتغل فيه علمـاء ونساخون وخزان ومجلدون مـن مختلـف الاديـان والاجناس والثقافات ومعهم الوارقون ، فصار في بيت الحكمة دوائر علمية منوعة لكل منها علماؤها وتراجمتها ومشرفون يتولون أمورها المختلفة ٠

وقد كان يوحنا بن ماسويه (ت ٢٤٣هـ ــ ٨٥٧م) يتولى الكتب التي أمر الرشيد بنقلها من عمورية وأنقرة عندمـا غزا بلاد الروم ، وجعله الرشيد أمينا على ترجمة الكتب المذكورة وعين له كتابا حذاقا يعملون بين يديه ويساعدونه في عمله (٧٢) ٠

وممن كان يشتغل في بيت الحكمة للرشيد فيترجـم مـن الفارسية الى العربية أبو سهل الفضل بن نوبخت الفارسي ، وهو من أئمة المتكلمين ، كان متضلعا باللغتين الفارسية والعربيـة ومعوله في عمله على كتب الفرس ، وله عدة مؤلفات بعلـوم مختلفة ، ولذا فان هارون الرشيد عهد اليه بترجمة كتب الحكمة الفارسية الى العربية (٧٣) ٠

وكان علان الوراق الشعوبي ينسخ في بيت الحكمة للرشيد والمأمون والبرامكة (٧٤) ٠

وعندما تولى المأمون الخلافة (١٩٨ ــ ٢١٨هـ/٨١٣ ــ ٨٣٣م) وكان شغوفا بعلوم الحكمة ، وجـه همه الى توسيع دوائرهـا المختلفة ، فأخذ بيت الحكمة يتوسع في زمانه ويزداد عدد كتبه المختلفة التي يجلبها من آسيا الصغرى والقسطنطينية وجزيرة قبرص ، وما كان يجمعه السريان من كنائسهم وأديرتهـم في الشام وبلاد الجزيرة (٧٥)،فكان سهل بن هارون الدستميساني، فارسي الأصل شعوبي المذهب شديد العصبية على العرب ، من

المختصين بخدمة الخليفة المأمون فجعله أمينا على كتب الحكمة (٧٦) .

وكان سعيد بن هارون مشاركا لسهل بن هارون في بيت الحكمة ، وكان بليغا فصيحا مترسلا ، وكان « سلم » أمينا على الكتب التي نقلت الى المأمون من القسطنطينية أرسله لاختيار الكتب والاشراف على نقلها الى بغداد ، ثم صار ينقل مع سهل ابن هارون من الفارسية الى العربية (٧٧) .

وكان يوحنا بن البطريق الترجمان مولى المأمون ، أمينا على ترجمة الكتب الفلسفية من اليونانية الى العربية ، فتولى ترجمة كتب أرسطو طاليس وأبقراط في الفلسفة وغيرها (٧٨) .

وانقطع أبو جعفر محمد بن موسى الخوارزمي الى خزانة الحكمة للمأمون ، وهو من أصحاب علوم الهيئة (٧٩) .

وكان بنو موسى بن شاكر المنجم من أنشط العناصر التي اشتغلت في بيت الحكمة ، فقد خدم موسى المأمون وخلف ثلاثة أبناء هم : محمد وأحمد والحسن ، فأوصى المأمون بهم اسحق ابن ابراهيم المصعبي أن يهتم مع يحيى بن أبي منصور المنجم في بيت الحكمة فلازموا التعلم وشبوا مولعين بعلوم الحكمة والهندسة والفلك والحركات والفلسفة ، ولما علا شأنهم أثبتوا في بيت الحكمة مع العلماء المترجمين له (٨٠) .

وكان عمر بن الفرخان الطبري أحد رؤساء التراجمة والمختصين بعلم حركات النجوم وأحكامها ، استدعاه الفضل بن سهل وزير المأمون من بلده ووصله بالخليفة المأمون فترجم له كتبا كثيرة وألف كتبا أخرى في النجوم . وفنون الفلسفة ، ومن

ذلك أنه فسر كتب الاربعة لبطليموس ونقلها له البطريق أبو يحيى بن البطريق وله من الكتب : كتاب المحاسن ، وكتاب اتفاق الفلاسفة واختلافهم في خطوط الكواكب (٨١) ٠

وكان حنين بن اسحاق العبادي من الذين خدموا في بيت الحكمة ، فقد كان يعمل بين يديه عدة تراجمة ، تولاه في زمن المتوكل فسعى في توسيعه وترجم هو ومن يشتغل بين يديه كتبا عديدة في الطب والفلسفة والمنطق وكانت دائرته التي يرأسها في بيت الحكمة لا تقل أهمية عن دائرة بني موسى المار ذكرهم (٨٢) ٠

وتبقى هناك ملاحظة أخرى تجدر الاشارة اليها ، وهي أننا لا نعلم ان كان بيت الحكمة الذي أنشأه الرشيد ببغداد ، جزء من قصره ، أو كان بناية مستقلة ، فيرجع بعض الباحثين أنه كان دارا خاصة بالكتب ضمن قصور الخلافة (٨٣) ، وقد أشار ياقوت الى دار تتكون من عدد من الحجر والخزائن فيها عدد من الوراقين الذين كانوا يملون على أناس لا يمكن ضبط عددهم لكثرتهم ، مما يدل على أن هذه الدار كانت مكتبة عامة ٠ قال ياقوت : « ان أبا بريدة الوضاحي قال : أمر أمير المؤمنين الفراء أن يؤلف ما يجمع به أصول النحو وما سمع من العرب ، فأمر أن تفرد له حجرة من حجر الدار ووكل بها جواري وخدما للقيام بما يحتاج اليه حتى لا يتعلق قلبه ولا تتشوق نفسه الى شيء ، حتى أنهم كانوا يؤذونه بأوقات الصلاة ، وصير له الوراقين وألزمه الأمناء والمنفقين ، فكان الوراقون يكتبون حتى صنف كتاب الحدود ، وأمر المأمون بكتبه في الخزائن ٠ وبعد أن فرغ من ذلك خرج الى الناس وابتدأ يملي كتاب المعاني (في تفسير القرآن) ، وكان وراقية سلمة بن عاصم ، وأبو نصر بن الجهم ، قال أبو بريدة : فأردنا أن نعد الناس الذين اجتمعوا

لاملاء كتاب المعاني فلم نضبط عددهم . ولما فرغ من املائه خزنه الوراقون عن الناس ليكتسبوا به وقالوا لا نخرجه لأحد الا لمن أراد أن ننسخه له (٨٤) .

« نتائج الترجمة »

كان من أهم نتائج الترجمة :

اشتغال كثير من المسلمين بدراسة الكتب التي ترجمت الى العربية ، اذ لم يكتف العرب بحال الطلب الذي اكتفت به أوروبا في القرون الوسطى (٨٥) ، بل عملوا على تفسير تلك الكتب المترجمة والتعليق عليها واصلاح أخطائها ، ونخص بالذكر من هؤلاء يعقوب بن اسحاق الكندي (ت ٢٥٧هـ ـ ٨٧٠م) الذي نبغ في الطب والفلسفة وعلم الحساب والمنطق والهندسة وعلم النجوم ، وقد حذا في تأليفه حذو أرسطو وترجم كثيرا من كتب الفلسفة وشرح غوامضها .

وتوصل العرب الى علم الكيمياء أو ما يعرف بـ (الصنعة) ، ومثل ذلك يقال عن عنايتهم بالطب والفلك والرياضيات ، وولوج المسلمين الى العلوم الفلسفية كاللاهوت والمنطق .

كان من نتائج الترجمة المهمة نشوء الوراقة والوراقين ببغداد ، وانتاج الكتب المترجمة لعدد كثير من الناس الذين كانوا يحرصون على اقتنائها أو بيعها ، كما يعنون بدراستها ومناقشتها في مجالس الأدب والمناظرة .

ولعل من أبرز المزايا التي اتصفت بها الترجمة في العصور العباسية ، أخذها بترجمة الكتب العلمية كالطب والرياضيات والفلك والكيمياء والفلسفة وعلم النجوم والمنطق والحكمة

والآداب والسير ، يقول ابن خلكان : « ولولا ذلك التعريب لما انتفع أحد بتلك الكتب لعدم المعرفة بلسان اليونان ··· لا جرم كل كتاب لم يعربوه باق على حاله ولا ينتفع به الا من عرف تلك اللغة » (٨٦) ·

ومن النتائج الأخرى ان العرب أخذوا يقرنون العلم بالعمل فقد عملوا آلات الرصد وأنشأوا المراصد في كثير من البلـدان أقدمها المرصدان اللذان أمر المأمون بانشائهما ، كان أحدهما في الشماسية ببغداد والثاني بسفح قاسيون بدمشق ، وجهـز المرصدان بآلات دقيقة صنعهـا الفلكيـون وأخذوا يرصـدون الكواكب ودونوا ملاحظاتهم ومشاهداتهم فكانت دقيقة الى حد ما (٨٧) ·

وبعد أن ترجم العرب كتب الحكمة واجتمع عندهم عـدد كبير منها ، رأى الخلفاء ومحبو العلم أن يجمعوا هذه الكتب في أماكن خاصة سميت « بيت الحكمة » أو « دار الحكمـة » أو « خزانة الحكمة » ·

الهوامش

(١) سعيد الديوه جي ، الامير خالد بن زيد ٢٠ ـــ ٢٦
د. ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية : ٤٢٩ .

(٢) ابن النديم ، الفهرست : ٣٥٢ .

(٣) محمد كرد علي ، خطط الشام : ٢١/٤ .
محمد اسعد طلس ، تاريخ الامة العربية : تاريخ بني امية : ٨٧ .

(٤) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٥٨ ، ٢٦٠ .

(٥) ن. م : ٢٧٩ .

(٦) ن. م : ٢٨١ .

(٧) ابن خلدون ، المقدمة : ٤٨٠ .

(٨) ابن النديم ، الفهرست : ٣٥٣ .

(٩) د. ابراهيم الشريفي ، التاريخ الاسلامي خلال اربعة عشر قرنا: ١٣٨ .

(١٠) د. ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية : ٤٣٠ .

(١١) ابن دحية ، النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس : ٤٨ .

(١٢) المسعودي ، مروج الذهب : ١٩/٤ ـــ ٢٠ .

(١٣) صاعد بن احمد الاندلسي ، طبقات الامم : ٧٥ ـــ ٧٦ .

(١٤) الكازروني ، مختصر التاريخ : ١٣٤ .

(١٥) الذهبي ، تاريخ الاسلام : ٣١٠/٥ .

(١٦) بروكلمان ، تاريخ الشعوب الاسلامية : ٢٧٠ .

(١٧) متز ، الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري : ٣٥٧ .

(١٨) د. ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية : ٤٣١ .

(١٩) اوليري : انتقال علوم الاغريق الى العرب : ٢٠٧ .

(٢٠) القفطي ، أخبار العلماء بأخبار الحكماء : ٢٠٨ .
(٢١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٨٣ .
(٢٢) ن٠ م٠ : ٢٨٣ .
(٢٣) ن٠ م : ٢٨٤ .
(٢٤) ن٠ م : ٢٨٤ .
(٢٥) ن٠ م : ٢٧٩ .
(٢٦) ن٠ م : ٢٧٩ .
(٢٧) ن٠ م : ٢٧٩ .
(٢٨) ن٠ م : ٢٨٠ .
(٢٩) ن٠ م : ٢٨٠ .
(٣٠) رأس العين : مدينة كبيرة مشهورة من مدن الجزيرة بين حران ونصيبين ودنيسر . (ياقوت ، معجم البلدان : ١٤/٣) .
(٣١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٨١ .
(٣٢) ن٠ م : ٢٨٢ .
(٣٣) ن٠ م : ٢٨٠ .
(٣٤) ن٠ م : ٢٨١ .
(٣٥) : ن٠ م : ٢٨١ .
(٣٦) ن٠ م : ٢٧٩ .
(٣٧) ن٠ م : ٢٨٢ .
(٣٨) ابن خلدون ، المقدمة : ٤٨٠ .
(٣٩) جرجي زيدان ، تاريخ التمدن الاسلامي : ١٣٨/٣ .
(٤٠) ن٠ م : ١٣٨ .
(٤١) ن٠ م : ١٤٠ .
(٤٢) تاريخ اليعقوبي : ٤٦٨/٢ .
(٤٣) ابن تغرى بردى ، النجوم الزاهرة : ٢٢٥/٢ .
(٤٤) بارتولد ، تاريخ الحضارة الاسلامية : ٧٩ .

(٤٥) حاجي خليفة ، كشف الظنون : ٢/٦٧٦ ــ ٦٨٢ .

(٤٦) اوليري ، انتقال علوم الاغريق العرب : ٢٠٣ ــ ٢٠٤ .

(٤٧) القفطي ، اخبار العلماء : ١٨٧ ــ ١٨٨ .

(٤٨) د. ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية : ٤٣٣ .

(٤٩) القفطي ، اخبار العلماء : ١٨٧ ــ ١٨٨ .

(٥٠) العبادي : نسبة الى العباد قبائل شتى من بطون العرب بالحيرة (ابن خلكان : وفيات الاعيان : ١/٢٠٦) .

(٥١) القفطي ، اخبار العلماء : ١١٨ .

(٥٢) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٧٩ .

(٥٣) القفطي ، اخبار العلماء : ١١٩ .

(٥٤) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية (مجموعة مقالات) ــ ترجمة عبد الرحمن بدوي ٥٨ .

(٥٥) القفطي ، اخبار العلماء : ٥٧ .

ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٧٩ .

(٥٦) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية : ٥٨ .

(٥٧) دائرة المعارف الاسلامية (الترجمة العربية) : مادة الكندي .

(٥٨) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية : ٥٩ ــ ٦٠ .

(٥٩) ابن النديم ، الفهرست : ٣٧٩ .

(٦٠) القفطي ، اخبار العلماء : ١٧٣ .

(٦١) ابن ابي اصيبعة ، عيون الانباء : ٢٨٠ ــ ٢٨٤ .

(٦٢) القفطي ، اخبار العلماء : ٢٤٨ .

(٦٣) ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ١/٣١٣ .

(٦٤) اوليري ، انتقال علوم الاغريق الى العرب : ٢٢٩ .

(٦٥) ابن الجوزي ، المنتظم : ٦/٢٩ .

(٦٦) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية : ٥٩ .

(٦٧) القفطي ، أخبار العلماء : ٨١ ــ ٨٣ .

(٦٨) ن.م : ١٣٠ ، ١٣٣ .

(٦٩) ابن النديم ، الفهرست : ٣٥٤ ــ ٣٥٦ .

(٧٠) التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية : ٤٣٧ ــ ٤٣٨ .

(٧١) د. ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية : ٤٣٧ ــ ٤٣٨ .

(٧٢) القفطي ، اخبار العلماء : ٢٤٩ .

(٧٣) ابن ألنديم ، الفهرست : ٣٩٦ .

(٧٤) ياقوت ، معجم الادباء : ٥/٦٦ .

(٧٥) سعيد الديوه جي ، بيت الحكمة : ٣٥ .

(٧٦) ابن النديم ، الفهرست : ١٨٠ .

(٧٧) ن. م : ١٨٠ .

(٧٨) ن. م : ١٨٠ .

(٧٩) ابن النديم ، الفهرست : ٣٩٧ .

(٨٠) القفطي ، اخبار العلماء : ٢٨٧ .

(٨١) صاعد بن احمد الاندلسي ، طبقات الامم : ٨٧ .

(٨٢) القفطي ، اخبار العلماء ، ٤٧ ، ٥٧ ، ١١٧ ــ ١٢٢ .

(٨٣) د. ناجي معروف ، اصالة الحضارة العربية : ٤٣٨ .

(٨٤) ياقوت ، معجم الادباء : ٧/٢٧٧ .

(٨٥) لوبون ، حضارة العرب : ٤٣٤ .

(٨٦) ابن خلكان ، وفيات الاعيان : ٢/٢١٧ .

(٨٧) سعيد الديوه جي ، بيت الحكمة : ٢٧ .

المصادر

ابن ابي اصيبعة ، موفق الدين ابو العباس أحمد بن القاسم بن ابي أصيبعة السعدي الخزرجي (ت ٦٦٨هـ / ١٢٧٠م) .

١. عيون الانباء في طبقات الاطباء (بيروت ١٩٦٥) دار مكتبة الحياة.
ابن الجوزي ، علي بن عبد الرحمن بن محمد (ت ٥٩٧هـ / ١٢٠٠م) .

٢. المنتظم في تاريخ الملوك والامم ج٦ — ١٠ (حيدر آباد الدكن ١٩٥٩) . ابن خلدون ، عبد الرحمن بن محمد (ت ٨٠٨هـ / ١٤٠٥م) .

٣. مقدمة ابن خلدون (مطبعة مصطفى محمد ، القاهرة) .

ابن خلكان ، شمس الدين احمد بن ابي بكر الشافعي (ت ٦٨١ هـ / ١٢٨١م) .

٤. وفيات الاعيان وانباء ابناء الزمان ، تحقيق احسان عباس ، ٨ اجزاء (دار الثقافة ، بيروت ١٩٦٨) .

ابن العبري ، غريغورس ابو الفرج ، هرون الطبيب (ت ٦٨٥هـ / ١٢٨٦م) .

٥. تاريخ مختصر الدول ، (المطبعة الكاثوليكية ، بيروت ١٨٩٠.)

ابو المحاسن بن تغري بردى ، جمال الدين يوسف ، (ت ٨٧٤هـ / ١٤٦٩م) .

٦. النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة ١٢ جزء (نسخة مصورة عن دار الكتب المصرية ١٩٦٣) .

ابن النديم ، محمد بن اسحاق ، (ت ٣٨٣هـ / ٩٣٣م) .

٧. الفهرست (مطبعة الاستقامة ، مصر) .

اوليري ، الدكتور دي لاسي .

٨. انتقال علوم الاغريق الى العرب ، ترجمة متي بيثون ، ويحي الثعالبي ط١ (مطبعة الرابطة ، بغداد ١٩٥٨) .

بارتولد ، ف.

٩. تاريخ الحضارة الاسلاميـــة ، ترجمة حمزة طاهــر ط ٣ (دار المعارف ، مصر ١٩٥٨) .

١٠. التراث اليوناني في الحضارة الاسلامية (جمهرة من المستشرقين) ترجمة د. عبد الرحمن بدوي .

بروكلمان ، كارل :

٢. تاريخ الشعوب الاسلامية ، ترجمة نبيه فارس (بيروت ١٩٦٥).

حاجي خليفة ، مصطفى كاتب جلبي (ت ١٠٦٧هـ / ١٦٥٧م) :

١٢. كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون (استانبون ١٩٤١).

١٣. دائرة المعارف الاسلامية ، الترجمة العربية للشنتاوي واخرين صدر منها ١٤ جزء . الديوه جي ، سعيد :

١٤. الامير خالد بن يزيد (دمشق ١٣٧٢ هـ) .

١٥. بيت الحكمة ، (بغداد) .

الذهبي ، شمس الدين بن قايماز (ت ٧٤٨هـ / ١٣٤٧م) .

١٦. تاريخ الاسلام وطبقات المشاهير والاعلام ، نشر منه ٦ اجزاء (نشر مكتبة القدسي) .

زيدان ، جرجي :

١٧. تاريخ التمدن الاسلامي ج٣ (مطبعة الهلال ١٩٣١) .

الاندلسي ، صاعد بن احمد .

١٨. طبقات الامم (طبعة مصر) .

لوبون ، غوستاف :

٩. حضارة العرب ، ترجمة عادل زعيتر ط٣ (القاهرة) .

محمد كرد علي :

٢٠. خطط الشام ج٤ (مطبعة الترقي ، دمشق ١٩٢٦) .

محمد اسعد طلس :

٢١. تاريخ الامة العربية عصر الاتساق ، تاريخ بني أمية ط٢ (دار الاندلس ، بيروت ١٩٥٨) .

متز ، آدم :

٢٢. الحضارة الاسلامية في القرن الرابع الهجري ، نقله الى العربية محمد عبد الهادي ابو ريدة ، (مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ١٩٥٧) .

القفطي ، جمال الدين ابي الحسن القاضي الاشرف يوسف (ت ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨ م) :

٢٣. اخبار العلماء بأخبار الحكماء (طبع مصر ١٣٢٦هـ) .

الكازروني ، ظهير الدين علي بن محمد البغـــدادي (ت ٦٩٧هـ / ١٢٩٧م) :

٢٤. مختصر التاريخ من اول الزمان الى منتهى دولة بني العباس ، تحقيق الدكتور مصطفى جواد (مطبعة الحكومة ، بغداد ١٩٧٠) .

الدكتور ناجي معروف :

٢٥. اصالة الحضارة العربية ، (مطبعة التضامن ، بغداد ١٩٦٩).

ياقوت ، شهاب الدين بن عبد الله الحموي الرومي البغدادي (ت ٦٢٦هـ / ١٢٢٨م) :

٢٦. معجم الادباء ، المسمى ارشاد الاريب الى معرفة الاديـــب ، بأعتناء مرغليوث ، (طبعة مصر ١٩٢٣) .

٢٧. معجم البلدان ٥ اجزاء ، (دار صادر ، دار بيروت ١٩٥٧) .

الدكتور ابراهيم الشريفي :

٢٨. التاريخ الاسلامي خلال اربعة عشر قرنا (سنة ومكان الطبع لم تذكر) .

ابن دحية الكلبي ، عمر بن حسن بن علي (ت ٦٣٣هـ / ١٢٣٥م) :

٢٩. النبراس في تاريخ خلفاء بني العباس ، صححه وعلق عليـــه عباس العزاوي (مطبعة المعارف ، بغداد ١٩٤٦) .

الدكتور حسن ابراهيم حسن :

٣٠. تاريخ الاسلامي السياسي والاجتماعي والديني والثقافي (مطبعة النهضة المصرية ١٩٦٣) .

المسعودي ، علي بن الحسين بن علي ، (ت ٣٤٦هـ / ٩٥٧م) :

٣١. مروج الذهب ومعادن الجوهر ، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد ، ط٣ ج٤ (مطبعة السعادة ، القاهرة ١٩٥٨) .

حمص في عصر الأمراء الأيوبيين

٥٧٠ هـ - ٦٦١ هـ

الدكتور رشيد عبد الله الجميلي
استاذ التاريخ الاسلامي المساعد
كلية الآداب ـ جامعة بغداد

امتداد النفوذ الأيوبي الى الشام :

كانت الدولة الأتابكية في الموصل قد انقسمت بعد وفاة مؤسسها عماد الدين زنكي في سنة ٥٤١هـ بين ولديه سيف الدين غازي بالموصل ونور الدين محمود في حلب وما جاورها من مدن الشام الشمالية ، وقد تمكن نور الدين من السيطرة على معظم بلاد الشام في فترة قصيرة ، وحشد الطاقات للوقوف في وجه التحدي الصليبي . فنجح في تحقيق سلسلة من الانتصارات خلال الحروب التي خاضها ضد الصليبيين في الشام حتى وفاته في دمشق سنة ٥٦٦هـ (١) .

وكان نور الدين قد ترك الحكم من بعده لولده الصغير الملك الصالح اسماعيل ، مما أدى الى تفجر الصراع بين الأمراء ورجال

(١) حول هذه الفترة التاريخية انظر : رشيد الجميلي ، دولة الاتابكة في الموصل ، بيروت ١٩٧٠ .

الدولة حول فرض وصايتهم على الملك الصالح ، وما ترتب على ذلك من ضعف الجبهة الاسلامية التي كانت عليها مهمة النضال ضد العدوان الصليبي ٠

ومما زاد في خطورة اقدام بعض أمراء الشام على الاتصال بالصليبيين وعقد الاتفاقات معهم ضمانا لاستمرار نفوذهم في المنطقة وطمعا في وقوفهم الى جانبهم ضد اخوانهم من أمراء الشام (١) ٠

وقد هيأت هذه الظروف لصلاح الدين الأيوبي ـ الذي كان ينوب عن نور الدين في مصر ـ أن يسهم في رسم الأحداث في الشام ، فقد رأى أن الأمر يتطلب سرعة التدخل لحسم الامور ، واعادة الوحدة الى الدولة التي بذل نور الدين نفسه من أجل بنائها ، فغادر مصر في مستهل سنة ٥٧٠هـ ودخل دمشق دون مقاومة تذكر ثم لم يلبث أن أخضع اليه باقي من الشام سوى حلب التي ظلت بيد الملك الصالح اسماعيل ، وكانت حمص (٢) من بين المدن التي استولى عليها صلاح الدين في الحادي والعشرين من شهر شعبان سنة ٥٧٠هـ وأقطعها الى ناصر الدين محمد بن أسد الدين شيركوه في شوال من السنة نفسها (٣) ٠

---

(١) Crousset, Histoire des Croiseder, Paris - 1753. p. 607.

(٢) سبق لنور الدين محمود ان اقطع حماه وحمص وقلعة بارين وسلمية وتل خالد والرها الى احد امرائه وهو فخر الدين مسعود بن الزعفراني (ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ٤١٧) .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ٤١٩ ، ٤٢٠ ، ٤٢٣ ، ابو شامة : الروضتين في اخبار الدولتين ج٢ ص ٦١١ ، ٦٤٠ .

ناصر الدين محمد وأهم الأحداث في عصره :

بدأت ولاية ناصر الدين محمد على حمص في وقت كان فيه صلاح الدين منشغلا في اخضاع بلاد الشام واقليم الجزيرة وتوحيد الجبهة الاسلامية استعدادا لخوض معارك التحرير ضد العدوان الصليبي على بلاد الشام ، وكان من الطبيعي أن يساهم صاحب حمص في الأحداث التي رافقت هذه المرحلة من تاريخنا في العصر الوسيط ، فكان لعساكر حمص دور في المعارك التي خاضها صلاح الدين ضد أمراء الأطراف من ناحية والصليبيين من ناحية أخرى ٠

والواقع أن مدينة حمص كانت مستهدفة من قبل الصليبيين في طرابلس وحصن الأكراد الذين حرصوا على الاستيلاء على هذه المدينة لأهميتها الاستراتيجية بالنسبة لقواعدهم في الشام ، فقد تعرضت الى هجوم صليبي استهدف احتلال الاعمال المحيطة بها خلال سنة ٥٧٣هـ فبادر محمد بن شيركوه للتصدي لهذا الهجوم وخرج على رأس قوات حمص وكمن للصليبيين في طريق عودتهم ٠ فهزمهم وقتل عددا كبيرا من قواتهم ، كما أسر جماعة من مقدمي عسكرهم (١) ٠

وحين عزم صلاح الدين على اخضاع الموصل كان محمد بن شيركوه أمير حمص من بين الأمراء المشاركين في تلك الحملة ، ولعب دورا بارزا في اقناع صلاح الدين للاستيلاء على الموصل « وبذل مالا كثيرا كي يقطعها له اذ تم الاستيلاء عليها (٢) » ،

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ٤٤٨ ـــ ٤٤٩ ٠

(٢) ابن واصل ، مفرج الكروب ج٢ ص ١١٩ ، العينسي ، عقد الجمان ج٢١ ص ٦٤٤ ٠

فشرع صلاح الدين في حصارها في الحادي عشر من رجب سنة ٥٧٨هـ ، غير أنه قوبل بمقاومة عنيفة من قبل عز الدين مسعود الذي استعد للحصار وشحن الموصل وأعمالها بالسلاح والرجال (١) ٠

وكان لذلك رد فعل لدى صلاح الدين فقد أدرك صعوبة الاستيلاء على الموصل ، وندم على موافقة محمد بن شيركوه على مهاجمتها خصوصا وأنه كان يرى أن عليه ، هذه الفترة استكمال سيطرته على اقليم الجزيرة وديار بكر ليضعف الموصل ويصبح الاستيلاء عليها أمرا ممكنا ، فانفرد بابن عمه محمد بن شيركوه وأنهى اليه مخاوفه وطلب اليه أن ينفذ ما كان قد وعد به من الأموال ، غير ان محمدا هذا رجع عما كان قد تعهد بدفعه من الأموال لصعوبة الاستيلاء على الموصل ، فاستاء صلاح الدين من ذلك وحمل محمد بن شيركوه وتقي الدين عمر مسؤولية الموقف الحرج الذي أحاط بقواته وقال : « غررتماني وأطمعتماني في غير مطمع ، ولو قصدت غيره قبله لكان أسهل آخذا بالاسم والهيبة التي حصلت لنا ، ومتى نازلناه وعدنا عنه ينكسر ناموسنا ، ويفل حدنا وشوكتنا (٢) » ٠ واضطر صلاح الدين الى رفع الحصار عن الموصل والرحيل عنها الى سنجار فتمكن من الاستيلاء عليها (٣) ٠

على أن علاقة صلاح الدين بابن عمه لم تتغير فظل محمد ملازما له ٠ فشارك في الحصار الثاني الذي فرضه صلاح الدين على الموصل أوائل عام ٥٨١هـ ، حيث أقام على حصارها مدة ،

---

(١) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٥٨ ، ابن ايبك ، كنز الدرر وجامع الغرر ج٧ ص ٦٦ — ٦٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ٤٨٥ .

(٣) العيني ، عقد الجمان ج٢١ ص ٦٤٥ .

ثم رحل عنها الى خلاط بعد أن بلغه وفاة صاحبها شاه أرمن في ربيع الآخر من السنة المذكورة ، وذكر المؤرخ ابن الأثير أن صلاح الدين جعل على مقدمة عساكره ابن عمه محمد بن شيركوه ، وقد تمكن السلطان من فرض سيطرته على خلاط وخطب له على منابرها (١) .

وفاة محمد بن شيركوه :

كان محمد بن شيركوه قد خرج على رأس قوات حمص الى اقليم الجزيرة للمشاركة في حصار الموصل في شعبان من سنة ٥٨١هـ وهو الحصار الثالث الذي تتعرض له هذه المدن على يد صلاح الدين وخطب الأخير على منابرها كما ضربت السكة باسمه في جميع أعمالها (٢) . وكان صلاح حينئذ مقيما بحران وقد لحقه مرض اشتد به حتى تساقط شعر لحيته ، فخلف الناس لأولاده ، وقسم عليهم البلاد ، وجعل أخاه الملك العادل وصيا على الجميع ، وكان معه بحران ابن عمه محمد بن شيركوه ، فرحل الى حمص ومر بمدينة حلب ، وذكر المؤرخ ابن الأثير أن محمدا هذا اتصل بجماعة من أهل حلب وأعطاهم بعض المال ، ثم واصل طريقه الى حمص فدخلها ، وبادر للاتصال بعدد من أهل دمشق وطلب اليهم تسليمه المدينة في حالة وفاة صلاح الدين ، غير أن محمد بن شيركوه لم يلبث أن توفي بعد أيام قليلة وقيل أنه أكثر من شرب الخمر ليلة عيد الأضحى فأصبح ميتا (١) ، ويضيف ابن الأثير على روايته هذه فيقول

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ٥١٤ .

(٢) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٧٠ ، ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ٧٣ ، ابن واصل ، مفرج الكروب ج٢ ص ١٧٢ .

(٣) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ٥١٧ ـ ٥١٨ ، وانظر كذلك ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ٦٩ .

ان صلاح الدين وضع على محمد بن شيركوه انسانا يقال له الناصح بن العميد وهو من مواطني دمشق ، اجتمع الى محمد ونادمه وسقاه سما ، فلما أصبحوا من الغد لم يروا الناصح ، فسألوا عنه ، فقيل أنه سار من ليلته الى صلاح الدين (١) . أما ابن شداد فذكر أن خبر وفاة محمد صاحب حمص وصل الى صلاح الدين وهو لا يزال في حران وقد تماثل للشفاء ، وان الملك العادل جلس للعزاء ، ولم يذكر سبب وفاة محمد بن شيركوه (٢) .

ويبدو ان ابن الأثير يحاول اتهام صلاح الدين بأنه وراء وفاة ابن عمه ، بسبب مراسلته لأهل دمشق ودعوتهم الى تسليمه المدينة بعد وفاة صلاح الدين ، ويعزز ابن الأثير روايته بقوله ان صلاح الدين حين رحل عن حران ، وصل الى حلب في الرابع عشر من المحرم سنة ٥٨٢هـ فأقام بها أربعة أيام وواصل طريقه الى دمشق ، فمر بحمص فاستقبله أسد الدين شيركوه بن محمد فأقره على ما كان لأبيه من الاقطاع ، ثم استعرض تركة محمد بن شيركوه « وأخذ أكثرها ولم يترك الا ما لا خير فيه (٣) » ، وأضاف أن شيركوه حضر عند صلاح الدين بعد موت أبيه بسنة ، فقال له : الى أين بلغت من القرآن ؟ فقال : الى قوله تعالى : « ان الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما انما يأكلونه في بطونهم نارا وسيصلون سعيرا » . وواضح أن ابن الأثير يشير بذلك الى

---

(١) نفس المصدر ، الكامل ج١١ ص ٥١٨ .
(٢) ابن شداد ، سيرة صلاح الدين ص ٧١ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ٥١٨ ، (ويضيف ابن خلدون ان محمدا اتفق مع اهل حلب ايضا على تسليمه البلد بعد وفاة صلاح الدين) ج٥ ص

أن صلاح الدين استولى على أموال وتركة محمد بن شيركوه ولم يراعي في ذلك حق ولده شيركوه الذي لم يكن له من العمر سوى اثنتا عشرة سنة (١) ٠

وقد أخذ عن ابن الأثير عدد من المؤرخين كأبي الفدا وابن الوردي وأبي المحاسن وابن خلدون حيث ذكروا أن محمدا مات مسموما وأن صلاح الدين له يد في ذلك ومما يستوجب الوقوف هنا ما ذكره أبو المحاسن من أن صلاح الدين كان يخاف محمد بن شيركوه لادعائه بأنه أحق بالملك منه وأنه كان على علم بما يدعيه ابن أخيه (٢) ٠

وقد ورد ابن العماد الحنبلي في الشذرات ذلك وقال ان محمدا كان يطمع في الحكم ويتطلع الى السلطة (٣) ٠

ولا نعلم من أين جاءت الأحقية بالملك التي يدعيها محمد هذا ؟ فمن المعلوم ان أباه أسد الدين شيركوه كان قد توفي بمصر سنة ٥٦٤هـ ٠ فأسند الخليفة العاضد الفاطمي الوزارة الى صلاح الدين الذي لم يلبث أن قطع الخطبة للفاطميين وأعاد مصر الى حظيرة الدولة العباسية في المحرم سنة ٥٦٧هـ ٠ وما تبع ذلك من وفاة نور الدين محمود بدمشق سنة ٥٦٩هـ ، واستقلال صلاح الدين بمصر ثم استيلائه على الشام واقليم الجزيرة وتوحيدها تحت زعامته ، وعلى هذا الاساس فان صلاح الدين لم يغتصب الملك من أحد ، فالدولة الأيوبية قامت على يده نتيجة الجهود التي بذلها خلال سني كفاحه في بلاد الشام

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ٥١٨ ٠
(٢)ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٦ ص
(٣) ابن العماد الحنبلي ، الشذرات ج٤ ص ٢٧٣ ٠

مستغلا بذلك الظروف التي أعقبت وفاة نور الدين · ثم ان صلاح الدين حين وزع الولايات على أفراد أسرته جعل الأفضلية لاخوته وأولادهم وقدمهم على أبنائه ·

والواقع ان مرض صلاح الدين واشرافه على الموت بحران ربما كان دافعا لبعض أفراد أسرته للاستئثار بحكم الولايات كما حدث بالنسبة لتقي الدين عمر أمير حماة ، الذي كان ينوب عنه عمه صلاح الدين في مصر ، فقد أشيع أنه استبد بمصر بعد سماعه بمرض صلاح الدين وظهر منه ما يشير الى استئثاره بالحكم ومحاولة استقلاله بمصر (١) · غير أن صلاح الدين لم يقدم على قتله أو تدبير مؤامرة ضده ، بل اكتفى فيما بعد باقصائه عن مصر وأعاده الى حماة وزاد في اقطاعه (٢) ·

وعلى ضوء ما تقدم نستبعد أن يكون لصلاح الدين يد في وفاة ابن عمه بن شيركوه الذي كان متزوجا من ست الشام بنت أيوب أخت صلاح الدين (٣) · والأرجح أن وفاة محمد كان بسبب اقباله على شرب الخمر وهو ما اتفقت عليه جميع الروايات حيث أجمعت على أن محمدا أكثر من شرب الخمر في الليلة التي توفي بها · أما رواية ابن الأثير فمع تقديرنا له كمؤرخ بارع له مكانته العالية بين المؤرخين ، الا أننا يجب أن لا نأخذ بكل ما ينقله عن صلاح الدين ، اذ لا يخفى أن مهاجمة الأخير لبلاد الموصل وحصاره لها ثلاث مرات وما ترتب على ذلك من فرض سيطرته على الدولة الاتابكية قد ترك آثرا سيئا في نفس المؤرخ ابن الأثير بسبب علاقته الوثيقة بأمراء هذه

(١) ابن الاثير ، الكامل ج١١ ص ٥٢٤ .

(٢) نفس المصدر ، الكامل ج١١ ص ٥٢٤ ، ابن الوردي ، ج٢ ص ١٣٧ .

(٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٦ ص ١٠٠ .

الدولة وانتمائه الى اقليم الموصل ، لذلك نراه أحيانا يتحامل على صلاح الدين ويغمز به في بعض المناسبات ٠

خلفاء محمد بن شيركوه :

خلف ناصر الدين محمد ولده أسد الدين في حمص وأعمالها الذي برز نشاطه السياسي بعد وفاة السلطان الناصر صلاح الدين الأيوبي في ٥٨٩هـ وما تلا ذلك تفجر النزاع بين خلفائه من بعده ، فشارك في تلك الأحداث وانحاز الى فريق ضد آخر تحقيقا لمصالحه الشخصية وطمعا في الحصول على المزيد من الولايات في بلاد الشام ٠

ففي سنة ٥٩٠هـ اشتد الخلاف بين الملك العزيز عثمان بن صلاح الدين صاحب مصر وأخيه الملك الأفضل صاحب دمشق ، نتيجة سعاية بعض الأمراء في مصر ، فعزم على انتزاع دمشق من الأفضل (١)

وقد أثار وصول عساكر الملك العزيز الى الشام مخاوف الأفضل ، فاستنجد بعمه الملك العادل ، فلم يتردد الأخير في مساعدته ونهض على رأس قواته نحو دمشق ، وانضم اليه كلا من الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، وناصر الدين محمد بن تقي الدين عمر صاحب حماة ، وأسد الدين شيركوه صاحب حمص ، بالاضافة الى من انضاف اليه من عساكر الموصل والجزيرة ، فانقلبت موازين القوى لصالح الملك الأفضل ، وتعذر على الملك العزيز تحقيق أهدافه ، وأدرك خطورة الموقف ، فمال الى الصلح ، واستقرت القاعدة على أن يكون

(١) ابن خلدون ، ج٥ ص ٣٣١ ٠

بيت المقدس وما جاوره من أعمال فلسطين بيد العزيز عثمان ، وتبقى دمشق وطبرية وأعمالها والغور بيد الأفضل ، وأن يعطي الأفضل أخاه الظاهر جبلة واللاذقية ، ويستقر الملك العادل بمصر مدبرا لدولة العزيز عثمان (١) ٠

غير ان الملك العزيز عثمان لم يلبث أن توفي بمصر في المحرم من سنة ٥٩٥هـ ، فخلفه ولده الملك المنصور محمد وكان عمره تسع سنوات ، فاتفق على احضار عمه الملك الأفضل عليا ليكون مدبرا لدولته (٢) ، في حين استقر العادل بدمشق ، وذكر المؤرخ ابن كثير ان الملك الأفضل وردت عليه كتب أخيه الملك الظاهر صاحب حلب وابن عمه أسد الدين شيركوه في سنة ٥٩٥هـ يحثانه على قصد الشام وانتزاع دمشق من الملك العادل، وبذلا له المساعدة في الأموال والرجال ، لا سيما وان الملك العادل كان قد ترك دمشق لحصار ماردين ٠ فجهز الأفضل على رأس العساكر المصرية وانضم اليه الملك الظاهر وأسد الدين بن محمد بن شيركوه ، غير أن أخبار هذه الخطة وصلت الى العادل في الوقت المناسب فرحل عن ماردين تاركا ولده الكامل ودخل دمشق قبل يومين من وصول الأفضل ٠ وشرع في اقامة التحصينات والاستعداد لمواجهة الهجوم (٣) ٠

والواقع ان عودة الملك العادل كانت مفاجئة للافضل فقد جعلت الاستيلاء على دمشق مهمة صعبة ، فقد كان الأخير واثقا من أن دمشق ستفتح أبوابها في وجهه ، وان أهلها سيرحبون به اخلاصا منهم لوالده السلطان صلاح الدين ، وهكذا لم يجد

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج١٢ ص ١٠٩ — ١١٠ ، ابن خلدون ، ج٥ ص ٣٣١ ٠

(٢) ابو الفدا : المختصر ج٣ ص ٩٥ ٠

(٣) ابن كثير : البداية والنهاية ج١٣ ص ١٨ — ١٩ ٠

الأفضل أمامه سوى فرض الحصار حول المدينة ومنع دخول المؤن والميرة اليها ، وجرت محاولات لاقتحام دمشق غير أنها فشلت في الاستيلاء عليها ، وأدرك العادل حراجة موقفه وقلة عسكره ، فأرسل يستنجد بالمماليك الناصرية ببيت المقدس ، فاستجابوا لندائه ونهضوا لمساعدته ، الا أن الأفضل علم بذلك فأرسل فرقة من العسكر بقيادة أسد الدين شيركوه ليقطع الطريق ويحول دون وصول هذه القوة الى دمشق ، غير أن هذه المحاولة فشلت وسلكت القوة طريقا آخر ونجحت في دخول المدينة ، في نفس الوقت الذي أرسل العادل الى ولده الكامل بالعودة فعاد بالعساكر الى دمشق وانضم الى أبيه في صفر من سنة ٥٩٦هـ (١) .

وهكذا انقلب الموقف لصالح الملك العادل ، وأدرك الأفضل وحلفائه عدم جدوى الحصار ، وظهر الخلاف بين الأفضل وأخيه الظاهر ، فرحلوا عن دمشق ، وتفرقت عساكرهم في ربيع الأول من السنة المذكورة (٢) . وعاد الأفضل الى مصر . فلما وصل بلبيس علم بأن عمه العادل قد سار في أثره ، فاستعد للقائه غير أنه انهزم وتمكن العادل من التقدم الى القاهرة فحصرها ، واضطر الأفضل الى مراسلة العادل وأعلن استعداده على ترك مصر على أن تكون له صرخد وميافارقين وحاني وجبل جور (٣) .

تطلع الصليبيون للاستيلاء على حمص :

كانت حمص هدفا لهجمات الصليبيين المتمركزين في طرابلس

---

(١) ابن الاثير ، الكامل ج١٢ ص ١٤٤ — ١٤٥ .
(٢) ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ٩٧ .
(٣) ابن الاثير ، الكامل ج١٢ ص ١٥٦ .

وحصن الأكراد الذين صعدوا عملياتهم العسكرية ضد المناطق المحيطة بالمدينة ، ويبدو أنهم حشدوا قوات كبيرة في سنة ٦٠٤هـ وتمكنوا من الوصول الى سوار حمص ، فاضطر أسد الدين الى طلب العون من الظاهر غازي صاحب حلب ، كما استنجد بملوك وأمراء الشام وسألهم الوقوف معه لصد العدوان الصليبي الذي يستهدف احتلال حمص ، فوصلت اليه قوات حلب ودخلت المدينة وشاركت في الدفاع عنها (١) ، وصادف ان تعرضت بعض قطع الأسطول المصري الى هجوم القراصنة من أهل قبرص الذين استولوا عليها وأسروا من فيها ، فبادر الملك العادل للقيام بحملة ضد الصليبيين في الشام وعزم على مهاجمة عكا ، فأوضح له صاحبها ـ حنا دي ابلين ـ أنه لا يتحمل مسؤولية ما حدث اذ ليس له أي سلطة على أهل قبرص ، وصالح الملك العادل وأطلق له سراح عدد من أسرى المسلمين في عكا (٢) ، وانتهز العادل فرصة وجوده في الشام وقرر القيام بعمليات عسكرية ضد الصليبيين في حصن الأكراد وطرابلس لارهابهم وابعاد خطرهم عن حمص ، فنزل عند بحيرة قدس وأرسل يستدعي العساكر من الأطراف فاجتمع لديه نحو عشرة آلاف من عساكر حمص وحماه وحلب والموصل واقليم الجزيرة (٣) وتحرك نحو حصن الأكراد وقاتل الصليبيين هناك وأسر خمسمائة من الاستبارية ، غير أنه لم يتمكن من اقتحام الحصن لحصانته ، فتقدم الى طرابلس واستولى في طريقه على حصن القليعات ، ثم بدأ بمهاجمة طرابلس وضربها بالمنجنيق ، وأرغم صاحبها على طلب الصلح وأطلق له ثلثمائة أسير من المسلمين ، كما

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج٨ ص ٥٢٩ ، ابو شامة ، ذيل الروضتين ص ٥٧ ، ٦٧ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ج١٢ ص ٢٧٣ .

(٣) ابن واصل . مفرج الكروب ج٣ ص ١٧٣ .

حمل بوهيمند الرابع الى الملك العادل الهدايا والأموال (١) ٠

وعاد العادل الى بحيرة قدس ، وأدركه الشتاء فأذن للعساكر بالرحيل الى بلادها ، وترك بحمص فرقة من العسكر تتولى المشاركة في الدفاع عن المدينة في حالة تعرضها لهجوم الصليبيين وعاد الى دمشق (٢) ٠

ونتيجة للعلاقات الطيبة بين العادل وأسد الدين صاحب حمص ، فقد شارك الأخير في الحملات العسكرية التي كان يتزعمها العادل ضد الامارات الصغيرة ، الشام واقليم الجزيرة لفرض سيطرته الكاملة على البلاد ، فشارك في الحملة التي أعدها العادل ضد سنجار تلبية لدعوة نور الدين أرسلان شاه صاحب الموصل في سنة ٦٠٦هـ ، وقد تمكن العادل من الاستيلاء على الخابور ونصيبين ، ثم واصل زحفه نحو سنجار وحاصرها حصارا شديدا ، غير أنه اضطر فيما بعد الى الرحيل عنها نتيجة تغير موقف حليفه نور الدين أرسلان شاه واتفاقه مع مظفر الدين كوكبوري ضد العادل ، ويبدو ان أسد الدين شيركوه كان هو الآخر يميل الى الرحيل عن سنجار ، فقد ذكر المؤرخون أنه لم يكن جادا في القتال وسمح بدخول القوات الى المدينة (٣) ٠

واعتقد ان أسد الدين اتخذ هذا الموقف نتيجة للنداءات التي أطلقها كلا من أمير الموصل وأمير اربل والداعية الى انهاء الخلاف ورفع الحصار عن سنجار ، بالاضافة الى تدخل الخلافة

---

(١) ابن واصل ، مفرج الكروب ، ج٣ ص ١٧٣ ، المقريزي ، السلوك ج١ ص ١٦٦ ٠

(٢) ابن الاثير ، الكامل ج١٢ ، ص ٢٧٤ ، ابن خلدون ج٥ ص ٣٤١ ٠

(٣) نفس المصدر ، ج١٢ ص ٢٨٧ ، سبط ابن الجوزي ، ج٨ ص ٤٥١ ، ابن واصل ج٣ ص ١٩٧ ٠

العباسية ودعوتها الى حقن دماء المسلمين ، أما بالنسبة لتغير موقف أمير الموصل من العادل فيبدو أنه شعر بالخطورة التي تترتب على الموصل نتيجة استيلاء العادل على سنجار . ويؤكد ذلك سبط ابن الجوزي حيث يقول ان المشارقة - ويعني بهم أمراء الموصل واربل والجزيرة - كرهوا مجاورة العادل فاتفقوا عليه (١) .

سياسة خلفاء العادل نحو حمص :

توفي الملك العادل بن نجم الدين أيوب في سنة ٦١٥هـ فخلفه في مصر ولده الملك الكامل ، علاقته بأمير حمص أسد الدين شيركوه حسنة في باديء الأمر ، وقد تجلى ذلك في التعاون المشترك ضد بعض الأمراء الايوبيين في الشام ، كما حدث في سنة ٦٢٦هـ حين عزم الملك الكامل على انتزاع حماه من قلج أرسلان بن محمد بن تقي الدين عمر ، فقد أنفذ جيشا جعل قيادته لأسد الدين وحاصر حماه عدة أيام ، فاضطر قلج أرسلان للذهاب الى الملك الكامل الذي كان نازلا قرب سلمية ، فاعتقله بها حتى اضطره الى تسليم حماه وقلعتها لأخيه المظفر محمود تنفيذا لوصية والده محمد بن تقي الدين عمر ، وأعطاه عوضا عن ذلك قلعة بارين ، كما أعطى سلمية الى أسد الدين محمد بن شيركوه تثمينا للجهود التي بذلها في هذه الحملة (٢) . وتكرر هذا التعاون بين الكامل وأسد الدين في سنة ٦٣١هـ . فشاركت قوات حمص في الحرب التي اندلعت بين الكامل وكيقباذ بن كيخسرو ملك بلاد الروم ، غير ان الكامل لم يتمكن من دخول بلاد الروم ،

---

(١) سبط ابن الجوزي ، مرآة الزمان ج٨ ص ٥٤١ .

(٢) ابن الاثير ، الكامل ج١٢ ص ٤٨٦ / ٤٨٧ ، ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ١٤٤ — ١٤٥ .

وأرسل فرقة من الجيش بقيادة المظفر أمير حماه ، الذي انهزم وحوصر في خرتيرت ، واضطر الى طلب الأمان من كيقباذ في آخر ذي القعدة سنة ٦٣١هـ ، ويذكر أبو الفدا ان أسد الدين شيركوه لعب دورا بارزا في التأثير على الأمراء الأيوبيين وحملهم على تغيير موقفهم من الملك الكامل ، فقد أشاع ان الاخير يهدف الى انتزاع بلاد الشام من أيديهم واقطاعهم بلاد الروم بعد أخذها من كيقباذ ، « فتقاعدوا عن القتال وفسدت نياتهم » (١) .

ويبدو ان أسد الدين شيركوه كان يخشى تعاظم نفوذ الملك الكامل في بلاد الشام ووجد أن مصلحته تقتضي ابقاءه في مصر بعيدا عن مسرح الأحداث في الشام ، اذ أن وجوده قريبا من امارته قد يدفعه الى التدخل في شؤون امارته وتحديد نفوذه في المنطقة .

على أن الملك الكامل لم ينس لأسد الدين شيركوه موقفه هذا ، فظل ينتظر الفرصة المناسبة للانتقام منه ، فلما بلغه وفاة أخيه الملك الأشرف بدمشق سنة ٦٣٥هـ رحل عن مصر لانتزاع دمشق من أخيه الملك الصالح اسماعيل ، وكان الأخير قد استعد لمواجهة الموقف وأرسل يستمد أهل حلب وأسد الدين شيركوه ، فشدد الكامل حصاره على دمشق ، وحدث خلال الحصار أن قدم الى دمشق خمسون رجلا من حمص فظفر بهم الكامل وشنقهم بين البساتين عن آخرهم ، وأعطى مدينة سلمية الى المظفر صاحب المظفر صاحب حماه ، وكان من اقطاع أسد الدين شيركوه (٢) .

ولم يستمر صمود الملك الصالح فلم يلبث أن أذعن للملك

---

(١) ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ١٥٤ ، ١٥٥ ، ١٥٦ .
(٢) ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ١٦١ .

الكامل وتنازل عن دمشق في التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٣٥هـ ، وتفرغ الملك الكامل لاخضاع أسد الدين ، فأرسل قواته لانتزاع حمص ، فحاول أسد الدين استرضاء الكامل وأرسل اليه نساءه ليستعطفنه غير أن الكامل أصر على موقفه وصمم على انتزاع حمص ، ثم رحل الى دمشق ومات بعد أيام قليلة من وصوله ، فزال الخطر عن حمص ، وأظهر أسد الدين فرحه بوفاته ، وبادر بارسال عساكره لاستعادة سلمية من صاحب حماه ، وذكر أبو الفدا أن أسد الدين قطع القناة الواصلة من سلمية الى حماه فيبست بساتينها ، ثم أقدم على سد مجرى نهر العاصي من بحيرة قدس ، فتوقفت نواعير حماه والطواحين ، وذهبت مياه العاصي في الأودية ثم عاد وتدفق ثانية في مجراه القديم نهر العاصي (١) .

وتولى حكم دمشق العادل أبي بكر خلفا لوالده الكامل ،وكان مقيما آنذاك في مصر ، فاتفق الامراء على أن يقوم الملك الجواد يونس (٢) بحكم دمشق نيابة عن العادل بن الكامل ، فتحركت أطماع الملك الناصر داود (صاحب الكرك) للاستيلاء على دمشق ، فهاجمها في أواخر سنة ٦٣٥هـ ، غير أنه لم يحقق أي نجاح من هذا الهجوم ، اذ تمكن الملك الجواد من الحاق الهزيمة بقواته ، على أن الأخير لم يلبث أن اضطر للتنازل عن دمشق الى الملك الصالح أيوب بن الكامل ، فأعطاه سنجار والرقة وعانه ، وكان المظفر صاحب حماه ينتظر الفرصة للانتقام من أسد الدين شيركوه فحرض الملك الصالح على مهاجمة حمص ، فخرج الأخير على رأس قواته من دمشق . وكان المظفر قد اتفق مع الخوارزميين على انتزاع حمص من أسد الدين شيركوه ،

(١) نفس المصدر ، المختصر ج٣ ص ١٦١ — ١٦٢ .

(٢) هو الملك الجواد يونس بن مودود بن العادل بن نجم الدين ايوب.

فحاصرت قواتهما المدينة ، الا أن أسد الدين تمكن من استمالة الخوارزميين عن طريق المال وحملهم على الرحيل عن حمص ، فاضطر المظفر الى رفع الحصار والعودة الى حماه كما آن الملك الصالح أيوب كان معسكرا في (الثنية) فلما علم بتفرق العساكر قرر العودة الى دمشق (١) ، وكان الملك الصالح قد ترك بها ولده المغيث عمر ، فاستغل الملك الصالح اسماعيل بن العادل صاحب بعلبك غياب الصالح أيوب عن دمشق ، فاتفق مع أسد الدين شيركوه وهاجما المغيث عمر وأخذا دمشق واعتقلاه بها ، فلما علم الصالح أيوب بذلك أسقط بيده وتفرقت عساكره وقصد نابلس فسمع بوصوله الملك الناصر صاحب الكرك فاعتقله مدة ثم أطلقه ، أما أسد الدين شيركوه فلم يلبث أن توفي في عام ٦٣٧هـ بعد حكم دام ست وخمسون عاما وخلفه ولده الملك المنصور ابراهيم بن شيركوه (٢) .

موقف حمص من الخوارزميين :

انتهز الخوارزميون غياب الملك الصالح أيوب عن الشام وهاجموا مدينة حلب في عام ٦٣٨هـ وفشل أميرها المعظم توران شاه في التصدي لهذا الهجوم وانهزم هزيمة نكراء ولقي الصلح بن الأفضل بن صلاح الدين مصرعه كما وقع تورانشاه نفسه في الأسر ، وتقدم الخوارزميون الى منبج ودخلوها عنوة في أواخر ربيع الاول سنة ٦٣٨هـ ، ثم عادوا الى حران (٣) .

ووصل الملك المنصور ابراهيم على رأس قوات حمص نجدة

---

(١) ابو الفدا ، المختصر ج١ ص ١٦١ — ١٦٣ .
(٢) أبو الفدا ، المختصر ج٣ ص ١٦٥ ، ١٦٦ .
(٣) ابن الوردي ، ج٢ ص ٢٤٤ .

لأهل حلب ، وكان معه فرقة من عسكر دمشق ، فاجتمعت اليه قوات حلب والقبائل العربية واستعد لقتال الخوارزميين الذين نزلوا على شيزر وتقدم الى تل السلطان فتراجع الخوارزميون الى الرقة ووصلوا الفرات في أواخر شعبان سنة ٦٣٨هـ ، ونشب القتال بين الطرفين واضطر الخوارزميون الى عبور الفرات فتعقبهم المنصور ابراهيم والتقى بهم عند الرها في الحادي والعشرين من رمضان فانهزموا الى عانه ، فانتهز بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ذلك وهاجم نصيبين وادارا واستولى عليهما من الخوارزميين ، ثم خلص الملك المعظم تورانشاه من الأسر مع عدد من أصحابه وحمله الى الموصل ثم بعث به الى عساكر حلب ، أما المنصور ابراهيم فقد استولى على بلد الخابور وضمه الى نفوذه ثم عاد الى حمص (١) .

غير أن الحرب ما لبثت أن تجددت بين أهل حلب يعاونهم أمير حمص والخوارزميون ومعهم المظفر غازي صاحب ميافارقين ، ودار القتال بالقرب من الخابور أواخر صفر سنة ٦٤٠هـ فانهزم الخوارزميون ونزل الملك المنصور في خيمة المظفر غازي واستولى على خزائنه وعاد الى حلب في جمادى الأولى من السنة المذكورة (٢) .

ثم تطور الصراع بين الأيوبيين فتحالفوا مع أعدائهم من أجل تحقيق أطماعهم الشخصية فتعاون أمراء مصر الأيوبيين مع الخوارزميين ، في حين تحالف الأيوبيون في الشام مع القوى الصليبية فاجتمعت قوات حمص مع قوات دمشق والصليبيين في عكا بقيادة المنصور ابراهيم بن شيركوه ودارت الحرب بظاهر غزة فانتصرت قوات مصر بقيادة الملك الصالح أيوب ومعه

---

(١) ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ١٦٨ .

(٢) نفس المصدر ، المختصر ج٣ ص ١٧٠ ، ١٧١ .

الخوارزميون على عساكر الشام واستولى على غزة والقدس ومناطق الساحل ، ثم أرسل قسما من جيشه الى دمشق فحاصرها وكان بها الملك الصالح اسماعيل وابراهيم بن شيركوه أمير حمص ، واستمر الحصار حتى دخلت سنة ٦٤٣هـ ، فاضطر الصالح اسماعيل الى تسليم المدينة على أن تكون له بعلبك وبصرى وأن يستقر ابراهيم بن شيركوه بحمص وأعمالها ، وخسر الأخير مدينة سلمية التي انتزعها منه أمير حماه (١) .

غير ان أمير حمص ما لبث أن غير موقفه من حليفه الصالح اسماعيل وقرر الانضمام الى الصالح أيوب ، وذلك بسبب تعاون الصالح اسماعيل مع الخوارزمين والملك الناصر صاحب الكرك وعزمهم على مهاجمة دمشق ، وتمكن أمير حمص من انزال الهزيمة بالخوارزميين وحلفائهم ، وكان لتغير موقف ابراهيم بن شيركوه هذا وقع طيب لدى الملك الصالح في مصر « وزال ما كان عنده من الغيظ على ابراهيم صاحب حمص وحصل بينهما التصافي بسبب ذلك (٢) » .

وعلى أثر تحسين العلاقات بين الملك الصالح وابراهيم بن شيركوه أرسل الأخير يطلب السماح له بدخول مصر ، وكان ابراهيم يعاني من مرض السل ، فلما وصل دمشق اشتد عليه المرض وتوفي بها في سنة ٦٤٤هـ ، فنقل الى حمص ودفن هناك ، وخلفه ولده الملك الأشرف مظفر الدين موسى (٣) .

استيلاء الناصر صاحب حلب على حمص :

لم يمض على حكم الأشرف موسى سوى عامين حتى أرسل

---

(١) ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ١٧٢ ، ١٧٣ ، ١٧٤ .
(٢) نفس المصدر ، المختصر ج٣ ص ١٧٥ .
(٣) ابن الوردي ، ج٢ ص ٢٥٤ .

الملك الناصر صاحب حلب قواته بقيادة شمس الدين لؤلؤ الأرمني لانتزاع حمص ، فحاصر المدينة مدة شهرين ، واضطر الأشرف الى تسليم حمص على أن يأخذ عوضا عنها بل باشر بالاضافة الى ما كان بيده من تدمر والرحبة ، فلما بلغ ذلك الملك الصالح أيوب في مصر رحل الى الشام لاسترجاع حمص من صاحب حلب ، فوصل دمشق وأنفذ من هناك جيشا الى حمص بقيادة حسام الدين ابن أبي علي فخر الدين بن الشيخ فحاصر المدينة حصارا شديدا ، وذكر أبو الفدا أن قوات الملك الصالح نصبت منجنيقا مغربيا يرمي بحجر زنتها مائة وأربعون رطلا بالشامي . بالاضافة الى عدد آخر من المنجنيقات ، وأشرفت على أخذ حمص ، غير أن تطور الأحداث في مصر في هذه الفترة حيث تعرضت دمياط لهجوم الصليبيين اضطر الملك الصالح الى رفع حصاره عن حمص ، بالاضافة الى تدخل الخلافة العباسية ودعوتها الى الصلح فاستقر الحال على احتفاظ الملك الناصر بحمص ، وعاد الملك الصالح الى دمشق في طريقه الى مصر ووصل المنصورة في صفر من سنة ٦٤٧هـ (١) .

موقف حمص من الغزو المغولي :

في الوقت الذي كان الصراع يشتد بين الأيوبيين في الشام بدأ المغول زحفهم نحو هذه البلاد بعد أن انتهوا من اجتياح بغداد واسقاط الخلافة العباسية في سنة ٦٥٦هـ ، ووصلت طلائعهم الى حلب بقيادة هولاكو في الثاني من صفر سنة ٦٥٨هـ (٢) ، وأرسل الى الملك المعظم تورانشاه بن صلاح الدين

---

(١) ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول ص ٢٥٨ ، ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ١٧٧ — ١٧٩ .

(٢) سبق للمغول ان هاجموا حلب بعد ان استولوا على حران وبلاد الجزيرة (انظر : ابو الفدا ج٣ ص ١٩٩ — ٢٠٠ ، ابن خلدون ، ج٥ ص ٣٦٥) .

يطلب اليه تسليم حلب ، غير ان الأخير رفض ذلك وأجاب : « ليس لكم عندنا الا السيف » • وشدد المغول حصارهم على حلب ونشب القتال بين الطرفين واستبسل أهل حلب في الدفاع ولقي عدد كبير منهم مصرعه ، وتمكن المغول من دخول المدينة في التاسع من الشهر المذكور بعد حصار استمر سبعة أيام ، وغدروا بأهلها ثم استولوا على قلعتها بالأمان في الحادي عشر من ربيع الأول وخربوا أسوار حلب والقلعة (١) •

وقد أثار سقوط حلب بأيدي المغول الخوف والهلع لدى الأمراء الأيوبيين في الشام ، فأسرعوا لتقديم الطاعة وتأكيد ولائهم لهولاكو ، وكان ممن حضر منهم الملك الاشرف موسى بن ابراهيم بن شيركوه ، فاستقبله هولاكو وأعاد اليه مدينة حمص التي انتزعها منه الملك الناصر صاحب حلب في سنة ٦٤٦هـ ، كما أرسل أمير حماه مفاتيح المدينة الى هولاكو ، ثم لم يلبث أن غادر الشام وانضم الى المماليك في مصر ، ثم زحف هولاكو الى حارم فدخلها وقتل أهلها عن آخرهم (٢) ، ثم أذن للملك الأشرف موسى بالرحيل عن حلب فوصل حماه وقام بتخريب أسوارها تنفيذا لأوامر هولاكو ، وبيعت الكتب التي كانت بدار السلطنة بقلعة حماه بأبخس الأثمان ، وذكر أبو الفدا أن هولاكو كان قد أمر الأشرف موسى بتخريب قلعة حمص ، غير أنه لم يخرب سوى جزء قليلا منها (٣) •

أما دمشق فقد أرسل اليها هولاكو خلال اقامته بحلب جيشا بقيادة كتبغا ، فوصلها آخر صفر سنة ٦٥٨هـ فاستقبله كبار الأمراء بالترحيب ، ودخلها دون مقاومة ، غير ان حامية القلعة

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٣ ص ٢١٨ .
(٢) ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ٢٠٢ ، ٢٠٣ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٥٩ .
(٣)نفس المصدر ، المختصر ج٣ ص ٢٠٣ .

رفضت التسليم ، فنصب عليها المنجنيقات وتداعت أسوارها ، واضطر بدر الدين قراجا الى تسليمها ، فخربها كتبغا وأمر بقتل بدر الدين قراجا ، وسلم المدينة وقلعتها الى أحد أمراء المغول (١) .

انتصار المماليك على المغول ونهاية النفوذ الأيوبي في الشام :

آل حكم مصر بعد مصرع تورانشاه في سنة ٦٤٨هـ الى المماليك الذين وقع اختيارهم على شجر الدر أرملة الملك الصالح أيوب كي يحولوا دون وصول الطامعين من الأيوبيين الى الحكم ، وثم بعد ذلك زواج شجر الدر من المعزايبك الذي لم يلبث أن لقي مصرعه بتدبير من شجر الدر في سنة ٦٥٨هـ بسبب عزمه على الزواج من ابنة بدر الدين لؤلؤ أمير الموصل ، غير أنها لم تسلم من انتقام أتباع ايبك فلقيت مصرعها على أيديهم وألقوا بجثتها من سور القلعة الى الخندق (٢) .

واجتمع قادة المماليك واتفقوا على تنصيب نور الدين علي بن ايبك سلطانا على مصر ، وكان نور الدين هذا صبيا لا يتجاوز الخامسة عشرة من العمر ، وكانت الظروف التي آنذاك تستلزم توفر قيادة تتمكن من مواجهة الخطر المغولي الزاحف من الشام الذي أثار القلق في مصر ، فتم عزل نور الدين علي وتولى الحكم سيف الدين قطز الذي لقب بالملك المظفر (٣) .

وأصبح على عاتق السلطان الجديد مهمة التصدي للغزو المغولي وانقاذ مصر من الدمار الذي ينتظرها على أيدي الغزاة، فلم يكد يستقر بالحكم حتى وافته رسل هولاكو يطلبون منه

---

(١) ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٣ ص ٢١٩ .

(٢) ابن اياس ، بدائع الزهور ج١ ص ٩٠ ، المقريزي ، السلوك ج١ ص ٣٦١ — ٣٦٨ ، ٤٠٣ ، ٤٠٤ ، ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٦ ص ٣٧٨ .

(٣) ابو المحاسن ، النجوم الزاهرة ج٧ ص ٥٥ .

الاستسلام وفتح مصر أمام المغول ، ويحذرونه من الامتناع والمقاومة « فنحن ما نرحم من بكى ولا نرق لمن شكى وقد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وطهرنا الأرض من الفساد وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب وعلينا بالطلب » . وكان جواب قطز على هذه الرسالة حازما يعبر عن تصميمه على القتال وايمانه بالنصر ، فقد أمر بقتل رسل المغول الأربعة وعلق رؤوسهم على باب زويلة (١) .

وبادر قطز الى حشد طاقات البلاد لمواجهة المغول ، وفي هذه الاثناء أخذت تتوافد على مصر جموع المماليك البحرية الذين غادروا الشام وأظهروا العزم على مقاومة المغول ، بالاضافة الى من وصل مصر من الأيوبيين أمثال المنصور محمد صاحب حماه وأخوه الأفضل عليا ، وكان هولاكو قد اضطرته الظروف الى الرحيل عن الشام بجزء من الجيش المغولي بعد أن بلغه وفاة أخيه منكوخان وتفجر النزاع بين اخوته حول عرش جنكيزخان (٢) .

وذكر المؤرخ ابن كثير أن كتبغا نائب هولاكو في الشام حين علم بخروج المصريين للقتال استشار الأشرف موسى صاحب حمص والمجير بن الزكي قاضي دمشق في ذلك ، فأشاروا عليه بطلب الامداد من هولاكو ، غير أن كتبغا أبى ذلك فقد كان واثقا من نفسه ، وقرر خوض المعركة ، ودارت الحرب بالقرب من عين جالوت في الخامس والعشرين من رمضان ٦٥٨هـ ، فانهزم المغول هزيمة نكراء ولقي كتبغا مصرعه في المعركة وطارد المماليك فلول المغول حتى أطراف حلب (٣) .

---

(١) المقريزي ، السلوك ج١ ص ٤٢٧ ، ٤٢٨ ، ٤٢٩ .
(٢) رشيد الدين الهمداني ، جامع التواريخ ج١ ص ٣٠٨ .
(٣) ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٢ ص ٢٢٠ — ٢٢١ ، المقريزي ، السلوك ج١ ص ٤٣١ ، ابو المحاسن ، النجوم ج٧ ص ٧٩ ، ٨٢ .

وكان الملك الأشرف صاحب حمص قد فارق المغول وطلب الأمان من قطز فأمنه وأقره على حمص وأعمالها ، أما الملك السعيد فقد أحضر أسيرا وأمر قطز بضرب عنقه بسبب انضمامه الى المغول خلال المعركة ، كما أقر الملك المنصور صاحب حماه على ما بيده من البلاد ، وكان الاخير قد قاتل قتالا شديدا الى جانب المسلمين في عين جالوت (١) .

وواصل المماليك زحفهم نحو الشام ودخل قطز دمشق وسط مظاهر الفرح والترحيب فانصرف الى ترتيب الأمور في الشام واسترد حلب من المغول ، ثم أذن للأشرف موسى بالعودة الى حمص والملك المنصور الى حماه ، وغادر الى مصر بعد أن استناب الأمير علم الدين سبخر الحلبي الكبير على الشام (٢) .

وقد عاود المغول هجومهم على حلب في العام التالي أي في سنة ٦٥٩هـ ، وتمكنوا من احتلال المدينة ، غير أن المنصور صاحب حماه والملك الأشرف صاحب حمص تمكنا من استرداد حلب وطاردا المغول الى ما وراء الفرات (٣) .

والواقع ان معركة عين جالوت تعتبر الحد الفاصل للصراع بين الأيوبيين والمماليك ، فقد كانت ايذانا بغروب شمس الدولة الأيوبية وارتفاع دولة المماليك ، وأصبح سيف الدين قطز سيد الموقف في مصر والشام (٤) .

---

(١) ابو المحاسن ، النجوم ج٧ ص ٨٠ .
(٢) ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ٢٠٦ ، ٢٠٧ ، ابن كثير ، البداية والنهاية ج١٣ ص ٢٢٢ .
(٣) نفس المصدر ، المختصر ، ج٣ ص ٢٠٧ .
(٤) عاشور ، العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٧ .

أما حمص فقد استمر الأشرف موسى يحكمها نيابة عن المماليك حتى وفاته في ذي القعدة من سنة ٦٦١هـ ، حيث أرسل الظاهر بيبرس نوابه الى حمص ، وانتهى بذلك النفوذ الأيوبي في هذه المدينة (١) .



(١)ابو الفدا ، المختصر ج٣ ص ٢١٨ ، ابن خلدون ج٥ ص ٣٨٥ .

مصادر البحث :

١. ابن الاثير : الكامل في التاريخ .

٢. ابن شداد : سيرة صلاح الدين .

٣. سبط ابن الجوزي : مرآة الزمان .

٤. ابن واصل ، مفرج الكروب في اخبار بني ايوب .

٥. ابن العبري ، تاريخ مختصر الدول .

٦. ابو شامة : الروضتين في أخبار الدولتين .

٧. ابو الفدا : المختصر في اخبار البشر .

٨. ابن الوردي : تتمة المختصر .

٩. ابن كثير : البداية والنهاية .

١٠. ابن خلدون : تاريخ ابن خلدون .

١١. ابو المحاسن : النجوم الزاهرة .

١٢. المقريزي : السلوك .

١٣. ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في اخبار من ذهب .

١٤. ابن ايبك : كنز الدرر وجامع الغرر .

١٥. العيني : عقد الجمان .

١٦. رشيد الدين الهمذاني : جامع التواريخ .

١٧. عاشور : العصر المماليكي في مصر والشام .

١٨. رشيد الجميلي : دولة الاتابكة في الموصل .

أهداف ونتائج التعليم الفرنسي في افريقيا السوداء أثناء فترة الاحتلال

بقلم الاستاذ الدكتور عبد القادر زبادية
استاذ كرسي الدراسات التاريخية
الافريقية الحديثة بجامعة الجزائر

الانسان الجديد :

ان التساؤل عن الأسباب التي أدت الى التطورات الشخصية أو النفسية السريعة في افريقيا الغربية يمكن اعتباره في صميم الموضوع ، ذلك أنه في خلال أقل من نصف قرن أمكن للفرنسيين احلال اللغة الفرنسية محل اللغة العربية وأمكن لهم كذلك خلق جيل مهما تكن نسبته المئوية ضعيفة فانه استطاع آن يركز للاعتزاز بالفرنسية وللارتباط المصيري بها في كامل المنطقة الناطقة أو المستعملة للفرنسية في افريقيا الغربية والمدارية(١) . وأذكر بهذه المناسبة أنه في مؤتمر المؤرخين الافريقيين الذي انعقد في شهر ديسمبر (كانون الثاني) من سنة ١٩٧٥ في ياوندي عاصمة جمهورية الكاميرون كان هناك جمهور غفير من مثقفي افريقيا وخاصة الغربية والاستوائية ، وكان هناك بحث قدمه أحد الأساتذة النيجريين وموضوعه الهجرة من المناطق الخاضعة للاستعمار الفرنسي نحو المناطق الخاضعة للاستعمار

---

(١) عرف عن الاستعمار الفرنسي دائما الاسلوب المباشر في حكم المستعمرات وفي مجال التعليم بصورة خاصة كان هدف الادارة الفرنسية في المستعمرات دائما هو السير بالناس ، وبمختلف الاساليب كي يتحولوا الى فرنسيين لغة وعقلية وارتباطا وهو ما يعرف لدى الفرنسيين بـ (سياسة المزج او الاندماج . راجع :

D. Bouche, Histoire de l'ENS, dans L'A.O.F., univ. de Paris 1974.

الانكليزي في أيام الاحتلال ورغم أن الموضوع كان هاما وكان مدعوما بالوثائق والاحصائيات المقنعة الا أنه عندما انتقل الباحث الى الحديث عن الأسباب المتمثلة في طبيعة الاستعمار الفرنسي من حيث كونه استعمارا مباشرا كان قد ضايق الأهالي وخاصة في قوانين المزج Assimilation وفرض الضرائب ذات الشكل المضر على القبائل الرافضة ، ثار الكثيرون في شكل هوس واعتبروا مثل هذا التحليل الواقعي قدحا في الاستعمار الفرنسي لصالح الاستعمار الانكليزي ٠

يوجد الآن في افريقيا الغربية تطاحن واضح بين اللغتين الانكليزية والفرنسية ويهتم بهذا الموضوع معظم المثقفين بالثقافة الفرنسية ، وكأن هذا الموضوع يهم بلدانهم بمثل ما يهتم به بعض المثقفين والساسة الفرنسيين ٠

ويتم تعيين المتخرجين الجدد في الجامعات بأفريقيا الغربية من طرف الجامعات الفرنسية ويتلقى هؤلاء الاشعار بالترقية من طرف الجامعات الفرنسية ويشكل هؤلاء طبقة ممتازة في بلدانهم ترتبط أشد الارتباط بالدفاع عن الثقافة الفرنسية في أفريقيا ٠

لا يقبل الأستاذ Haregraves النظرية الشائعة لدى حكام أفريقيا الغربية السابقين من كونهم قد مكنوا للثقافة الفرنسية وللديانة المسيحية بدرجة كافية (١) ، والواقع أن اللغة العربية كانت لغة أفريقيا الغربية والمدارية حتى الحرب العالمية الأولى،

---

(١) الاستاذ هاريجريفس Haregraves من اقدم الاختصاصيين الباحثين في تاريخ المستعمرات الفرنسية في افريقيا وتطورها الاجتماعي والثقافي ، ويغلب على استنتاجاته التأثر الديني ٠ انظر كتابه :
French West Africa, New York. 1973.

ولعل أول عمل رسمي لايقافها نهائيا كان هو المرسوم الـذي أصدره حاكم أفريقيا الغربية في سنة ١٩١١ والقاضي بتحريم التحرير بالعربية في المحاكم منذ ذلك التاريخ (١) ٠

لقد كان للوجود الفرنسي في سواحل آفريقيا الغربية تاريخ طويل يعود الى القرن السادس عشر ، ولكن العمل المنظم ضد وجود العربية واحلال الفرنسية محلها انما بدأ مع بداية القرن العشرين ، ويعود للمفتش جورج هاردي G. Hardy الفضل الكبير في اعطاء الطابع الحقيقي لأهداف اللغة والثقافة الفرنسية في أفريقيا الغربية ، فقد جاء مفتشا للتعليم في تلك المستعمرات في ظروف صعبة ، ظروف الحرب الكونية الأولى ٠ ووجد معظم القرى لا يقبل سكانها وجود المدرسة الفرنسية ولا المعلمـين الفرنسيين بينهم ، ويفرون من القرية في جنح الظلام حينمـا يفرض وجود المدرسة الفرنسية في قريتهم بالقوة ، كما وجد المستوطنين الفرنسيين ورجال الشركات وأصحاب الأعمال ضد تعليم الافريقيين لأن ذلك في نظرهم كان مما سيخلق يقظـة في المستقبل قد تؤدي الى الفوضى والضرر بالمصالح التي يجنونها من مستعمراتهم ولكن هاردي وجد من الحكام العامين آذانـا صاغية فراح يشجع امتداد المدارس الفرنسية الى جميع المناطق الاستراتيجية في تلك البلاد الشاسعـة وأعطـى للمعلمين كـل المساعدة الضرورية وراح يختار ذوي الخبرة من بينهم وذوي الجرأة والصبر وقوة العزيمة ٠٠ واعتبر هاردي أن تعليـم المستعمرات انما هو تعليم النخبة التي سترتبط البلاد نهائيـا بفرنسا ، وأنه يجب أن يكون عبارة عن فتح أخلاقي وثقافي ، ومن ثم فهو لا يخضع لمقاييس التعليم العام في فرنسا وليس هدفه تكوين علماء ولا حتى ذوي معرفة على الشكل الكلاسيكي

---

(١) Circulaire du gouverneur général ponty en date du 8 Mai 1911.

في أوروبا ، وانما هو عبارة عن تعليم في شكل خاص ، فلا تدرس فيه الكيمياء ولا الفيزياء مثلا الا بالمقادير المحدودة والعامة جدا في الأطوار النهائية . وبدلا عن ذلك يدرس فيه المناخ في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر مادة أساسية ، ويدرس فيه النبات في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية ، ويدرس فيه المحيط والجغرافيا الطبيعية في فرنسا وأفريقيا الغربية ويعتبر ذلك مادة أساسية وتعطى في هذا التعليم الأولوية لكل ما تحتوي عليه فرنسا من ضروب التقدم والرقي (١) .

ويرى هاردي أن جميع الخريجين من الأفارقة يجب أن يضمن لهم مجال العمل حتى يكونوا القدوة لغيرهم ، وفضلا عن ذلك فقد عين هاردي ولأول مرة ، معلمين أفريقيين من بين الخريجين، وفي سنة ١٩١٦ أرسل عددا من الخريجين الذين لم يستعملوا في التعليم الى الدار البيضاء في المغرب الأقصى حيث هيئت لهم وظائف .

المدرسة الفرنسية ـ الاسلامية كوسيلة مساعدة :

لقد أخذت المدرسة الفرنسية في أفريقيا الغربية طابعها النهائي مع بدايات الحرب العالمية الأولى ، وذلك في وقت كانت هذه المدرسة قد مرت بتجارب واكتسبت خبرات في شمال أفريقيا وخاصة في الجزائر ، وعندما بدأت المدرسة الفرنسية تأخذ طابعها النهائي في أفريقيا الغربية كان في تلك البلاد عدد كبير من المدارس العربية التي تأسست في الماضي وبعضها كان له شهرة كبيرة وقديمة مثل مدرستي تمبكتو وجني اللتين بلغتا

---

(١) راجع :

Georges Hardy, Une Conquite morale, l'enseignement en A.O.F., Paris (A. Colin), 1917.

درجة الجامعات في أيام الأسقيين على الخصوص (١) ، ولم يكن من صالح الفرنسيين اغلاق تلك المدارس التي انتشرت لها فروع في عديد من الجهات ، كما لم يكن من صالحهم أبدا تركها تؤدي دورها كما كانت تعمل في الماضي ، وهذا ما دعاهم الى استعمالها لصالحهم ، ركز الفرنسيون اهتمامهم على جلب أبناء الوجهاء والعائلات الشهيرة في المنطقة ليرتبطوا عن طريقها بالحكم الفرنسي منذ الصغر ، أما التعليم في تلك المدارس فقد وضع له برنامج خاص يصف هاردي دواعيه بقوله : (لقد كان هناك اقتناع بأنه يوجد في غرب أفريقيا كما في الجزائر وتونس والمغرب الأقصى ثقافة اسلامية وذلك ما يدفعنا الى القيام ببعض التنازلات لهذه الحضارة التي سبقت وجود حضارتنا ، وأيضا بغية التسهيل لقبول تعليمنا الفرنسي فقد كان علينا أن نشتغل بالابقاء على نوع التعليم الرسمي للاسلام واللغة العربية بحيث تكون واسطة بين المدارس القرآنية والمدارس الفرنسية ، ويستهدف العمل على نسيان الأولى وقبول الثانية) (٢) .

لقد كانت كل مدرسة عربية ــ فرنسية Ecole Franco - Arabe أو مدرسة Medersa كما كانت تسمى أيضا ، تؤدي خدمة خاصة لانتشار الفرنسية على حساب اللغة العربية التي كانت حتى ذلك الوقت لغة العلم والدين معا ، ويتحدث هاردي عن البرنامج الخاص بتلك المدارس فيقول :

(ان برنامج هذه المدارس قد تحول نهائيا فلم تصبح

---

(١) لمزيد من المعلومات عن جامعة تمبكتو والمدرسة الجامعية في جني، راجع كتابنا (مملكة سنغاي في ايام الاسقيين ١٤٩٣ ــ ١٥٩١) ، الجزائر ١٩٧٤ ، وكذلك عبد القادر زبادية « ملامح الحركة التعليمية في تمبكتو ، القرن ١٦ » **المجلة التاريخية المغربية** ، تونس ١٩٧٧ .

(٢) Hardy, op. cit., p. 108.

جامعات اسلامية وانما هي بالضبط مدارس فرنسية ـ عربية ، يأخذ فيها اللسان الفرنسي والعلوم الفرنسية بالناصية أكثر فأكثر وذلك على حساب اللغة العربية والعلوم العربية ، وعلى سبيل المثال فان تعليم العربية قد تحرر من الطرق العربية الصرفة وأصبح عبارة عن ترجمات من العربية الى الفرنسية ، وبهذا أمكن تحويل الدرس المخصص للعربية الى دروس للفرنسية ، ثم يستطرد هاردي الى القول :

« ومن ناحية أخرى فان العربية والعلوم العربية من نحو وبلاغة وعروض وقانون أصبحت لا تستوعب كل الوقت ، بل نستطيع القول بأنها أصبحت لا تؤدي أكثر من رموز وذكريات في استعمال الزمن ، وقد اختلط بها تعليم الفرنسية والتاريخ والقانون والجغرافيا والحساب والعلوم المستعملة ، وبكلمة واحدة فان اللغة العربية لم يصبح لها من ذلك التاريخ في برنامج المدارس الفرنسية ـ العربية أكثر من الدور والمكانة التي تحتلها اللغات الأجنبية في الثانويات الفرنسية » (١) .

وبالاضافة الى هذا فقد ألحق الفرنسيون ببرنامج المدارس الفرنسية ـ العربية تدريس اللهجات المحلية وذلك على حد تعبير هاردي :

« لأنه يوجد أحيانا خط التقاء بين تعليم لغتنا واللهجات الأفريقية ، ذلك أن مهنة المترجم تحتاج الى تدريب وطني ، وطلابنا في الغرب الافريقي تكون لهم مناسبات للترجمة من العربية الى الفرنسية أقل بكثير من تلك المناسبات التي يحتاجون فيها للترجمة من اللهجات المحلية الى الفرنسية » (٢) .

---

(١) Hardy, op. cit., p. 110.

(٢) Ibid.

« وقد كان لخريجي هذه المدارس دور خاص بهم فهم مساعدو الادارة الفرنسية في شئون الأهالي وخاصة الحالات ذات الصبغة التقليدية والعائلية ، وفي هذه الوضعية نجد الفرنسيين يطبقون القاعدة التي طبقوها في شمال أفريقيا على خريجي المدارس الفرنسية ـ العربية ، وقد عبر هاردي بكل وضوح على الدور الخاص لخريجي المدارس الفرنسية ـ العربية كما كانت تستهدفه المصلحة الفرنسية بقوله :

« •• وبما أن مدارسنا تستهدف التصاق الطلبة بالتراب ، وتعويدهم على العمل اليدوي أو تحضير قائمين ببعض المصالح التقنية مثل ادارات البريد والأشغال العامة ، فان المدارس الفرنسية ـ العربية تكون بصورة عامة مترجمين رسميين قضاة أو كتاب ضبط للمحاكم الأهلية ، ورؤساء للجمعيات المحلية الأهلية ، وبعبارة واحدة مساعدين لادارتنا وعدالتنا وهذا ما يجعل من الضرورة تعويدهم على اللسان الفرنسي قراءة وكلاما ، ومن الضرورة كذلك أن يكونوا على معرفة جيدة بأغراضنا الحضارية •• » (١) •

وعلى عكس ما فعل الفرنسيون في الجزائر حينما اصطدموا اصطداما مباشرا مع الطبقة البورجوازية فانهم في آفريقيا الغربية اعتمدوا على بعض المتعاونين معهم بين أفراد تلك الطبقة ، فجعلوا تعليم أولادهم وفق المخطط الفرنسي في المدارس الفرنسية ـ العربية ضمانة وهدفا ، ويشرح هاردي هذه الحقيقة أكثر فيقول :

« بما أنه من المفروض أن المدارس الفرنسية ـ العربية

---

(١) Hardy, loc. cit., p. 111.

لا توظف طلابها عن طريق الصدفة ولذلك فهي لا تمتليء الا بالنخبة الاجتماعية .. وهذا يعني استعمال الطبقات الأرستقراطية الحاضرة وعلى مختلف المستويات على هذه البلدان الجديدة كضمانات جدية . ومن ناحية أخرى فان المدارس الفرنسية ـ العربية الثلاث في أفريقيا الغربية انما هي في الواقع وقبل كل شيء مدارس لأبناء وبنات الوجهاء ، ان مدرسة تمبكتو التي هي أكثر شبها بمدرسة الجزائر قد أقيمت في منطقة حضارية اسلامية قديمة وهي بالتالي تستقبل أبناء الأمراء والعلماء المشهورين في حوض النيجر (١) ، أما مدرسة بوتليميت (٢) التي وضعت الى حد ما تحت الرئاسة الشرفية للشيخ سيديا (٣) ، فهي تجمع أحفاد العائلات الكبيرة للترارزة والبراكنة والعصابة الذين كان آباؤهم قد لعبوا أدوارا مهمة في مختلف مراحل الاحتلال الفرنسي .. وتعتبر مدرسة سان لويس أكثر أهمية وهي تمتليء بشروط مماثلة ، وتقبل طلابها من بين (قبائل) الأولوف والتوكولور والموريطانيين والفلان والتسريس والماندينغ والسراكوليين والبمبارا (٤) . وهناك ١٢ طالبا على الأقل من أبناء الملوك السابقين في الناحية .. كما تأوي هذه المدرسة الأبناء الثلاثة لسلطان وضاي السابق الذين بعد أن أمضوا بعض الأشهر في ثانوية الجزائر قدر الحاكم

---

(١) تقع تمبكتو في الشمال الشرقي من مالي الحالية .

(٢) في الجنوب الموريطاني .

(٣) الشيخ سيديا ، كان من المتعاونين مع الادارة الفرنسية ، لمزيد من التفاصيل حوله ، انظر بصورة خاصة :

Charles Stewart, The role of shaykh Sidiyya and the Qandiriyya in southern, Oxford pH.D. thesis, 1970; Hardy, loc. cit; Massignon, (le bibliotheque d'un marabout, le cheikh Sidia,) Revue Africaine, 1921.

(٤) اسماء للقبائل الكبيرة والهامة في غرب افريقيا

Hardy, op. cit., pp. 111-12.

العام لأفريقيا الاستوائية الفرنسية أن يعهد بهم الينا » ، وينتهي هاردي الى النتيجة التالية :

(ان هذه المدارس الثلاث بعد أن تحولت وفق أهداف محددة لأفريقيا الغربية الفرنسية •• تستحق البقاء • وهي الى جانب المدارس الأخرى تكفي لأن تهيء لفرنسا رعايا مخلصين ومطيعين) (١) •

التاريخ :

في سنة ١٩١٦ صرح نائب لاليه l'Allier في الجمعية الوطنية الفرنسية السيد بيروني Peyronnet لمجلة الحوليات الاستعمارية Annales Coloniales قائلا : (ان هناك مادة أريد أن أرى اختفاءها دون تأسف ألا وهي مادة التاريخ ويكفي أن تعوض أثناء درس الفرنسية ببعض القراءات لتعطي لطلاب (المستعمرات) فكرة عن قوة بلادنا) (٢) •وقد طبق الفرنسيون هذه النظرية في البرامج المخصصة لمدارسهم في أفريقيا الغربية بكل دقة ، فكانت فكرة هاردي تقتضي تدريس التاريخ وفق الأهداف التي تبرر الوجود والاحتلال الفرنسي للمنطقة بل وتؤدي الى اقتناع الطلاب بوجوب بقائه ، ولتجسيم هذه الفكرة يقرر هاردي أن المعلم الفرنسي يجب أن يوضع في قسم تتخلله خطوط متشابكة لتجسيم المدفع الذي عياره ٧٥ مم ، وذلك هو التاريخ فان أضيف الى هذا حسن التنسيق والاختراع في تقديم المادة فان ذلك سيتناسب كل التناسب مع عقلية الأهالي القابلة للخوارق ، وعلى حد تعبيره (فان تدريس التاريخ في المستعمرات

---

(١) Ibid, p. 112.

(٢) Annales coloniales, 1916, p. 37.

يجب أن يبتعد عن أي تأثير كان قد عرفه ميشلي Michelet) (١)» .

لقد كانت الادارة الفرنسية في حاجة الى دراسة الأهالي نفسيا واجتماعيا حتى تتمكن من حكمهم ، وقد كان لرؤساء الأقسام العسكرية (chefs des circles Militaires) منذ البداية مساعدون لجمع المعلومات الشفاهية حول القبائل المختلفة ، واعتبروا ذلك هو التاريخ الذي يجب أن يعرفه الناس ويتدارسوه ، وكان من أشهر الكتاب الفرنسيين الرواد وفق هذا الأسلوب بول مارتي : Paul Marty وموريس دولافوس . Maurice Delafosse

ففي حين كان الأول جماعا للمعلومات الشفاهية ومتحريا الاغراض الادارية والسياسية للاحتلال الفرنسي فيما يكتبه كان الثاني حاكما لأعالي السنغال والنيجر ثم انتصب أستاذا (حجة) في تاريخ أفريقيا الغربية بباريس . ووفق طريقتهما أصبح هناك تاريخ لقبائل المنطقة الفرنسية بأفريقيا الغربية والاستوائية من نوع خاص تهمل فيه الوثائق المكتوبة بالعربية وقد يشار لبعضها أحيانا بشكل مقتضب وتعتمد المصادر الشفاهية اعتمادا كليا (٢) . ولا يزال لهذه المدرسة أثرها القوي في فرنسا حيث يتصدرها في تدريس طلاب أفريقيا الغربية الآن أو الاشراف على رسائلهم كل من Hubert Deshamps هيبردي شامب و Y. person ايف بيرسون في جامعة باريس وتضع هذه

---

(١) هو احد اصحاب النظريات الفلسفية المشهورين ، كرائد للمدرسة الفرنسية الحديثة في كتابة التاريخ .

(٢) cf. P. MARTY, Etudes sur L'Islam et les tribus du Soudan Paris, 1918; Maurice Delafosse, les Noirs de l'Afrique, Paris, 1918; Ba and Daget, L'empire peul de Macina, Paris 1962; Y.S. Martin, La France et le Senegal.. Dakar, 1967.

المدرسة كأساس الطريقة الاثنولوجية نصب أعينها فيصبح تاريخ المنطقة عبارة عن حركة مطردة للقبائل التاريخية المتطاحنة بين الشمال والجنوب وتفسر العلاقة بينها وبين العرب في الشمال على أنها كانت لا تتجاوز في نوعيتها العلاقة الاستغلالية التجارية في أبشع صورها وخاصة قضية الرقيق والذهب !

وكانت الادارة الفرنسية منذ البداية قد قطعت الصلات الانسانية بين أفريقيا الغربية وشمالها • وكونت جيش المهارة (أو الجمال السريعة) لمراقبة الحدود وانهاء حركة القوافل القديمة وبذلك حرمت كل تنقل عن طريق القوافل • وبقيت هذه الوضعية قائمة حتى استقلال كل من شمال أفريقيا وغربها• وأثناء هذه الحقبة الطويلة التي استمرت حوالي نصف قرن تمكن الفرنسيون من التشجيع على ظهور تقاليد سودانية خاصة في مجال الديانة ، وذلك بالتدخل المباشر والتمكين لنظام المريدين في الطريقة التيجانية أن يصبح هو السائد ، أما العناصر التي عارضت وعلى رأسها رجال الطريقة القادرية فقد قضي عليهم بمختلف الأساليب •• ومنها العنف •

الفرق بين جيلين :

كان القرن التاسع عشر هو عصر الجهاد في أفريقيا الغربية (١) • وقبل خضوعها للاحتلال الفرنسي في آخر ذلك القرن ، عمل عدد من رجالها على القيام بثورات اصلاحية ، كانت أهدفها :

(١) H.F.C. Smith, Aneglected theme of West African History - the Islamic revolutions of the 19th century in Journal of African society of Nigeria, Vol. 2, 1961, 184 FF.

١ ـ اصلاح وضعية المسلمين في بلادهم عن طريق احياء الاسلام في النفوس وتكوين دول حسب مفهوم العقيدة الصحيح .

٢ ـ نشر الاسلام الى المناطق الوثنية .

٣ ـ ربط صلات قوية مع العالم الاسلامي وخاصة في شمال أفريقيا وذلك كله مما يعرف بحركة الجهاد ، الا أن الخلافات التي رافقت فترة الجهاد هذه بين رجال الطريقة التيجانية والقادرية كان لها أثر عكسي خاصة في مناطق نهري النيجر والسنغال وساعد ذلك الفرنسيين على احتلال المنطقة كلها فيما بعد .

ولقد انتبه رجال وزعماء حركة الجهاد الى الخطر الفرنسي منذ البداية فعمل أحد البكباي الكنتي ، زعيم تمبكتو ، على الاستعانة بالانكليز ضد الفرنسيين وذلك حين تيقن بأن الانكليز لم يكونوا يريدون احتلال المنطقة على عكس ما كان يبيته الفرنسيون ، ورفض كل من الحاج عمر وابنه وخليفته أحمد الاحتلال الفرنسي أو الانتداب بكل الوسائل،ولما بدأ الفرنسيون في الثمانينيات من ذلك القرن تنفيذ مخططهم التوسعي باتجاه الجنوب والشرق انطلاقا من معقلهم القديم في سان لويس كان من أشهر من حاربوهم الشيخ ساموري في غينيا بكل تصميم وضراوة ، وأنشأ دولة مستقلة تشبه الدولة التي كان قد أسسها الأمير عبد القادر الجزائري لملائمة ظروف الحرب ضد الغزاة الفرنسيين ، ولكن كانت الظروف ملائمة للفرنسيين أكثر فتمكنوا من احتلال كامل أفريقيا الغربية مع بداية القرن

العشرين بقوة السلاح (١) ، وقد رفض السكان التجنيد الاجباري رفضا مطلقا في البداية حينما بدأ الفرنسيون تطبيقه في أفريقيا الغربية على غرار ما فعل اخوانهم في شمال أفريقيا وذلك اعتمادا على المبدأ الاسلامي لديهم من أنه لا يجوز التجند في جيوش غير اسلامية والقتال والموت للدفاع عن الفرنسيين المحتلين وكانت الحكومة الفرنسية آنذاك قد قررت وتريد تجنيد أبناء المستعمرات استعدادا للحرب العالمية الأولى ،فوجدت صعوبة كبيرة وتهربا من قبل الأهالي ، فاستأجرت العديد من المتعاونين معها لاصدار الفتاوى بجواز الموت الى جانب الدولة الحاكمة ، وقد خرجت فرنسا من الحرب العالمية الأولى منتصرة ثم دخلت الحرب العالمية الثانية فأعطت وعودا بتصليح أوضاع السكان في المستعمرات بعد الحرب وكانت النخبة المثقفة بالفرنسية قد تكونت فلما جاءت الانتخابات التمثيلية للجمعية الوطنية الفرنسية خاض الأهالي تلك الانتخابات دون استعداد وتحت المراقبة الادارية الصارمة للفرنسيين وهنا يبدأ دور الجيل الأخير الذي تكون في المدارس الفرنسية وعاش وترعرع في ظروف الاحتكاك بالفرنسيين وكانت له طموحات واسعة بحكم أرضيته الثقافية على الخط الفرنسي ، ولكن كانت لا تزال تقف أمامه حواجز دستور الرعوية وعدم المساواة بالفرنسيين الشباب الذين أخذ ثقافتهم وأراد الاندماج والمساواة بهم وعجز عن بلوغ هذه الأهداف ، ولذلك كانت مطالب الممثلين الأفريقيين في الجمعية الوطنية الفرنسية التي تكونت بعد الحرب لا تتجاوز المطالبة بادخال بعض الاصلاحات وعلى رأسها الغاء قوانين السخرة والغاء قانون الأهالي (أنديجينا) .

لقد نادى فرحات عباس (ممثل حزب البيان الجزائري في

Jean Suret - Canale, Afrique Noire, Paris, 1961, pp. 123-87.

الجمعية التأسيسية الفرنسية) بقيام دولة جزائرية وبرلمان جزائري ، وقال ميقان أبيثي : Migan Apithy الذي كان يمثل منطقة الداهومي ـ طوغو : (ان عنايتنا ليست الجلوس على ضفاف السين ولا أن نقحم أنفسنا فيما هو أساس قضايا الوطن الأم ولكن لتنظيم قضايا بلداننا على ضفاف الكونغو والنيجر) ، ثم أراد التأكيد على الارتباط بفرنسا قائلا : (ان الأفريقيين سيستمرون على المحادثة مع الشعب الفرنسي في القضايا التي تهم الجميع ، هذا الجميع الذي نكونه معهم) (١) · وربما يعتبر ميقان أكثر الممثلين من أفريقيا الغربية الفرنسية تقاربا مع مطالب بعض الممثلين من الشمال الأفريقي وزعماء أفريقيا الغربية الواقعة تحت الحكم الانكليزي الذين كانوا يطالبون اما بالحكم الذاتي أو الاستقلال ، وفي غير ذلك فقد كانت الواقعية هي أبرز سمة ارتبط بها السادة نواب الغرب الأفريقي في الجمعية الوطنية الفرنسية (٢) فحينما لوحظ بعض الامتعاض من طرف النواب الفرنسيين من مطالبة عباس فرحات بالحكومة المحلية ضمن الاتحاد الفرنسي في بلاده انبرى Apirthy ليخاطب النواب الفرنسيين قائلا : (بالتأكيد فان بعض زملائي قد طالب بالاستقلال في اطار الاتحاد الفرنسي للبلدان التي يمثلونها ، ولكن هذا لا يتعارض مع المباديء التي كنتم قد قبلتموها أنتم أنفسكم وأكدتموها في أحيان كثيرة) (٣) · وحينما تم رفض

---

(١) لمزيد من التفاصيل عن قرارات مؤتمر برازافيل ومطالب الممثلين الافريقيين في الجمعية الوطنية الفرنسية بعد نهاية الحرب العالمية الثانية ، راجع بصورة خاصة :

R. Morgenthau, political parties in French speaking W. Africa, Oxford, 1964; E. Mortimer, France and the Africans, London, 1969.

(٢) Ajayi and Crowder (eds.) In History of West Africa, V. 2, London, 1974, 664ff.

(٣) J. Officiel, debats 2e session, 18 Septembre 1946, p. 380.

المشروع الأول للدستور من طرف المنتخبين الفرنسيين لأنه كان يتضمن بعض مبادىء للمساواة بالرعاية في المستعمرات قال ياسين ديالو (وكان يمثل غينيا) : (انه فيما يختص بالأفريقيين فان الدستور المقترح قد أدى رفضه الى الرضى الكامل) (١) ٠

حينما أعلنت نتائج الانتخابات في أفريقيا الغربية بعد نهاية الحرب الكونية الثانية لم يفز بها غير بعض المثقفين في المدارس الفرنسية وكان للادارة المحلية الفرنسية دورها على كل حال ، ومنطقيا كان لا يمكن لنائب أن يؤدي دوره في الجمعية الوطنية الفرنسية على شكل من الأشكال بغير الفرنسية ، ولقد كان نواب الغرب الأفريقي حريصين منذ البداية على اعلان الارتباط بفرنسا ، وباستثناء ممثل غينيا (ياسين ديالو) فقد انقسم نواب الغرب الأفريقي جميعا حسب الانضمام اما للحزب الاشتراكي الفرنسي أو للحزب الشيوعي الفرنسي وهذا ضرب من الواقعية حيث كان هؤلاء الوافدون الجدد على باريس في حاجة الى التوجيه والخبرة بالمداولات البرلمانية ، ووجدوا في الحزبين الشيوعي والاشتراكي قبولا للانخراط ضمن كتلتيهما النيابيتين ، ولم يكن من هم نواب الغرب الأفريقي غير الاهتمام بادخال الاصلاحات ولما وجدوا في البرلمان الفرنسي خطرا واضحا تجاه مثل هذه المطالب انخرطوا ضمن مجموعة كتلة ما وراء البحار (الممثلة للمستعمرات) وهذا حتى يجدوا ، كغيرهم ، بعض التضامن (٢) ٠ لقد ضمت كتلة النواب لغرب أفريقيا الفرنسية آنذاك نائبين مسلمين من مجموع ستة نواب ،وباستثناء ممثل غينيا فان التمثيل لم يكن له أبدا علاقة نسبية بالدين ،

---

(١) Ibid., p. 3813.

(٢) MARCEL Chailley, Histoire de l'Afrique occidentale Française, Paris 1968, pp. 474ff.

ففي منطقة السنغال كان انتخاب سنغور المسيحي المتدين والذي لم يعش في السنغال منذ ١٩٢٨ حتى نهاية الحرب بتأييد واضح من لمين غاي ، ولم يكن تمثيل المناطق الاسلامية الأخرى ، وهي تمثل أكثر من ثلثي المساحة والسكان حتى ذلك الوقت ، لينسجم هو الآخر مع الوازع الديني ، وكان هذا اتجاها جديدا لم تكن لتعرفه أفريقيا الغربية على هذه الصورة في سنة ١٩٠٠ مثلا ولا في السنوات التي بعدها مباشرة قبل التجنيد الاجباري منذ سنة ١٩١٦ ، وبتكاثر عدد الطلبة الخريجين من المدارس الفرنسية في فترة ما بين الحربين أخذ الاتجاه الجديد طريقه الواضح الذي مثلته نخبة ضئيلة العدد ، ولكنها كانت شديدة الأثر لدرجة أنها جعلت النخبة القديمة المتمثلة في شيوخ القبائل والزعماء الدينيين تنقاد اليها . والحقيقة أن الادارة الفرنسية كان لها دورها الكبير في انتقاء أفراد من النخبة القديمة وخلقهم ليتلاءموا وهذا الاتجاه الجديد ، أما المناهضون فقد أكلتهم فترة الجهاد الأولى وقضي على أنصارهم وتشتت أحفادهم تحت نير الفاقة ، وبقي المناصرون الذين ازداد عددهم بفعل التهجير واعطاء الأولوية في كل ناحية للقادمين من مناطق بعيدة كي يواكبوا الركب ويخدموا أهداف الادارة مقابل أبهة الوجاهة والعيش الرغيد نسبيا في ظلها .

التعليم الديني الفرنسي :

لم يكن في أفريقيا الغربية كلها عند بداية القرن العشرين مسيحيون أفارقة ، وهذا باستثناء أفراد قلائل من الهجناء الذين توالدوا من جراء المعاشرة الطويلة للفرنسيين مع بعض الأهليات في سان لويس فلما انتهت الحرب العالمية الثانية تكونت البذور الأولى للجاليات المسيحية من الأهالي في عدة مناطق هي :

١ ــ بلدية السنغال (سان لويس ، داكار ، كوري ، روفيسك ، وتياز) .

٢ ــ في الكازا مانس (السنغال الجنوبي) .

٣ ــ في أعالي السنغال والنيجر (أفراد قلائل من قبائل البمبارا والموسى في سيغو بصورة خاصة) .

٤ ــ بعض الأفراد في باقاس بغينيا .

٥ ــ في ساحل العاج (على الساحل بصورة خاصة) .

٦ ــ في الداهومي (في الجنوب الغربي من ذلك الاقليم) .

لقد كانت تلك هي حصيلة سياسة التمسيح في مدة أربعين عاما ، وقد وجدت ثمارها الأولى في المناطق الوثنية وكان الرسميون الفرنسيون منذ البداية يعتبرون ذلك فتحا مبينا (١) والحقيقة أن الفرنسيين في أفريقيا كما في غيرها من مستعمراتهم كانوا يطبقون باستمرار قول غمبتا Gambetta ، ذلك السياسي الفرنسي الشهير : (ان مناهضة أعمال الكنيسة يجب أن لا تكون مادة للتصدير) ، ذلك أن التبشير كان قد منع في فرنسا منذ مدة طويلة ولكن الادارة الفرنسية في المستعمرات كانت تعتمد عليه اعتمادا كبيرا ، وكانت مدارس المبشرين في أفريقيا الغربية قد سبقت الى الوجود قبل المدارس الحكومية ، ولذلك فقد كانت المدارس التبشيرية واستمرت طيلة عهود الاحتلال تنفق عليها الادارة الفرنسية كما تنفق على مدارسها ، وذلك حسب تعبير

---

(١) HARDY, op. cit., p. 319.

هاردي (لأنه يكون من غير الصواب عدم الاعتراف بالعمل الفرنسي العميق الذي يؤديه المبشرون) (١) ٠

لقد كان المبشرون الكاثوليك هم عمدة العمل الفرنسي ، ولكنه سمح للبروتستانت أيضا بالعمل ، وكانت نسبة الكاثوليك الى البروتستانت بين الأهالي المنتصرين هي الغالبة منذ البداية٠ وبالرغم من أن مدارس (المرابطين) الاسلامية كما كان يطلق عليها (٢) ، كانت في ضعف متزايد من حيث كفاءة رجالها فان المبشرين وجدوا صعوبة كبيرة في تنصير المسلمين ولذلك قلدوا طريقة لافجري التي كان قد جربها في الجزائر ، وهي تعتمد على تربية اليتامى واقتناص مناطق المجاعات لتنصير بعض الأفراد من بين المسلمين ثم الهروب بهم أو عزلهم من المناطق الاسلامية بقدر الامكان حتى لا يعودوا للاسلام (٣) ٠ ثم مال المبشرون في الاتجاه الى الأعمال الاجتماعية مما سهل مهمتهم للاستقرار والانتشار في جميع المناطق ، وهذه الطريقة هي التي لا يزال يسير عليها المبشرون في أفريقيا الغربية ، وأغلبهم فرنسيون ، حتى الآن (٤) ٠

لقد سخرت الادارة الفرنسية في أفريقيا الدين لخدمة أهدافها واستخدمت المدرسة لنشر اللغة الفرنسية ، واستفادت من الامتيازات التي كان يحصل عليها الأفراد من التعاون مع

---

(١) Ibid. p. 320.

(٢) Les Ecoles des MARABOUT.

(٣) cf. Hardy, op. cit., p. 320; Paul Marty, les ecoles Mouraboutiques du Senegal, Paris, 1914.

(٤) لمزيد من التفاصيل حول طريقة الكاردينال لافيجري ، راجع بصورة خاصة :
LA VIGRIE, Oeuvres choisis (2vs.), Paris, 1884.

تلك الادارة للقضاء على اللغة العربية وتمكنت في أقل من نصف قرن من خلق طبقات جديدة تتوق الى أهداف وتتعلق بمفاهيم تختلف عن مفاهيم الأجيال السابقة ، وهو عمل كبير لا يمكن لمؤرخ أن لا يلاحظ المجهودات التي بذلها الفرنسيون عن جدية ومعرفة في سبيله • وأخيرا فانه لا يمكن اعتبار هذا البحث احاطة بموضوع واسع كهذا الذي نحن بصدده ، ولكنه ، وهذا هو الهدف الذي كتب من أجله ، اقتراح جدي لعناصر الموضوع، نضعها أمام الباحثين وخاصة الشباب من بينهم ، ولنا اليقين بأنه سوف لن تنقصهم المصادر وانما يلزمهم العمل •



مصادر البحث

— Ajayi and Crowder (eds) in History of West Africa v. 2, London, 1974.

— Annales Coloniales, 1916.

— Ba and Daget, L'empire peul de Macina, Paris, 1962.

— Bouche, D, Histoire de l'ens. en A.O.F. Nancy, 1974.

— Chailley, Marcel, Histoire de l'Afrique occidentale Française, Paris, 1968.

— Circulaure du Gouverneur General ponty. 8 Mai 1911.

— Hardy, Georges, une conquete morale, enseignment en A.O.F., Paris, 1917.

— Larvigerie, MMGR, oevures choisis, 2 v., Paris, 1914.

— Martin, Y.S. la France et Le Senegal. Dakar, 1967.

— Marty, P., Etudes sur L'Islam et les tribus du Soudan, Paris, 1918.

— Massignon, La bibliotheque d'en Marabout, le cheikh Sidia, in Revue Africaine 1921.

— Morgenthou, R., Political parties in French speaking W. Africa. Oxford, 1964.

— Marty Paul, les ecoles Maraboutiques du Senegal, Paris, 1914.

— Mortimer, E, France and the Africans, London, 1969.

— Smith, H.F.C., Aneglected theme of West History, in Journal of African History of Nigeria, Vol., 2. 1961.

— Stewart Charles, the role of shaykh Sidia and the Qadiriyya in Southern Mauritania, Oxford p.H.D., 1970.

— Suret — Canale, Afrique Noire, Paris, 1967.

مطالعات في الكتب

١ – « كتـــاب الهاجرية »

تأليف : باتريشيا كرون ـ مايكيل كوك

أصدرت مطابع جامعة كمبرج كتـــاب باســـم (الهاجرية) للمؤلفين : باتريشيا كرون وميشيل كوك ، والكتاب يقع بـ (٢٦٨) صفحة ويبحث في تاريخ العرب ظاهرا ولكنه مليء بالأخبار المختلفة والأكاذيب والنصوص المزورة • وانه لمـن العجب أن يصدر هذا الكتاب من جامعة لها عراقتها ولها نشاطها العلمي وأثرها الكبير في الجهود العلمية الممتازة وبخاصـة في حقل التراث العربي •

ان الكتاب أحدث ضجة في صفوف المؤرخين العرب والعالم وقد قام الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب بزيارات خاصة لكثير من المؤرخين العالميين واستطلع آراءهم فوجد حقا أن جميعهـم بلا استثناء يستنكر هذا العمل غير العلمي والمتميز بالحقـد والانحياز ، كما أكد الجميع بناء على طلب الأمانة العامة للاتحاد بأنهم مستعدون لفضح الكتاب ونقده علميا والعمل على ايقاف مثل هذه الكتابات التي تسيء الى سمعة العلم وتضيع من هيبة الجامعات والمؤسسات الثقافية ، وسيقوم عدد من الباحثين العرب بزيارات متكررة الى الجامعات الأجنبيـة لالقـاء محاضرات في التراث والحضارة ليبينوا مآثر العرب ومكانتهم في المجتمـع

البشري ومنجزاتهم الحضارية وتعرية تلك المقولات الحاقدة والتي لا تتسم بالعلمية ولا تتصف بالروح الموضوعية •

ونقدم الى القاريء الكريم نقد ورأي البروفسور الدكتور مونتجمري وات ـ أشهر مستشرقي العالم ورئيس قسم الدراسات العربية بجامعة أدنبرة وأبعدهم صيتا وأعمقهم دراية ومعرفة بتراث العرب وحضارتهم ، وقد قابله الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب في أدنبرة وتحدث اليه حول قضايا متعددة منها موضوع كتاب الهاجرية ، فالبروفسور مونتجمري وات يستهجن هذا الأسلوب ويشجب هذه الطريقة التي لا تمت الى العلم بصلة• والى القاريء الكريم رأي البروفسور وات باللغتين العربية والانكليزية •

د• حسين أمين



ترجمة كلمةالبروفسور مونتجمري وات بالعربية :

جاء في التقديم لكتاب « الهاجرية: تكوين العالم الاسلامي » لمؤلفيه باتريشيا كرون ومايكل كوك (والذي طبع بمطابع جامعة كمبرج ويقع في ٢٦٨ صفحة ويباع بسعر ٧٫٥ باون) ان « الكتاب يطلق نظرية جديدة في اصول الاسلام وتحليلا محدثا لتكوين الحضارة الاسلامية ». وتستند هذه « النظرية الجديدة » كليا الى اسس غير اسلامية . اما اصطلاح « الهاجرية » فللدلالة على ما يفترض بها ان تكون مرحلة فجر الاسلام ، (وهو مستوحى من اشارة الى « الهجري » الكلمة السريانية اي (المهاجرون) والمقصود بها « اولاد اسماعيل ابن هاجر ابن ابراهيم » (ص ١٦٠) .

وبالرغم من كثرة اطلاع المؤلفين فان نظريتهما « الجديدة » خالية من اية قيمة لانها مبنية على فرضيات معينة يرفضها الاسلوب العلمي السليم وهي :

اولا : أن اهمالها للتقليد الاسلامي مبني على حقيقة « عدم وجود اساس خارجي مقنع لقبوله » (ص٣) غير ان هذا المبدأ لو طبق على اي من حضارات العالم العظيمة ، فانه سيؤدي الى رفض شبه قطعي لتاريخها القديم . ويكفي ان نذكر بهذا الصدد الحضارة

اصل كلمة البروفسور مونتجمري وات بالانكليزية

ISLAMIC SCHOLARSHIP ?

According to the blurb to Hagarism: The Making of the Islamic World by Patricia Crone and Michael Cook (Cambridge University Press, £7.50 pp. 268) this book sets out new theory of the origins of Islam and a novel analysis of the formation of Islamic civilization'. The 'new theory' is based entirely on non-Muslim sources. The term Hagarism is used for the presumed original stage in the development of the religion, and is derived from a reference to the Mahgraye (the Syriac rendering of muhajirun) as 'the sons of Ismael bar Hagar bar Abraham' (p. 160). Although the authors show great erudition, their 'new theory' is absolutely valueless because it is based on certain assumptions unacceptable to sound scholarship.

Firstly, their neglect of the Islamic tradition is based on the fact that there are 'no cogent external grounds for accepting it' (p. 3). This principle, however, if applied to any of the great civilizations of the world,

اليونانيـــة والرومانيـــة والكنيســـة المسيحية وحتى فترة ما قبل السبي من التاريخ الاسرائيلي . فأية اخبار عن فجر هذه الحضارات من الممكن ان تستقى من مصادر غريبة عنها ؟

ثانيا : في الوقت الذي ربما يدعي فيه المؤلفان بأن هنالك من المصادر الخارجية عن فجر الاسلام اكثر من تلك التي تبحـــث في فجر اي مـــن الحضارات الاخـــرى ، فانهما (اي المؤلفان) قد فشلا قطعا في تبرير اعتمادهما الثقة في مصادر كهـــذه، هذا مع انه من المعروف بأن مصادر العصور الوسطى اللاتينية تصـــور الاسلام بأسلوب ملـــيء بالتشـــويـــه والتحريف . كذلـــك فان اعتبـــار المصادر السريانية القديمة وغيرهـــا اكثر ثقة من تلك ، يحتاج الى بعض التبرير .

ثالثا : ان المؤلفـــين يعتمدان ان اسلوب المناظرة الذي يمكن تسميته بأسلوب « الثرثرة بصـــوت عال » (او اسلوب العقعق) ، اذ انهمـــا يجمعان بعض الحقائق التـــي مـــن الممكن ان تبنى عليها قضية صورية ويهملان الحقائق المركزية الاساسية وخاصة المناقضة منها ، فهما بذلك مسروران بأنهما يدعمان وجهـــة نظرهما بالاستناد الى بعض النقاط المختارة مـــن التقليـــد الاسلامي في الوقت الذي يهملان او يرفضان فيه ذلك التقليد ككل .

would lead to an almost complete rejection of their early history. One need only mention Greek and Roman civilization Church, and even the pre-exilic period of Israelite history. What account could be given of the beginnings of these from alien sources ?

Secondly, while the authors would probably claim that there are many more external sources for early Islam than for these others, they completely fail to justify their reliance on the credibility of such sources. Yet it is common knowledge that the external Latin mediaeval sources give a picture of Islam that is full of distortions; and some justification is required for holding that these early Syriac and other sources are more reliable

Thirdly, the authors practise what might be called the 'magpie method' of argument. They collect a few facts, on which a specious case can be based, and neglect the main body of facts and especially any contrary facts. Thus they are happy to support their case by some selected points from the Islamic tradition, while neglecting or rejecting that tradition as a whole. This 'magpie method'

لم يكـن اللجـوء الـى اسلوب الثرثـرة هذا في تأويـل النظريـة الهاجرية فحسب وانما طبق ايضا في الاقسام اللاحقة من الكتاب والتـي عرض فيها المؤلفان « تحليلا لتكوين الحضارة الاسلامية » كان غاية في الفردية . ان من المحزن ان نـرى شبابا يبددون مواهبهم الاكيـدة في ممارسات عقيمة كهذه . كذلك فانه من المثير للدهشة ان تقوم جامعـة معروفة بنشر دراسة أقل ما يمكن ان يقال عنها انها غير علمية .

البروفسور مونتجـمري وات ــ مدير قسـم الدراسـات العربيـة بجامعة ادنبرة

is applied not only in expounding the theory of Hagarism but also in the later parts of the book where they present a very individualistic 'analysis of the formation of Islamic civilization'.

It is sad to see young people frittering away their undoubted talents in such fruitless exercises, and it is surprising that a reputable university press is prepared to publish what can only be described as pseudo-scholarship.

W. Montgomery Watt



٢ ـ كتاب جزيرة العرب لأبي عبيد البكري

تحقيق ودراسة **الدكتور عبد الله يوسف الغنيم**

أصدر الأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم ـ رئيس قسم الجغرافيا في جامعة الكويت كتابه الموسوم (جزيرة العرب ـ من كتاب الممالك والمسالك لمؤلفه الجغرافي العربي « أبو عبيد البكري ») ٠

والكتاب هو جزء من البحث الذي تقدم به الدكتور الغنيم للحصول على درجة الماجستير وقد اعتمد المؤلف في تحقيق نصوص الكتاب على نسخ خطية منتشرة في الوطن العربي والعالمي ٠

وقد توصل المؤلف بعد دراسته التفصيلية للنصوص الواردة في المخطوطات المتعددة الى أنه من المحتمل أن تكون المادة الجغرافية المتعلقة بالجزيرة العربية متكاملة أصلا في كتاب البكري ، وأن يكون ذلك الاضطراب الذي نلحظه في المخطوطات المنتشرة انما سببه النساخ ، فالبكري لم يجزيء المادة الجغرافية لبقية الأقاليم بل كانت دراسته لكل اقليم وحدة متكاملة ،وعلى

هذا فقد أوردت الأجزاء الثلاثة المتعلقة بالجزيرة العربية من الكتاب متتالية حسب ورودها في كتاب البكري ، ويؤلف مجموعها نصا متكاملا في الجغرافية الاقليمية لجزيرة العرب ·

والكتاب يحوي معلومات طريفة عن جزيرة العرب وبخاصة أخبار اليمن وأهم مدنه كما أوضح بعض الطرق التي كانت متبعة كالطريق الى ذمار ومن ذمار الى زبيد ومن زبيد الى مهرة ومن ذمار الى منكث ومن صنعاء الى حضرموت ·

كما عرج الكتاب على ذكر بلاد عمان وبلاد البحرين وأعمالها ، كذلك بحث في الطريق من البحرين الى عمان ومن مكة الى عمان ، كما ذكر اليمامة وبين الطريق من البصرة الى اليمامة والطريق من البصرة الى مكة ، ثم شرح المؤلف الجغرافية الطبيعية كما وردت في كتابات البكري ،فبين آراء الفقهاء وكذلك تحديد علماء اللغة للجزيرة العربية ، فتناول المؤلف مواضيع الموقع والعلاقات المكانية ، والأقاليم الطبيعية وموضوع المناخ وموارد المياه ، والنبات الطبيعي ·

وتناول موضوع الجغرافية الاقتصادية للجزيرة العربية كالزراعة والصناعة والتجارة · كذلك تناول موضوع الجغرافية الاجتماعية للجزيرة العربية ، فأشار الى السكان وأعمالهم والعمران في الجزيرة العربية وأنواع المدن ومناطقها وكذلك المواصلات ·

ان الكتاب الذي قدمه الأستاذ الدكتور عبد الله يوسف الغنيم يعتبر من الدراسات المثلى لمواضيع التراث ، فبالاضافة الى عناية

المؤلف المحترم بالنص وفحصه وتحليله وتقييمه فان اخضاعه للمادة العلمية وابرازه لها بهذا النسق الموضوعي اعتبر هذا الكتاب من المجهودات الممتازة في حقل البحث العلمي ٠

ولم ينس المؤلف أن يزود الكتاب بخرائط تفصيلية مهمة لتوضيح الرؤية العلمية ٠ فباسم المؤرخين العرب أهنيء الأستاذ الفاضل على جهده الرائع وأبارك له عمله العلمي القيم ٠

الدكتور حسين أمين

الأمين العام لاتحاد المؤرخين العرب







blem definitely had its merits. It did contribute to creating a new awareness and a new sense of justice. 'We are guilty', he said again and again. He meant the British, but whenever Germans, Russians, Americans, and Zionists are ready to make similar confessions, such an 'admission of the injustice' is able to create the moral sensitiveness which is the pre-condition for just solutions of any socio-political problem. Here lies Toynbee's real contribution with regard to the Palestine question. Let us emulate him in this respect and work, as historians, for the furtherance of human sensibility.



When the Labour Party came to Power in July 1945, the Zionists were again hopeful because of the pro-Zionist attitude of the Labour Congress in 1944. But they were to be disappointed. In the first place, the concept of partition did not at all fit into Bevin's so-called 'new approach' to Middle Eastern problems; in the second place, it no longer really counted what the British government had in mind. The will of the two powers which emerged as 'superpowers' from the War, the United States and the Soviet Union, was now paramount also with regard to the Palestine problem. For different reasons, they together engineered the Partition of Palestine. Without their agreement on this point, the country could not have been divided.

After Bevin's last plan for the establishment of an independent, undivided state of Palestine (February 1947) had been rejected and the problem had been handed over to the United Nations, Britain refused to co-operate in the execution of the fatal UN decision.

Nearly all of the facts of which I wished to remind you in a structured form, are well-known. To be sure, others would present and interpret them in a different way. But one thing seems to be clear to me: There is nothing inherently mysterious or particularly sinister and conspiratorial about this policy of the Mandatory. It was an imperialist policy, though a somewhat complicated one. Not out of love for justice, but because imperial interests demanded it, efforts were even made to try to rectify the 'initial mistake' during the period 1939-48. Then, however, it was already much too late. Thus it appears to be insufficient to direct the critique merely against the symptoms, against a particular form of injustice; it must embrace the whole idea of an imperial policy, of imperialism.

Personally, I do not believe, however, that we are able to lay bare the roots and aims of modern imperialism if we approach this problem in terms of 'encounters between contemporary civilizations'. Yet Toynbee's approach to the Palestine pro-

volence of the Arabs, and that it was this benevolence which only counted at the moment. The Zionists tried in vain also to argue strategically (the Jews would be better and more loyal soldiers than the Arabs; Turkey, Persia, and Afghanistan were strategically more important than the Arab countries). In the end, MacDonald asked Weizmann whether he seriously believed that the Arabs had to be forced to accept further Jewish immigration into Palestine — whereupon Weizmann inquired whether the English had the permission of the Arabs to be in Palestine...

The document what was to appease the Arabs was the White Paper of 17 May, 1939. It announced the independence of Palestine after a transitional period of ten years. Within the first five years of this period a total of 75000 Jewish immigrants should be allowed to enter the country; thereafter further immigration should completely depend on the consent of the Arabs. The High Commissioner was empowered to prohibit land sales to Jews. Though it was much less than the Palestinian Arabs had demanded, this was an implicit abrogation of the Balfour Declaration.

The policy of this White Paper was more or less vigorously upheld during the Second World War. In January 1940, the Foreign Office argued in a memorandum submitted to the War Cabinet, that contrary to the situation during the First World War, this time no regard had to be paid to the American Jews, as for them, there was anyway no alternative to total support for the allies. One of the main reasons for the prevailing stability in the Middle East was seen in the existence of the White Paper was seen in the existence of the White Paper of 1939. The Cabinet therefore declared on 3 July, 1940, that there was no reason whatsoever to modify the policy of the White Paper. Some futile attempts at revision were made by Churchill in 1943/44, but it remained valid throughout the War.

London in spring 1930. These concessions were embodied in Passfield's White Paper of 20 October, 1930, but they were renounced shortly afterwards in the so-called Black Letter of 1931. Whereas the White Paper had given the impression that only a very limited extension of the Jewish National Home would be possible in the future, MacDonald assured Weizmann in his 'Black Letter' that the obligations of the Mandate would be fulfilled.

The situation which was created by these conflicting statements did not basically change until 1936. British proposals with regard to constitutional reforms came to nothing. The years 1929-1936 were a period of transition.

The third phase began in 1936, when the increasing Jewish immigration into Palestine after the National Socialists had come to Power in Germany finally forced the Palestinian Arabs to act. During the following three years the British government was compelled to reverse its policy. But the ultimate British decisions were also influenced by the political development of the world as a whole. The Peel Report and the idea of partition was initially accepted, it is true, but very soon there emerged an alliance of the Foreign Office and the Armed Forces directed against all proposals for a partition of Palestine. In view of the situation in Central Europe, in the Mediterranean Area and in East Asia, this idea was categorically rejected by the British government in November 1938. The Arab governments, who were now actively supporting the aspirations of the Palestinian Arabs, were not to be driven into the arms of Mussolini and Hitler, and the attitude of the Indian Muslims also had to be taken into account.

During the trilateral St. James Conference in London in spring 1939, the Zionists were unloved partners to the negotiations. Now it had become all-important for the British government to appease the Arabs. The Colonial Secretary, MacDonald, told the Zionist representatives that the safety of Britain's imperial lifeline in the Middle East was dependant upon the bene-

and with the Zionists possibly forever. Churchill told Arab representatives in Jerusalem in 1921 that 'the present from of government will exist for many years. We shall gradually develop representative institutions, which shall lead to full self-government, but our children and grand-children will not live to see this aim fulfilled'. And the so-called Churchill Memorandum of 1922 assured the Jewish community in Palestine and the prospective immigrants who would be admitted in accordance with the 'economic absorptive capacity' of the country, that they were to live in Palestine 'as of right and not of sufferance'.

The policy of the Mandate as interpreted in the Churchill Memorandum of 1922 seemed to work until 1929. Arising difficulties could be met by experimenting with the three variables mentioned above. In August 1928 the departing High Commissioner (Lord Plumer) could point to the fact that Palestine was relatively quiet compared with other Arab countries. (The main reason was, however, that Jewish immigration sank to 14000 persons in 1926, and dwindled further to a mere 3000 in 1927, while Jewish emigration in the same year stood at 5000.)

The second phase began with the so-called 'disturbances' of 1928 and 1929. British policy now had to be reconsidered and reformulated. The most radical proposals were made by the new High Commissioner. Sir John Chancellor, in 1930: self-government for the Arabs, ending of land transfers to Jews, restriction of Jewish immigration. The Colonial Office, however, rejected these proposals. Its Middle East Department stated in a paper: 'With the National Home policy eliminated, our excuse for remaining in Palesitne would be reduced to little more than that of the importance of a territory containing the Holy Places'. In the Foreign Office the fact was again pointed to that the Balfour Declaration, and therefore the Mandate, had two sides.

Accordingly, not unimportant concessions with regard to immigration and land transfers, but not in the field of self-government, were made to the Palestinian delegation which came to

first part of the 'dual obligation', then pointing to the second part of the 'two-fold duty'.

In this struggle to build up and maintain a British presence in Palestine, three phases can be discerned: During the first phase, which ended in 1929, the Zionist factor, the raison d'être of the Mandate, had to be implanted. Policy-makers did not fear an insurmountable opposition from the Palestinian Arabs. In this they were reassured by all kinds of expert advice. General Clayton (Chief Political Officer OETS) e.g. stressed the lack of aspirations towards independence among the population of Palestine. According to Ormsby-Gore, Assistant Political Officer in Palestine in 1918, the people West of the Jordan were not even Arabs, but only Arabic-speaking. Ironically enough, Arnold Toynbee, serving in the Political Intelligence Department of the Foreign Office in 1918, also contributed to this reassurance when he minuted: 'The Arabah is a sub-tropical district, at present desolate, but capable of supporting a large population if irrigated and cultivated scientifically. The Zionists have as much right to this no-man's-land as the Arabs, or more'.

«The land that is desolate, was a popular theme. In 1921 e.g. it was argued in the Cabinet 'that the Arabs had no prescriptive right to a country which they had failed to develop». As a footnote, we may also mention that in 1934, when the first three volumes of Toynbee's 'A Study of History' were published, he was still somehow impressed by the 'pioneering peasantry' in the Jewish agricultural settlements, but already aware of 'the tragic misfortune into which they have fallen, in company with the Mandatory Power', because of 'their inability to arrive at an understanding with the existing Arab population of the country'.

But let us come back to the evolution of the Mandate policy. After the more or less pro-Arab military administration had been replaced by a pro-Zionist civil administration in 1920, it was the latter's task to bring home to the population of Palestine that it would have to live with the British for a long time to come

Balfoure Declaration was one of the greatest mistakes in our imperial history'.

I shall now try to show how imperial policy towards Palestine evolved and how the British government came to realize the 'initial mistake'.

Whatever mystical inclinations Balfour might have had personally, the Balfour Declaration had two rather unmystical aims: It was to win the Jews all over the world for the allied cause during World War I and it was a step towards the revision of the Sykes-Picot-Agreement. It was directed against any French ambitions towards Palestine; the British did not want to see the French entrenched in any way on the other side of their 'imperial lifeline', the Suez Canal.

After the Balfour Declaration had helped the British government to win the Mandate, the Mandatory saw itself confronted with a double task: As already stated in the Balfour Declaration, which was incorporated into the Mandate, the British government had not only to 'facilitate' 'The establishment in Palestine of a national home for the Jewish people', but also to take care 'that nothing shall be done which may prejudice the civil and religious rights of existing non-Jewish communities in Palestine', i.e. of the Muslim and Christian Arabs who constituted more than 90% of the country's population.

These two poles of the Declaration became the «Scylla» and «Charybdis» through which the boat of the British national interest had to be guided, in constant danger of being shipwrecked. This was the essence of the policy of the Mandate. For strategic and economic reasons a continued British presence in Palestine was deemed necessary. The diametrically opposed demands of Zionists and Arabs with regard to immigration, land transfer, and self-government became the three variables with which the British government could operate, always yielding to the stronger pressures, without questioning the own presence, now citing the

Toynbee's approach definitely has its values, which I shall point out later. But it also has its deficiencies. It tends to obscure the fact that historiographical analysis has to see British policy towards Palestine until 1948 in the context of global British policy, i.e. of imperialism. Toynbee, however, did not condemn the British presence in the Middle East, or the British Mandate in Palestine, as such, as a manifestation of imperialism. Rather, he condemned the ambiguity, the double game, the reprehensible policy of the Mandate.

'With feelings of shame and contrition', to use his own words, he laid 'the heaviest load of responsibility' for the *outcome* of the Mandate on British governments. 'To my mind', he wrote, 'the most damaging point in the charge-sheet against my country is that Britain was in control of Palestine for thirty years... and that during those fateful three decades she never made up her mind, or at any rate never declared, what her policy about the future of Palestine was. All through those thirty years, Britain lived from hand to mouth. ... As an Englishman I hate to have to indict my country, but I believe that Britain deserves to be indicted, and this is the only personal reporation that I can make'.

As historians, however, we should not be content to decry the 'double game' which resulted in a human tragedy, to lay the responsibility on 'wicked men' who lived, politically, 'from hand to mouth'. We have to see that British policy in Palestine *had* a clear basis, namely British imperial, and that is national, interest. In every stage of the evolution of this policy the national interest, or rather what decision-makers in a particular moment believed it to be, was the guideline.

The cause of the tragedy was an imperial policy which always implies tutelage, domination, exploitation. The 'double game' in Palestine merely turned out to be an inappropriate and perhaps countereffective means. Thus Elizabeth Monroe could pertinently state that 'measured by British interests alone the

TOYNBEE AND THE PALESTINE MANDATE

by A. SCHOLCH, UNIVERSITY OF ESSEN

One of the historical nightmares which seems to have haunted Arnold Toynbee during his later years, was that of a British responsibility for the genesis of the Palestine tragedy, a responsibility which he conceived as the personal, moral guilt of those politicians who made the key decisions. He once said, for instance : 'I will say straight out: Balfour was a wicked man' .In many interviews, letters, and forewords he called for some kind of reparation for the evil that had been done.

To an increasing number of people, especially those who were following with sympathy the process of the liberation of the Third World from imperial domination and who were familiar with the Palestinian Resistence Movement, Toynbee thus became known not so much as the author of 'A. Study of History' and other scholarly works, but through his statements on the Palestine problem. Many who became acquainted with Toynbee in this way may have assumed that the basis of his judgement was a detailed historiographical enquiry.

But Toynbee was not a historian in the ordinary sense. Rather, he was a visionary and a moralist. His 'imaginative vision of history' had, to use Albert Hourani's words, 'the same relation to fact as has poetry'. Thus his approach to the Palestine problem was not one of meticulous political and historiographical analysis. His starting-point was his moral indignation, the background was his own peculiar vision of history.

portrayed in the following pages. Rather I endeavoured, in the pursuit of the truth, to expose their faults with little consideration for national or personal susceptibilities. Moral judgment I did my best to avoid, but by marshalling the facts, asking questions and making suggestions, I think I put the reader in a position to reach his own verdict.

One of the aims of the book is to establish order in place of half a century of chaos. Allowing for human error, I vouchsafe the accuracy of the facts and take full responsibility for my understanding of them. But I am in distinguished British company when I maintain that British policy regarding Palestine from 1917 onwards constituted an injustice to the Arabs. That policy has now become history, and I traced its genesis and development up to 1921 in the perspective of history. Its further development after that date and its tragic consequences require at least one other study on this scale.

PREFACE

The use of the first person singular has been deliberately avoided throughout this book. I relax this restriction here to enable me to state the simple fact that I have maintained a deep interest in the subject since I was an undergraduate. Apart from a number of youthful articles, my first serious effort was in the form of two memoranda submitted to the Palestine Royal Commission. The scope of historical investigation was, however, still limited by official secrecy. As soon therefore as the British archives covering Anglo-Arab relations were opened for public inspection, I utilised them first for articles in *The Middle East Forum* and *The Islamic Quarterly*, and later in *A Modern History of Syria including Lebanon and Palestine.* This book was published in 1969 when I took the occasion to declare my intention of producing the present study.

I spent more time on preparing and writing it than on any other of my works. It gained from years of search in archives, extensive reading on all aspects of the subject, and much reflection on the interrelations of events and their interpretation. I give below the facts, with my own understanding of them, without dramatisation or rhetorical flourish. These facts are often stark enough without the language of metaphor; they relate to a drama that requires little of the art of the dramatist.

I was not overawed by the huge mass of evidence, original documents in the Cabinet and Foreign Office files, memoirs by politicians and an increasing number of new books, both scholarly and partisan. I did my best patiently to sift the evidence and then to distil the essence in a consistent whole. I made no conscious effort to hide the human imperfections of those



ANGLO — ARAB RELATIONS

and

THE QUESTION OF PALESTINE

1914 - 1921

By

A.L. Tibawi


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی


مرکز تحقیقات کامپیوتری علوم اسلامی